

تحسين گرمياني

ليلة سقوط

جولاء

Designed by

المكتب العربي للنشر  
002 / 01115742303



## ليلة سقوط جلولاء تحسين گرمياني

الطبعة الأولى: 2019

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07700492576 - 00711002790

E-mail: alame@yahoo.com - email: bul

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار  
والمؤلف، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا  
يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو  
صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First published by Dar Soutour For Publishing and Distribution  
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry  
Revised copyright © Dar Sotour. The right of the Author of this  
work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs  
and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي  
كاتبها، أو محررها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبر بالضرورة  
عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 608 - 44 - 0

تحسين گرمياني

رواية

ليلة سقوط  
جلولاء

  
للنشر والتوزيع



## إهداء!

إلى...

جلولاء .. كؤلالة .. قره غان  
أرضاً .. أناساً .. بلا اسثناء !  
قديماً .. حاضرأ .. مسقبلاً .. سواءً بسواءٍ !



( الواقع كما قلّنا من قبل، لا يمكن أن يُروى أو يتكرر . الشيء الذي يمكن عمله بالواقع هو اختراعه من جديد )

( توماس إلوي مارتنيث / رواية سانتا إيفيتا / ص ٩٩ )

\*\*\*

( هناك بداهة، إرادة للعثور على لغة هي، في نهاية المطاف، إجابة الكاتب على متطلبات فنّه وكذلك على متطلبات مجتمعه. وأعتقد أنّ إمكانية المعاصرة تكمن هنا )

( كارلوس فوينتس / من مقدمة موت أرتيميو كروث / ص ٨ )

\*\*\*

( خيانة المثقفين، تكون في الصمت وعدم الالتزام وعدم الاكتراث بقضايا المجتمع وبالحياة الحقيقية. المثقفون مطالبون بوضع موهبتهم وشهرتهم في خدمة قضايا أكثر عمومية، وبالالتزام بالنضال ضد المظالم )

( باسكال يونيفاس / المثقفون المزيّفون.. النصر الإعلامي لخبراء الكذب / ص ١٥ )

\*\*\*

( أستعادة الذكريات مثل مد يدك إلى النار )

( سيفتلانا أليكسييفيتش / رواية فتیان الزنك / ص ١٠٣ )

\*\*\*

( الأوغاد يشكلون أذ جزء في الحكايات )

( إيزابييل أليندي / رواية باولا / ص ٢٧ )

\*\*\*

( الشخصيات الشريرة جذابة وممتعة )

( أفلاطون / الجمهورية )

\*\*\*

( اترك وراءك إرثاً يستحق التذكر )

( جلال الدين الرومي )



## نوافذ الولوج إلى غرفة الحكاية

لنتخيل.. كم من وقتٍ وجهدٍ يحتاج كاتب الحكاية، لتجميع ثيمات حكاية مبعثرة، حكاية شخص ما، إنثوية أم ذكرية، مفككة أحداثها، متناثرة أقواله، لنتخيل لحظات إنعزاله للتأمل، وأوقات إنشغاله بتجميع وتوليف وتنسيق وترصيع وترتيق جسد الحكاية، كم من الحيلولات التكتيكية ووجهات النظر عليه أن يقترحها لتماشي إلى حدٍ ما روح المعاصرة، قبل أن يلقيها كتاباً بين يدي قارئ ما، ينهيه ببضع جلسات أو كذا ساعات، وقد يدفعه جانباً بعد سطور، أو تقلب بضع صفحات منه ليبحث عن كتابٍ آخر شافع ونافع يُروّض أو يُرضي مزاجه.

\*\*\*

من وجهة نظر شخصيّة، إنّ أغلب الحكايات، إن جاز لي التعبير، طواحين أعمار مبتكريها، فكلما انتهى كاتب ما، جاد وحريص، من مراجعة حكايته، شعر؛ انه بحاجة ملحة إلى مراجعة أخيرة، وتستمر عملية الطحن إلى ما يشاء العقل حتى يخمد، وهكذا دواليك.

\*\*\*

من الواضح أن معظم الحكايات التي تتصدى للعذابات الإنسانية، ونضالها المتواصل لقهر غول المستحيل، تكون أكثر

شعبية وجاذبية وإمتاعاً لدى شريحة واسعة من القراء، أليس هذا دليلاً واضحاً على اغتراب الروح البشرية عن واقعها.

\*\*\*

لم تعد تراتبية الأزمنة تشكل أهمية في رواية اليوم، بعدما هيمنت الفكرة، وتداخلت الأجناس الأدبية والجمالية، لتتعاشق وتلتبس لحد الاختناق أحياناً، نجد الكثير من روايات اليوم محطمة الأشلاء، كأنها أحجية وألغاز، كأطعمة الوجبات السريعة، تُكْنى بالمعاصرة، قد يتعذر على القارئ العادي لملمة الأشلاء المبعثرة لتشكيل الثيمة الرئيسية للحكاية، رغم شعوره بالمتعة والاندماج الساحر أوان القراءة، بسبب انسيابية سردها، ورشاقة لغتها، وأحداثها المفتعلة.

\*\*\*

على ما يبدو؛ أن روايات التحري هي الأكثر جاذبية لدى المتلقي، لما تحفل بالتشويق والإثارة ولعبة التقاطعات في المصائر، إنها تحفز غريزة الفضول، وتشدّ الذاكرة لمتابعة سياحية مبهرجة، تتأرجح ما بين الهلع والراحة، وتُسعِرُ الرغبة للتعرف على مجريات الأحداث وملابساتها وفك ألغازها، إنها تتسم بلغة متحركة متنقلة رشيقة، لا تترك فرصة للضجر والإملال عند المتلقي.

\*\*\*

من خلال تجربة متواضعة نوعاً ما، وصلت إلى وجهة نظر شخصية بحتة، أن الحكاية هي، وعبر كل الأزمنة، وربما إلى نهاية

البشريّة. لا تعدو سوى الاحتفاء بسلبيات الحياة، التغني بشخصيات منفلّطة من شوارع البشرية، شخصيات تنماز بأحلام فوق مستوى طاقاتها، والحكاية كما وجدتها من وجهة نظري، حاوية لكلمات ولأفعال تتداخل فيها وتشتبك الجديّة بالتناقضات، وندرة الأعمال الفرديّة، قد تكون خارقة للغاية، وفوق طاقة الواقع، نساء ورجال سواء بسواء، صبيان وصبايا، تجتاحهم زوابع عاطفيّة وعوز أزلي وشورور قدرية وجنون غير محتمل، يبتكرون بطولاتهم ويخترقون بشيء من المغامرة ممرات زمنيّة تمنحهم الدهشة وتصنعهم أبطالاً، ترفعهم الألسنة، تصطادهم الأقلام والأفلام ليكونوا أيقونات أزمنتهم ولو على الورق، من هذا المنطلق تحديداً، رغبت أن أشدّ ولو قليلاً عن هذه المسالك المألوفة، واضعاً في بالي، أن حكايتك مغامرة غير محمودة العواقب، وضعت في بالي طريقة مثالية للاحتفاء بك، سوراليّة ربما، أو كولاجيّة إلى حدّ ما، قد تتخذ أوان انفلاتها الخيالي مسارات تتشابك فيها طبائع سردية متنوعة، لجعلها احتفاليّة لاثقة بالذائقات الزنيقة لقراء اليوم، ورغم ما أحمل من جنون المغامرة ومأموليّة وهجها، في بالي وضعت أيضاً أهميّة الاحتفاظ بجوهر الحكاية، بوظيفتها الكونيّة، بعناصرها الأساسيّة، بأزمنتها وجغرافيتها، بمدى قدرة العقل البشري على الانسجام معها، رضاً أو نبذاً سواء بسواء، ولكن؛ قد لا أعدك بأنني سأفلح في ما أطمح إليه وفي بالي ما وضعت من غاية، الكل يعلم؛ الدارسون وقراء الحكايات، أنها؛ أي الحكاية، مهما سلكت من مسالك متشعبة،

ومهما احتوت من أفانين وألاعيب سردية، وتزيينات لغوية، لا بد أنها ستسقط، في نهاية المطاف، على مسلكها القديم، ذلك المسلك الذي يقود غالباً ما، وربما دائماً وأبداً، إلى ساحة الثورية، ضد كل ما هو سلبي وشاذ وهامشي ورتيب.

\*\*\*

ولكي أُمّح حكايتك براءتها وعفويتها كما عزمت أمري وشددت على إصري، سأناي إلى حد ما، عن فكرة إعداد أسلوب، أو لنقل، اللجوء إلى قوالب سردية مُسبقة، وليس بمتناول فكري سوى شظايا وترف أحاديث احتفظ بها رفاقك، وما عشته معك، حفنة أوراق مؤرخة، بعضها ممزقة، وحفنة أخرى أبقت أشياء حيوية دفعتني أن أغامر وأن أخوض نهر حكايتك، ولا أكتمك السر أيضاً، واسمح لي بطريقة مخاطبتك، كما لو كنت حياً تُرزق - بل ستبقى حياً معنا - أن حكايتك، بدأت وانتهت بحياة البلدة - هذا ما وضعته كمخطط أساس - أن لا أتجاوز حدودها التاريخية، طبعاً سترصعها - من باب مقبلات الحكى - حيوات جانبية عشتها وترسخت جذورها في أزمنة قد تمتد من حيث ولدت وإلى حيث مِتُّ. وقد اضطر إلى التحشية وفق منظوري ومتطلبات السرد، كل ما ينير الجوانب الغامضة، لكنني أعدك بأنني سأكون صارماً مع نفسي، كي لا أخرج من فلك حياتك. أدرك، أن فكرة الإعدادات والمخططات الأولية لأية حكاية شائعة واجبة لكل راوي حكايات، رغم علمهم، أنها غالباً ما

تُتسّف بعد هبوط الجملة الأولى على جليد الورق.  
وأعتقد.. أنّ جمالية الحكاية ومتعتها وسر توهجها تورق من  
هنا، كون الحكاية ابنة الخيال، والخيال كما اتفقنا ذات يوم، أنه  
فردوس البشر المفقود.

\*\*\*

ليس لي سوى ركوب موج التحدي، وحكاياتك يا صاحبي أشبه  
بمواد إنشائية غير متناسقة، أو رحلة غير مدروسة النتائج، عبر  
بحرٍ غير مكتشف، وليس لي خريطة بناء كي أبنى عمارة شاهقة،  
لا أملك وسيلة نقل لأخوض بها متاهات نهر الحكي، لا أملك غير  
إرادتي وعقلي لابتكار قاربي الخاص، قارب يسعني ويسع أحلامي،  
يسع كلماتي ويسع حكايتك، ليس لي أدوات عمل سوى تغريدة واحدة  
من تغريداتك الأثيرة، وجدتها بين أوراقك، كانت كافية لتغدو قارباً  
ينفق ومزاجي، فيها وضعت زادي ومتاعي، بعدما وجدتها دليلاً  
سيرشدني إلى أحتوائك:  
تقول تغريدتك:

*[إذا كان الميل - كما يعلم الجميع - يبدأ من خطوة واحدة، لاشك  
أن الحكاية - كما أرى - تبدأ من إرادة المرء، وتلك هي إشراقة البدء  
والنهاية..]*



## خريطة الحكاية:

{ كل ما جاء من سطور مدونة بقلمٍ عريضٍ وبخطٍ مائل، مستل من كشكولٍ صغيرٍ كان داخل خزان الماء مع جثة زوراب الأودي }





عندما تسرد غيوم السماء مطرها على أديم الطبيعة الجرداء .  
تبدأ غيوم العقل البشري بسرد الأفكار على جليد الورق .  
مطر السماء يُورق أزهاراً وأعشاب الربيع، كما يورق العقل الكتب  
قناديل الحياة .  
قد تكون مقارنة واقعية وتناصاً عجبياً، فلما اشتد المطر تحدى  
العقل وتسارع في الرد الساطع بالكلمات .  
( زوراب الأحدي )



# من أوراق مبعثرة لـ كشكول مُفكك داخل خزان الماء

الأحد ٨ حزيران ٢٠١٤ الساعة ٧:٣٠ صباحاً .

أمام البوابة الرئيسة لمبنى حزبي انفجرت حوضيّة على مجموعة  
حراس كانوا يتعانقون قبيل تسليم واستلام المسؤولية فيما بينهم،  
تناثرت أشلائهم وأشلاء مجاميع طلاب وطالبات كانوا يتبادلون الأسئلة  
والأجوبة المتوقعة والمسربة عبر مواقع التواصل الاجتماعي ، قبيل  
الدخول إلى قاعة الامتحانات الوزارية في مدرسة تحاذي مبنى الحزب .

\*\*\*

في خضم الفوضى والذعر ووصول دفعات من قوات الحماية إلى  
المكان، اقتحم شخص مسلح نجح في اختيار التوقيت المناسب، كان  
متنكراً بزّي رجال الحماية، شق مساره وبنديته فوق رأسه، متهستراً

يصرخ وحيثما أراد صاح: "الله أكبر". فجّر نفسه، فتناثرت أشلاء أخرى، بينهم قائد الشرطة وحمائته وكوكبة طلاب جدد، ومن بين ضحايا التفجير الثاني كان توأما روحي؛ نداء و رواء.

\*\*\*

الأحد ١٠ آب ٢٠١٤ الساعة ٦:١٠ عصرا.

عصرًا؛ رجفت أوصال البلدة كما ترتجف بين فترة وأخرى، جَراء تنامي ظاهرة المفخخات والمفرقعات الصوتية اللاصقة، ارتجت البنايات كما هو سائد ومعلوم، زعرت الناس كما لو أنّ زلزالاً عنيفاً ضرب منازلهم، تكفلت الهواتف النقّالة بتوزيع الخبر:

”مركبة حوضيّة تحمل قوالب ثلج انفجرت على جماعة مقاتلين“

عرفت الناس أن سائقها تحايل بزيفهم الحربي، ونجح في استقطابهم في يومٍ عصيبٍ قانظ بلا كهرباء، وفي ظرف دقائق استحالت سماء البلدة إلى قيامة رصاص عازف، ومطر قذائف زاعقة، تُرمى بطريقة عشوائية، على المنازل والأزقة والناس والحياة.

كنا لحظتها في ارجوحة المنزل نندارس الوضع العام، نتناقش فكرة الخروج من البلدة بعدما انحسرت مقومات الحياة فيها، فصار

النهار يخضع لصمت رهيب، ومع غروب شمس كل نهار، تتصاعد حدة المناوشات الحربية بين الجانبين، دون أن يريا أو يعرفا بعضهما البعض، فيتحول ظلام الليل إلى شاشة تبث الوميض، وممر سالك لخطوط فسفورية تتصادم أحياناً وتتشظى وامضة بالشرر، تتبعها ارساليات المدافع الثقيلة - من خارج نطاق البلدة، من شرقها تحديداً - بقذف حممها إلى خارجها الجنوبي.

\*\*\*

أجلس لإحصاء القذائف المارقة، من صوت انطلاقها ونسب كذبات الرمي، غالباً ما تكون دقيقة التخمين، كنت أحصد التنافر الواضح ما بين قذحة الرمي وبين وميض ورجة الأرض أوان سقوطها، عزوت ذلك لعنق القذائف المتراكمة في المستودعات على أغلب الظن، وأغلبها كما شاع من مخلفات الجيش السابق الذي انزاح من خارطة الزمن بتحالف أممي تغامضت غاياتها.

\*\*\*

مع غروب يوم انفجار حوضية الثلج، بدأت القذائف تنطلق باتجاه البلدة، على أطرافها وأحشائها، من جنوبها ومن جنوب شرقها، من وراء التلال المحصنة بالملاجئ والأسلحة المتنيقطة، بعشوائية تسقط لتنفلق، يتشظى جِراء انفلاقاتها زجاج النوافذ، تعلق الأبواب وتتصدع

الجدران وتنهار أسلاك نقل تيارى الكهرباء الوطنى المفقود والمؤنذات المتقطعة ضعيفة الفولتية.

\*\*\*

لم أجد مبرراً يدعوننا أن نبارح موقعنا لنتستر داخل الغرف بالجدران والنزوايا الآمنة، كانت الحالة طبيعىة، روتين آدمناه فى كل ليلة، رغم تواجد بون شاسع ما بين تلك الليلة والليالى المنصرمات، لم يحصل أن سقطت قذائفهم على كبد البلدة، كانوا يتسللون - كما يتحدث أغلب الناس - عبر مزاغل فتحوها فى جدران غرف المنازل من بيت لبيت. مزاغل تمنحهم ديناميكية الحركة للمشاغلة والمناورة، صارت البيوت طولاً وعرضاً تتصل بعضها ببعض عبر مزاغل هندسوها لتفى بغرضهم، وتؤمن لهم تنقلات لولبية لوجستية آمنة أو ان السجال الحربى وأوان فترات اقتناص الأهداف المأمولة وأوان سحب أغذية المنازل - بيتاً وراء بيت - إلى مكنهم عند أطراف المقبرة، من تلك المزاغل يصلون إلى مواقع قاتلة وبقتاصاتهم التى لا تخطئ يصطادون أنفاراً متواجدة خارج المنزل كائناً من يكون، تنطلق رصاصه من قناصة تعرف ضحيتها، قناصة ؛ تمرست على فن اصطياد السابله بمهارة ودقة وربما هذا دليل على أن الشر لا يُخطئ الهدف، لذلك تقام مآتم شبه يومية داخل المنازل بعدما أصبحت التجمعات البشرية أهدافاً مأمولة لزيادة نسب

الذعر، واسقاط المزيد من الضحايا لإرباك الوضع العام للبلاد، ومفاقمة هلع الناس كي يخضعوا أو يصمتوا.

\*\*\*

بقينا أنا وكولالة في أرجوحة المنزل نتهادى، رأسها على كتفي، كانت حزينة حزن أم فقدت ابنتين قبل شهرين بتفجير مركبة، وأعقبه تفجير شخصي ثانٍ لمسلح مزيف قرر أن يقتل قائد شرطة الطوارئ وحمايته، كُنّا أنا وهي، نتدارس وضعنا في محاولة إيجاد وسيلة مرضية أو مكاناً آمناً نشدّ رحلنا إليه بُعيد انتهاء الامتحانات الوزارية، كُنّا نمتلك الوقت الكافي والمناسب للمناقشة وحسن الاختيار، قبل أن نرسو على بر اتفاق نهائي لقرارنا الحاسم، رغم تواجد ردود أفعال نفسية منافية لفكرة الهجرة، كُنّا نعتبر - وهذه الفكرة كانت شائعة ومتفق عليها من قبل نصف نساء ورجال البلدة - أنّ ما يجري من حولنا ومن فوقنا مجرد مناوشات أنفار غوغائية كما تروج السنة الناس، ينتمون لجهاز شرطة الطوارئ وأنهم رفضوا إلقاء أسلحتهم بُعيد انسحاب الجيش من البلدة ودخول مقاتلي الحماية، استمكنوا في الطرف الجنوبي للبلدة، حيث المقبرة الكبيرة الجاثمة على الكتف الجنوبي للطريق الرابط ما بين البلدة والعاصمة.

\*\*\*

كانت كَولالة غارقة في سديم حزنها، فاقدة السيطرة على إرادتها، لم تستطع مغالبة دموعها، وأظنها في تلك اللحظة لم تكن تستوعب ما تفوهت به، كانت تتكئ برأسها على كتفي الشمال وكنت أهز الأرجوحة بتفانٍ وتأمل، ومن فوقنا كانت القنابل تزرق وافدة من اتجاهات شتى، صراخ وصياح ونداءات ووقع أقدام تضرب أرض الزقاق بشكل مرتبك ورائحة غبار بدأ يتشكل سريعاً وحريفاً. موجز الفكرة؛ شظية قُرت من قذيفة زعقت، وهذا ما تأكد لي وفق قناعتني في أقل تقدير، جاءت من جنوب شرق البلدة، من وراء سلسلة التلال التي تخفق حي الجماهير، حيث أعشاش خنادق ترتفع، تتمحور أسلحة مموهة، متوسطة وخفيفة فوق هاماتها، تتجه نحو الجنوب لرصد تحركات المسلحين. تلك القذيفة التي أصابت مسجد الحي من جهتها الشرقية إصابة بالغة أوقفت عقارب الساعات الثمان المشنوقات على الجدران الأربعة والساريات الأربع، كلها كانت تؤشر بدقّة؛ تمام السابعة وخمسة وأربعين دقيقة. وحصل أن تلولبت شظية فارة عبر نافذة من نوافذ المسجد - وهذا كان أكثر الأدلة رجحاناً وسينفق عليه الناس إن أرادوا معاينة مكان سقوط القذيفة والشرخ الذي حدث في زجاج النافذة المواجهة لحديقة المنزل - قُرت تلك الشظية مارقة بطريقة حلزونية يسبقها صفيها نحونا، كُنّا في تلك اللحظة نتهادى ونتحاور رغم فقدان التركيز ونبرات الحزن



وللحق أقول؛ كنت أحوارها وكانت هي مرتخية صامتة ورأسها على  
كتفي والدموع تتلألأ في موقئها، كنت أتحدث بلين ورفق وكان كلامي  
ضرباً من الهذيان غير المنسقى في مرهنة ذاتية لكسر خط تفكيرها  
وتهشيم زجاج حزنها، ولا أكتمكم السر أنني كنت أطمع كلامي بشطحات  
لوزعية من العشق ومفردات المغازلة في محاولة مني لترويض نمره  
حزنها وبعث جذوة الصمود فيها، وحولنا ظلام الليل كان سريعاً يتشكل،  
وهدير الفوضى يتفاقم، وصخب غير طبيعي ينمو في أحشاء البلدة.  
حطت الشظية حيث نجلس، تأكد لنا هذا فيما بعد، لتستقر في جسدها  
ولا أعلم إن كانت قد فاهت بكلام ما؟ للحق أقول لم أسمعها تأن أو  
تتأوه، ربما ندهت بأهه ألم، لكنني للحق أقول؛ لم أسمع منها شيئاً ما،  
ربما كانت نائمة خدراء من حزنها، ومن كلامي، وهذا ليس ببعيد أيضاً،  
ولكن من باب التأويل ووجهة نظري، حزن المرأة صخرة صماء لا  
تصدعها معاول العشق، هذا ما لن أقره أبداً وأعتبره مجرد تأويل محض  
عن لحظة أصابتها بتلك الشظية التي طارت لأكثر من خمسين متراً  
وحطت في الجانب الأيسر من بدنها، حيث قلبها كان في تلك اللحظة  
يسبح في حوض الأسف. خلدت للصمت، من غير أن تعلن ولو بأهه  
ألم أثناء أصابتها بتلك الشظية المارقة، تحت أجواء ملغومة بالفوضى،  
والغبار، والنيران، والهروب الجماعي، ليس لأناس البلدة فقط، بل شمل

كائناتها النهارية والليلية أيضاً

كنت لحظتها سارحاً في فكرة إيجاد مأوى بديل لتجاوز الأزمة المتفاقمة.  
آه.. لقد سقطت كوالاة.  
ومعها سقطت شجرة الحياة.

\*\*\*

الأحد ١٧ آب ٢٠١٤ الساعة ٧:٣٥ صباحاً.

لم أجد وازعاً أو دافعاً يقنعني بقيمة الحياة كي أهرب من أجلها،  
وجدت نفسي بلا روح، مجرد جسد مأسور بقوة المكان، سفينة بلا ربان  
تتناهبها أعاصير تخض الأمواج وتعاركها، هناك صوت ما ينهض في من  
مكان ما من أعماقي التي تصلدت وخنقت مجالات التفكير وسبل توليدها:  
” دفنت رئتيك وضلعك اليمين في مقبرة بلدتك، آن أن تجهز بدنك  
لثدفن معهن! “

صوت يشدني وطائعا أستجيب له، بناء على معلومة فرضها  
عقلي:

” أينما يدفن الشرقي موتاه، يتجنز موطنه “

\*\*\*

بدأت الأنفار الأخيرة من الناس تفر، أولئك الذين تعذر عليهم الهروب تحت زخ الرصاص وأخيراً؛ وجدوا فرصاً مناسبة تؤمن هروبهم، بدأوا يهربون، عبر مسالك وعرة يرحفون، ومن بين أزقة ثعبانية غالباً ما تنتهي إلى نهاية مسدودة، بسبب همجية البناء من قبل نهاري الفرص ومستغلي الأراضي العامة أوان تكاسل القانون أو يأس حراسه. غاب الخوف، وتلاشت المفاجآت من بالهم، لا بد أنهم انطلقوا من منطلق أن الحياة هي الشجاعة الكاملة أوان الكوارث البيئية والقدرية، وراحوا يقتحمون منحدراتٍ وودياناً تسوّر جهتي شمال وشرق البلدة، ولا بد أنهم تاهوا، يسلكون مسالك مجاريف المياه أوان مواسم الشتاء، عندما ترحف السيول من الجبال والمنحدرات، وتتجه نحو أحشاء البلدة عبر الأخاديد والممرات والوادي الكبير، ولا بد أنهم سيختارون تلك المآوي الآمنة، ليس من مسلك آخر أمامهم، تجنباً من فخاخ المسلحين ومراقبهم الساهرة، ومروق الرصاص الصافر، ربما الذين تركوا البلدة على مائدة دسمة، كمنوا في أماكن غير بعيدة، هيئوا أسلحة تخازلت في غفلة زمنية، أو تحت أوامر قاهرة، فيما تشبه مؤامرات الحروب وأسرارها، تهيأت للصيد، واضعين في بالهم، كل وافد نحوهم عدواً غازياً ملغوماً بشحنة متفجرات.

هربوا عائلات وفرادى سيراً على الأقدام، وأصحاب المركبات هربوا مع

خروج المسلحين، فهم يعرفون خبر الحدث قبل وقوعه، وهم دائماً كما راج بين ألسنة الناس، كانوا في حالة استنفار قصوى، وحاجياتهم المعيشية داخل مركباتهم مرزومة ومدامة تحسباً لأي طارئ متوقع، وكان صخب محركات المركبات يُفعل من هدير الحرب، أطفئوا مصابيح المركبات تجنباً من الاستهداف المباشر، وانطلقوا عبر تفرعات وأزقة قليلها تنتهي عند شارعي الخروج من البلدة - بعدما تم قطع الشارع الجنوبي الواصل إلى العاصمة - شمالاً نحو مدينة كلار، وشرقاً باتجاه بلدة خانقين.

\*\*\*

في أيام سابقة؛ احتاطت الناس للسجال الحربي المتواصل، الحالة ظلت تُنفر وتُدخل الجميع في نفي شبه عام، واستعداد تام للهرب، كلما بدأت محاورات الليل من تبادل النيران بشكل جنوني، كان أصحاب المركبات يحملون عائلاتهم مع مستلزمات معيشية متنقلة، ويقرون إلى خارج البلدة حتى مجيء الفجر، كانوا يتجهون إلى القرى المحاذية للبلدة، كثير منهم كان يجنح بمركبته إلى حذاء الطريق، في أمكنة تظللها أشجار عشوائية، تصطف المركبات معاً لتشكل تجمعاً تبقى ساهرة الليل في مساجلات ومحاورات حول آخر مستجدات القضية، ما يقال هراءً أو أحماسٌ بأسداسٍ، ومنهم من يصر ويغظ الأيمان بالحلف وبصوت جهوري مشاكس نوعاً ما، معتبراً نفسه أبا العقل الرشيد،

وناطقاً بالرأي الشديد، يريد أن يجزم الأمر بما يقول، مقترحاً؛ أن البلاد ذهبت إلى الجحيم. ومنهم يشاكس ويعاكس ويقر أن القضية لعبة أممية ستظهر حبكتها قريباً، لعبة سياسية تنفذها حفنة ساسة لا يمتون للبلاد والوطن بصلة ضمير، مختصر مفيد: القضية مسرحية! ومنافع السادة الكرام فوق حيوات الأنام. يبقوون ساهرين باستثناء الأطفال والنساء، يرتمون على أسرة متواضعة ليغطوا في نوم قلق، الرجال تأخذهم حمى النقاشات حتى مجيء النهار، عندما تصمت المدينة من كل تشاحن أو تحارب بين الطرفين، عندها يعودون أدراجهم للراحة والتهيؤ لليلة قادمة لا تختلف عن سابقتها بشيء من التحسن.

\*\*\*

في تلك الليلة؛ كانت الأمور تختلف عن الليالي السابقات، تواردت أنباء عن قرب الهجوم المزعوم لإسقاط البلدة، كانت السنة الشباب تروج المعلومة، وتلمعها بزيت الهلع، لتنقلها بتضخيم وترهيب من باب المزاح واللعب بأعصاب الناس، كانت غايتهم واضحة لمن أمتلك سلطة ترويض عقله وجوارحه، مقصدهم إدخال الناس في دوامة الذعر لترك البلدة خدمة لتحذيرات المقاتلين، مع إنهاض فرص إضعاف وإحباط معنويات قوات الحماية، بعدما وجدوا انفسهم اسماك صغيرة في بحيرة بلا ضفاف، وحولهم أسماك القرش والتماسيح، تترصدهم وتصطادهم

عبر قناصات مترصدة، وعبوات ناسفة تنفجر على مركباتهم أينما ساروا، وجدوا انفسهم بين اناس تلاطفهم علناً، وتلدغهم في الخفاء، تقدم لهم الماء، وحين يتوارون يبصقون خلفهم، تعذر عليهم إيجاد من يتعاطف معهم، ففي عيون الناس تراءت لهم النظرات رصاصات رهن الانطلاق نحوهم، وبدأ التذمر يُشكل ثقافلاً في حركاتهم، وتزايداً في أنفاسهم، وخفقان قلوبهم، قال أكثر من واحد علناً:

”كلكم أعداؤنا؟“

فلا شيء يساوي الروح البشرية أوان الحرب والكوارث القدرية.

\*\*\*

روحي تتشبث بأشياءى القديمة، جذوة، شرارة، توق، لا أعرف كيف أصف سر هذا الوهج الذي يشدني إلى داخلي.. أمل.. حلم.. رغبة، شيء من هذا ومن ذاك، ليس لي سوى نداء وهج ساطع يومض من أغواري، لم يحصل أبداً أنني خالفت مقترحات عقلي، كنت وسأبقى أطيعه دائماً وأبداً، فما يفرضه العقل أرجح من إفرزات المزاج، والمزاج سراب العقل، لا وقت أمتلك، قيودي تتشربك، لذا سأعلن ولائي، ومن غير تردد أو تأجيل، لما سيقره عقلي، ويجب أن أطيع؛ سأسكن المستحيل.. سأبقى عاشقاً وعشيقاً للمكان.

\*\*\*

الأحد ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٤ الساعة ٦:٢٢ صباحاً.

أشعر بسعادة غامرة، نسيمات منعشة بدأت تهب حاملة معها رائحة غريبة، زمرة عصافير ظهرت لأول مرة بعد أشهر يابسات في كل شيء، في بلدة بلا ماء، بلا كهرباء، بلا أناس.

عصافير حطت على شجرة المشمش، وبدأت تتخاصم أو تتحاور وتتناقر، تنتقل من غصن لغصن، ثلاثة أسراب، يبدو أن سرباً احتكم للعقل أو قرر أن لا ينحاز لأحد المعسكرين المتسقسقين المتناقرين، سرب عصافير يهجم على سرب عصافير يتجنب الإصابات المباشرة من مناقير، ربما لا تريد إحداث الضرر، قدر تعلق الأمر بفرض سطوة الحق التي تملك أو تميل لصالحه، ليس البشر فقط من يمتلك هذه الخاصية، فكل مدان ضعيف الإرادة، جميع الحيوانات، وكل الكائنات الأخرى، تمتلك هذه الميزة الفطرية سواء بسواء، وكما هو معلوم أن صاحب الحق؛ غالباً ما يغدو قوياً شجاعاً مهما كانت ضآلته الخلقية والفكرية أمام مدان مهما كان جبروته الخلقية وغناه.

سرب ثالث، مجموعة عدم الانحياز، يواصل تهدئة المعركة، أو يحاول سحب السربين المتخاصمين إلى فسحة نقاش لإحقاق الحق، شيء ما أكبر من توقعات عقلي يدور في عقول عصافير جاءت تتخاصم بشكلٍ مباغتٍ لتحط على شجرة المشمش أمام منزلي في يومٍ

لا يشبه كل الأيام.

أجلس لأصغي.. آه.. إنها الفطرة التي تربينا عليها، قالت أمي  
ذات يوم، يوم سألتها عن سبب تخاصم العصافير، وهي تمتلك الحرية  
كلها في التنقل والعيش:

”عندما تتخاصم العصافير داخل باحة البيت، أو على شجرة  
الدار، يعني أن هناك ضيوفاً قادمين إلينا“  
كانت فرحة وهي تتنقل بنشاط غير مألوف، وحدث أن جاءنا  
ضيوف ظهيرة ذلك اليوم.

\*\*\*

عقلي لم يستسغ السؤال، يبدو أنه يراقب ما يجري خارج حيز تواجدي،  
ربما الجنود سيأتون، وربما المثلثون سيأتون، وربما الفاتنة الدموية  
ستباغتني بهيئة جديدة، لتبتكر لي ورماً جديداً، وتسوقني إلى مجزة أخرى،  
كي تعافيني - كما تصر - من أشياء تسكنها وترميها على عاتقي، سأبقى  
في انتظار جواب السؤال، رغم تأزم الموقف وغرابة هذا النهار.

\*\*\*

نسمات برد تهب من جهة النهر، بعدما تأخر المطر هذا العام  
أيضاً، تزحف الغيوم وتتراكم لتمر من غير ذرف دموعها، ها هي تعود  
من جديد، غيوم عابرة، كلما أتت منحت البلدة رعشات سعادة، استدعت



رفع الأكف والتوسل بروضوخ وخشوع إلى رب السماوات كي يكون الموسم خيراً، وأن تهطل الأمطار بغزارة، ليس من أجل النزع والضرع فقط، بل هناك من كان يدعو الله أن يُنزل المطر، لاطفاء نيران الفتنة المتفاقمة، والحروب الوحشية المبتكرة، والتي بدأت تلتهم الأخضر واليابس. غيوم تأتي مهتاجة مندفعة رهيبة، لكنها مثلما تباغت سماء البلدة، تذهب لتتطاير شرر الحسرات، وتلهج الألسن أسباب عدم هطول المطر منذ سنوات ليست قليلة على البلدة والبلاد.. تقول:

” بشرنا فك ارتباطه بجبل الله المتين فمنع منا رحمته “

\*\*\*

رغبة غريبة تحفزني لتدوين شيء ما، قصيدة.. يوميات.. خاطرة، شيء أقوى من هذا، قلبي ينبض بتسارع، نبضات غير واردة، تُرجف قصص صدري، تشبه نبضات قلب ملتبس بوقف شريان وريدي مفاجئ، شهيق يتسارع كلهاث عذاء أوان العدو في مسابقة حاسمة، يتحشرج شهيق عبر سخونة صدري، وروحي بدأت تنبسط وتتلاشى، شيء أكبر وأكبر من كل توقع أو ظن، بدأت أشعر بأن عقلي مسكون ببقايا حزن يتجدد، ليس فقط من أجل نداء و رواء و كوالاة، بل بما يدور خفاء وعلناً في خرس البلدة والبلاد والعالم بأسره.

حسناً.. سأحتكم لما سيفرضه عقلي، وتلك طبيعة لا أعرف كيف

عُرسْتُ فَيَّ، وأوان تشئت أفكاري، وأوان التباس القضايا الحيوية في ذهني،  
تعودت أن أرخي بالي، وأن أمنح عقلي فرصة فرض ما يراه راجحاً يناسبني  
من قرار، ويجنبني الإحن، ولكي لا أخرج من شرنقة المحنة:  
” لا شيء أكبر من قلمك “. يقول عقلي.

فرض عليَّ وصيتي:

” هنا دفنتهن، وأن متُّ هنا سُدُفن معهن! “

فرض عليَّ أميَّتي الخالدة:

” أن تموت موتاً غريباً، وأن يكون موتك يوم أحد “

هدأت أعصابي، وانتهيت من ترويض وتشئت أفكارِي، وقررت أن  
أتفرغ لتدوين ما أعيشه، وأن أكتب ما حدث، وما سيحدث، وإن متُّ  
سأترك وصيتي لتحقيق رغبة عقلي.

\*\*\*

صباح جديد غير مألوف، وعصافير مشغولة بشؤونها الخاصة  
تهبط على شجرة المشمش، نسمات تهب لتكنس عفن وجيف الموجودات  
في المنازل، أشعر براحة غير معهودة، أشعر أنني أملك رغبة ضارية  
للكتابة، لذا اتخذت قرارِي، أنني سأكتب عن كل شيء، كل ما يفرضه  
عقلي، وكل ما رأيته، وما سأرى، وما سمعت وما سأسأس --- ...  
.. آآآآ آه ..

آآآآآه.. مرة أخرى بدأ القصف..

قصف غير مسبوق، ربما كان على حق يوم أسّر لي ذلك الشاب  
الملائم، لحظة حاول أن يقنعني بالخروج من البلدة، أكد بشيء من  
التردد؛ أنهم ربما سيرحلون، أو ستهاجمهم قوات الحماية، لوم يوضح  
أكثر مما قال لي، ومنه ما سمعت.

قصف بدأ يشتد على المنازل!

العاصفير بدأت تفر مذعورة!

الهواء بدأ يسخن ويتحرك خبط عشواء!

حسناً..

سأدخل المنزل لأوافيكم بما.. حح-.. حددد.....!



## في تلك الظهيرة الناجزة

وقفنا؛ ننتظر معلومة أو خبراً يريح البال، قبل أن تقف مركبات شبح، سحلت عيوننا وحجرت أفواهنا على آخر الكلمات التي أضعتها، إحدى عشرة مركبة شبح، واحدة مظلة الزجاج طويلة سوداء، حوطتها أربع مركبات دفع رباعي، زجاج نوافذها نازلة، لمحنا من ورائها ماسورات بنادق ترتجف نحونا. ست مركبات توزعت على مداخل الشوارع الأربعة، اثنتان منها سدّتا شارع السوق، واثنتان أخريان الشارع الماضي إلى خلف المبنى باتجاه منطقة الوحدة الأكثر حساسية وخطورة، واحدة سدّت الشارع المفضي إلى العاصمة، كما يطلق عليه، والسادسة استدارت ووقفت قاطعة شارع البلدة المقوّس المحاذي للوادي، الشارع الذي قدموا عبره من شمال البلدة. تشكّل سورٌ مُسلحٌ حول المركبات الأربع التي أحاطت بمركبة الشبح الطويلة قبل أن تلفظ أنفارها بشكل متسارع ومرتبك، كانت عيونهم قلقة، تتحرك أجفانهم كرقصات أجفان مونيكات تعمل بالبطاريات الجافة، وأيديهم ترتجف شاهرة فوق الرؤوس بنادق أوتوماتيكية تلمع تحت الوهج الأخير لشمس الغروب، في تلك اللحظة همست في أذني:

“أنا على يقين أنها لم تشارك في حفلات الرمي!”

نظّارات قاتمة تخفي عيونهم، وعيوننا مرتمية على مركز الدائرة المسلّحة، ترجل رجل طويل القامة، مشى متميلاً أو متحايلاً، كرجال الكابوبي في لحظات المواجهات الدمويّة الحاسمة، كان يرتدي لباساً حربياً مرقطاً، يتمنطق مسدساً لا يبدو عليه أنه أطلق رصاصة واحدة مذ خرج من فرن التصنيع، وجهاز اتصال مرفوع الأريل يمينه، تُسوره أجساد أربعة أنفار ضخام الجثّة، كانوا رغم عملاقة أبدانهم، وانتفاخ كروشهم، يمتلكون مرونة ثعبانيّة أوان التحرك، كانوا يشهرون غدّارات رافعيتها أعلى رؤوسهم وهم يشقون الحشد البشري الذاهل، والرجل الطويل غير أبيه بما يدور من حوله، كان يشق طريقه بتلكؤ واضح أو مقصود، مطأطأ رأسه كعريس خجلان، هكذا بدا لنا، يُساق إلى خدر عروسه، شعره يلمع بلون ماروني مزجج وشاربه أسود فاحم، كان الاختلاف يتوهج بوضوح ما بين شعر رأسه وشاربيه، ركّزت على التفاوت ما بين شاربيه وشعره، وجدت الاختلاف فاضحاً، همست لحظتها في أذني، وكنت في تلك اللحظة أراقب ردود أفعال الناس، وما تتطاير من أسنتهم من كلمات خارج مألوف العادة، لوادع ساخرة، وتهكمات تستصغر من ظاهرة التبديلات الجارية في المناصب الأمنيّة والقيادات العشوائية، ما زلت أتذكر كلامك كرنين يرن في أذني كلما أصطدم برجل قيادي لامع الرأس والشاربين:

”أفندينا خلّص الصبغ الماروني على فروة رأسه وأستكمل زينته

بأسود حدائه“

ضحكنا وسط هدير مهمات أفواه المحتشدين وزعيق أفواه المسلحين. الرجل الطويل وهو يشق طريقه إلى المبنى، كان مسبوقةً بشبّان أربعة مسلحين في غاية القلق، غداراتهم فوق رؤوسهم، وكانت رؤوسهم - تغتر - كأنها مربوطة ببطاريات تعمل آلياً، بدوا كأنهم تدربوا على - فر - الرأس، وأتقنوا مهمتهم الاحتراسيّة ببالغ الدقّة، بناء لمتطلبات حسّاسيّة واجبهام الأمنيّ، كانت عيونهم ترمش كمجسات قنص الحالات العارضة، تحاول إلى أبعد حد أن ترصد أيّة حركة تبدر من مهندس ينتهز فرصة إحداث خرقٍ أمنيّ يحسب لصالح جماعته.

رتّب الرجل الطويل حزامه النازل لثقل المسدس، ما أن وصل إلى آخر درجة من درجات السلم واستدار ليلقي نظرة نحو الحشود المتراخمة، لاحت نظرته شبه ماکرة، كان أنفه بمستوى عينيه، لاح كسمكة دلافين في لحظة مرح أو مغامرة نجاة من مقترس يلاحقها. الرجل الطويل؛ من وراء نظارة سوداء هابطة على أرنبه أنفه، نحت عينيه في الرهط الأوّل من المحتشدين، بسحنة مُقطّبة تلمع تحت وهج الشمس، كأنها صدري دجاج محمّر داخل فرن، تقطر بالزيت والعسل، ونظراته؛ من وراء زجاج نظّارته لاحت عدوانيّة النزعة ومنتدرة إلى أقصى درجات التذمر، لا أجد مبرراً لهزّة رأسه، هل كانت هزّة وعيد؟ أم هزّة رضا؟ شيء من هذا وشيء من ذلك سواء بسواء، استدار وتحرك سريعاً محاطاً بجراسه وهم يُدورون رؤوسهم وأسلحتهم مرفوعة كالمصارع الخشبية التي تُدورها الخيوط،

دخل الرجل الطويل إلى مبنى إدارة البلدة، ركض أمامه وخلفه أتباعه، اثنان في الأمام واثنان من ورائه. في تلك اللحظة، في غمرة تساؤلاتنا عن ماهية الأمور، وما ستؤول إليها في قوادم الأيام، دنت امرأة لتقف لصقك:

- ها زوراو أفندي، سلبوا راحتنا لنستقبل هذا ”الطنطل“ ١ - !  
لم تجبها.

- ”طنطل، سعلوة“، المهم يخلصنا منهم! لم تجبها.

- ماذا تقول كاكه زوربه ٢.. أشو ساكت؟ لم تجبها.

- تيتي.. تيتي.. مثلما رحتي جيتي ٣ ! لم تجبها.

- وداعتك - ماكو - غير خراب بيوت.

قذفت جملتها ومشت تشق تموجات بشرية كانت تصطبغ وهي تتسحب بهدير أصوات وضحكات، ولحظة أدت وجهك نحوي، ورأيت السؤال في عيني.. قلت:

”آن الأوان أن نفكر بطريقة جديدة وجدية بخصوص أيامنا القادمة.

\*\*\*

في صباح طال حضوره، وبعد ليلة غامضة سهر الجميع يتناقشون حول المستجدات الجديدة، كانت الحرب السرية تتواصل ما بين أفواه تروجّ الدعايات، وبين أسنة حكومية تحاول تطمين الناس بطرق غير مقنعة، أو تخلو من وسائل التأثير، لتحفيزهم على مواصلة الحياة الجديدة كما ينبغي أن تكون، لابد أنك وقفت تستطلع



الأمر من فوق سطح منزلك، كما وقفنا، ورأيت كما رأينا، عشرات الأنفار ببدايات مرقطة كجلود الضفادع، غرباء الشكل واللهجة، يعملون بنشاط دؤوب، مثل عاملات النحل لنصب أجهزة غريبة، كاميرات رقميّة وشبكات لا سلكية وصحون ليزريّة على سطح مبنى إدارة البلدة. لا أعرف، ولم أجد بين أوراقك معلومة أو تغريدة تبدي من خلالها وجهة نظرك حول ما جرى، وما سيجري؟ ليت شعري، ليتني كنت أدري؟ ربما قلت أشياء كثيرة ولم تجد فرصة مناسبة لتدوينها، وقد تكون تلك الأوراق المغمّسة بدمك أو المتهرئة، كانت تُخبئ سطوراً من آرائك حول كل مجريات ما حدث أو ما توقعت أنه سيحدث، كلام يتضارب، وآراء تجتمع وتتآفر، فتعذر علينا الوصول أو الحصول على معلومات شبه دقيقة، تُقربنا من قلب ما يجري في بلدتنا، بعدما سقط جانب حيوي منها بيد محاربين غير مجهولي الهوية. تسترهم ألسنة تعمل بنشاط من بيننا.

”هاجس الخيانة سلطة العقول الحاكمة في الشرق“

كلام قلته لي، كنّا لحظتها نتحاور من غير أن نتقاطع، أو نختلف بخصوص وجود صلات قرابة، أو صداقة، أو هي الرومانسية التي تدفع الشباب لركوب جائحة الموجات الثورية الوافدة من خارج البلاد، عندما تركب ظهر حصان الدين، تعرف، وكما شاع وترسخ في أذهان الجميع، أن فقدان الثقة ما بين الحاكم والمحكوم، من المبررات التي ستدفع الناس بحماسة هوجاء عدم أبداء التعاون مع الجهات الرسميّة أو الفوضى.

لا بد أنك صعدت إلى غرفتك العلوية، وأنت مستفزاً مشيت نحو النافذة، ونحتت عينيك في القمة التي تعلو منازل البلدة، كما فعلتها، وفعلها الكثيرون من أهالي البلدة، لاحت لعينيك كما لاحت لأعيننا، نقاط سود تتحرك، أكثر من واحد أكد أنهم رأوا تلك النقاط السود التي كانت تشبه إلى حد ما، نمالاً تدب لنقل جثث حشرات إلى مخابئها. خلص الليل ملغوماً طويلاً، وكثر فيه التأويل والتأويل المضاد، قبل أن يأتي النهار ويهل صباح مرتبك مشحون بالحيرة والأقاويل والترقب.

\*\*\*

في ليلة ذلك النهار، وكما توارد إلى خيالي، أن الحالة بدأت كما أتوقع وكما لهج أكثر من لسان وأنت تعرف لا سر يمكث ساعة واحد في قلوب أهل البلدة.

بعد منتصف الليل، ومن على الشاشة الفضية العملاقة تصاعدت أولى ترنيمات الغزو، بدأت بومضة قبل أن تنتثر على أديم الشاشة، ومضات ضوئية مصحوبة بضربات موسيقية قاصفة، المسلحون أصحاب الوجوه البيض المتعافية العسلية، والعيون المزججة المختبئة وراء نظارات زجاجية قاتمة، أدخلوا بهذيان وجنون أنفسهم في درجة إنذار قصوى وتيقظ تام، ولسان حالهم يغمغم: "متى تنتهي هذه اللعبة؟"

الرجل الطويل رغب أن يلتقط أنفاسه لبعض الوقت:  
"الحرب خدعة ومباغطة". غمغم والسيجارة بين شفثيه.

لابد أنه نسى هذه المعلومة، وكانت تميته السحرية في حروبه الكثيرة، كما أشيع عنه سواء أحقايق كانت منقولة أم من باب الملاحظات والتهويل المتهم:

”حتماً سيحتاجون إلى استطلاع هذا الأمر الجديد عليهم، ولا بد أنهم سيمنحون أنفسهم راحة لبعض الوقت، هذا ما أرجوه وأتمناه، كي يتمكنوا من نزع حماسهم، من باب الحصول على معلومات عنا، فلا بلدة في يومنا هذا تخلو من أذناهم“

\*\*\*

الرجل الطويل؛ لم يكن يتوقع أن الثرثرات التي تناقلتها ألسنة الناس حقيقة صادمة، قرر - ما أن استلم المهام كحاكم عسكري للبلدة - أن يلتجئ إلى ومضات عقله، وفكرة استخدام التكنولوجيا الحديثة، ظلت من توسلاته وملحّته الدائمة لمروؤسيه، لملاحقة أعداء يهولهم ويمنحهم تصورات فوق الأمر الواقع، فكرة التكنولوجيا الحديثة وجدها حلاً مثالياً لمعالجة بلدة مشلولة، ثلثها ساقط بيد تنظيم مسلح خرج فجأة كما تخرج الكمأة بعد برق ورعد ومطر مفاجئ، وثلثان تحكمها أهواء تتنافر وأمزجة عاطفية تميل مع الريح وأينما تتواجد دمامل غاضبة تهرع لرعايتها وتمهد لها ممرات وقودها ومتاعها لتنمو وتترعرع وتنتشر بسرعة السرطان في الجسد البشري. رغب الرجل الطويل أن لا تأتي الرياح بما لا يشتهي، أراد أن يستثمر وقتاً أطول كي يللمل تفاصيل حيوية عن طبيعة البلدة، طبيعة

ناسها، والتوصل بسرّية تامة ولو إلى بعض قلوب ضعفاء النفوس:  
”سأستدرجهم وأغريهم ليكونوا عيوناً متلصصة لصالحنا“

\*\*\*

أمام شاشة يسرح عليها دخان وسط قيامه ترنيمات تتداخل ما بين  
كنسية وجنائزية ترافقها قرع طبول وحرق أخشاب، وقف الرجل الطويل،  
وراح يتأمل الفراغ قبل أن يخطو نحو أضرار اللوحة الإلكترونية، داعب  
زر الملفات، تكشفت خارطة البلدة، منازل متناثرة تشكل معاً أميبيا في  
حالة هيجان، فالبلدة عشوائية البنيان، توسعت تحت غياب القانون،  
استغلت الناس الظروف المتاحة للاستغلال والاستحواذ على كل رقعة  
أرض مهملة لبناء مساكن غير قانونية. قلب الرجل الطويل الملفات  
المخزونة في الأقراص المدمجة، وجد آباراً كونكريتية منتظمة التوزيع  
متراصة بتوازيٍ دقيق، ضغط زر الهامش:

[ آبار تعود ليهود قطنوا البلدة من مقتبل القرن العشرين وحتى  
منتصفه، كانوا يخزنون فيها الوقود للقاطرات وأن الحرب الكونيّة  
الثانية ]

في أقصى الزاوية العليا من جهة اليمين، وجد أهرامات هشة  
متناثرة بعشوائية على هيئة تلال متفاوتة في الارتفاعات، في  
الهامش.. قرأ:

[ أكوام مزابل عائدة لجيش البلدة في منطقة ميدان الرمي،  
اتخذتها الكلاب السائبة موطناً رسمياً آمناً للتواجد والتكاثر، منطقة

حيوية لإزعاج الناس، ظهرت بشكل ملحوظ بعد الثورة الشعبية التي أقامتها السلطة السابقة لإبادتها، وأغلب الآراء اتفقت على أنها كلاب البلديات الهاربة جزاء تعرضها لمبادئ الثورة الحيوانية الكبرى نفسها، ولابد أن الكثير من كلاب البلدة ولّت فارة إلى بلدات الكلاب التي أتت لتحل محلها، كلاب بدأت تتقاطر بشكلٍ غريب، وبدأت تشكل أزمة هدوء في ليالي البلدة ]

في غمرة توهانه، تناهت لسمعه عواءات مصحوبة بصريخ مجهول المصدر، تحرك نحو النافذة ورأى البلدة هاجعة، لاحت في ذهنه أوشحة دخان ترسم خانقة ألق الفضاء، وبدأت تحجب النجوم من إنارة الكون، بعدما تم توقيف إنارة مصابيح الأعمدة المحاذية للشارع الرئيس، وأعمدة الأزقة من باب التقشف، ووقف عملية هدر الطاقة الوطنية، لكن الغاية العظمى كانت تنطقها ألسن الناس سراً وعلناً:

”أظلموا البلدة ليعتقلوا شبابنا كما يرغبون، وفيما بعد سيلقون

مصدر الاعتقال على عاتق مجهولين لتبرئة ساحتهم“

عاد الرجل الطويل وألقى بنفسه على سريره، عجز عن إيجاد فكرة معقولة عن قضية أربكت رجال أمن سبقوه وأدخلت البلدة في قيامة فوضى عارمة. وضع في باله أن يلتقط أنفاسه، وأن يمنح نفسه قيلولة تعافيه من صدمة الغموض، وغرابة وجوه الناس وتجمعاتهم المريبة. لكنه استفاق بعدما ضجّت في ذهنه جلبة وضوضاء، جلس وتوجه نحو النافذة، وجد حشوداً بشرية تتزاحم، رأى بوضوح رجال حمايته يخوضون صراعاً مريراً، وهم يجاهدون للوقوف سداً منيعاً

غير متزحزح أمام زحف أمواج أناس فقدوا رشدهم، تراجع ورفع حاكية مضخم الصوت، خرخش صوت تمزيق، كان صدى نفخاته في الحاكية، أراد أن يتأكد من سلامة حنجرته ونقاء صوت الحاكية، لحظتها همست في أذنك ونظرت إليّ وأنت تردني بضحكة:

”هناك من أسرّ لي بأنه كان مطرباً تعيساً، تعذر عليه أن يسجل أغنية واحدة ناجحة عبر مسيرته الفنيّة الفاشلة، ها هو يقود جوقة إنشاد آلتهم الموسيقية بنادق أوتوماتيكية.. هههههه.

”عزيزي.. لا سر يصمد في بلادنا، كل فرد يرتقي إلى سدّة المسؤولية، ستدلق أوراق حياته كما تتدلق المياه الجوفية وأن صعود منسوب الماء في البحار“

اكتفينا بالإصغاء.. طبطب الرجل الطويل على الحاكية وقرب فمه ونفخ:

- فو.. فو.. ألو.. ألو.. فو.. !

هدر صوت الجميع ولم تخلُ من قهقهات تنامت مختنقة من زوايا عدّة:

- واضح صوتك.. واضح .. أكمل يا باشا.

شجعه الصمت الذي حدث فأخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ:

- يا أهالي البلدة الكرام، سنختصر الكلام، عليكم الالتزام بالهدوء وإطاعة الأوامر، لدينا سبل وقايتكم من مخالب القتلة، كل ما يلزمنا وقت أرجو أن لا يطول لرصد أماكن القلق قبل البدء بتطهير البلدة من شرورهم، تعاونكم معنا سيختزل لنا الوقت والطريق، لن نستطيع

توفير الأمان لكم ما لم تجعلوا عيونكم كاميرات مراقبة لنا ليلاً ونهاراً.  
أرتفعت أصوات:

- خلّصونا، ارحمونا.
  - صرنا مجانين!
  - عواء بسيط عجّزتم خرسه، ماذا لو كبرت القضية؟
  - اسودّت حياتنا، اسودّت معيشتنا، حرّمونا من النوم!
  - دعونا نتصرف بعقلانيتنا، الحل رهن أيدينا!
- خفتت الأصوات، وجد فرصة كلام مناسبة، رفع كفه وراح ينقر بسبابته مقدمة الحاكية

، نفخ ليتأكد من سلامة الصوت ووضوحه:

- طب.. طب.. فو.. فو..!

\* صوتك واضح! صرخة جماعية هدرت.

استعان بورقته وبدأ يكمل كلامه:

- حسناً.. نريد منكم الالتزام بالأوامر الصادرة من قبلنا حصراً،  
ولا تتسوا أن حروب الداخل طويلة الأمد، ولسنا في الجبهة لنعرف  
حجم ونوعية عدونا، عدونا بيننا، يسكن معنا، يعرفنا ولا نعرفه، الحرب  
ضده تفرض علينا تضحيات قد تكون جسيمة، ومداهمات نوعية  
متقنة، نحن نريد أن نجنبكم فقدان أرواحكم وممتلكاتكم، تواجدكم في  
بيوتكم سيوفر لنا حرّية العمل والتحرك السليم للقضاء عليهم.

تحرر صوت:

- يا سيد.. سيئنا الوعود، كفانا أباطيل واللعب بعقولنا، العدو

ظهر مع تواجدكم بيننا!

خفتت الأصوات وانسحب المتجمعون ومضينا نستكمل بقية الساعات في المقهى، وجدنا أخرس البلدة يتأمل الفراغ بتقليعته المعتادة وسيجارته تنفث الدخان بشيء من العصبية، رحب بنا واندمجنا معه في مكاتبات على قصاصاته الورقية.

\*\*\*

الرجل الطويل؛ بعدما انسحب من النافذة، ضغط زر الجرس فتسارعت الأقدام، وجد نفسه أمام منضدة الرمل وحوله بعيون قلقة ورؤوس لا تعي شيئاً من مرموزات الحرب وشفراتها يتحلق رجاله الأقربين، وزّع عليهم خططه، لحظات التقدم والتراجع، وأسرّ لهم أماكن الأسلحة الوقائية والشفرة السرية أوان اللجوء إليها.. تكلم:

- المصادمات بيننا محتملة!

قال أحد حراسه:

- سيدي.. جاهزون للمنازلة مهما كانت فداحة الخسائر

وجسامة التضحيات.

- لا أريد أن أمشي بساقي على طرق سبق أن مشى عليها من

سبقتني وأخفق.

- سيدي، هناك من خرق حدود اللياقة وآداب المواطنة، وتقوه

بكلام مشين، ولدينا صورهم الشخصية، وجمعنا معلومات دقيقة عنهم.

- امنحوهم فرصاً كاملة كي يفرغوا سمومهم. أريدكم أن يسقطوا



في مستنقع العقاب وفق أدلة واضحة، عندها تحلو لنا عملية تزويبهم في أحد الحوضين، التيزاب أو الخضوع.

- سيدي، هناك أماكن حساسة، رجال الليل يتخذونها ممرات آمنة لهم.

- بعثت من يستطلع تحركاتهم، سينصبون أجهزة الرصد والترقب في أماكن سرية، في الواقع أنّ معلوماتنا فقيرة لما يجري في الليل هناك، نحتاج لبعض الوقت، أنا بأمس الحاجة لأنفار متعاونة يمدونني بالأسرار.

رئّ الهاتف، أوماً برأسه فانفض الجمع من حوله.. جاءه الصوت:

- سيدي، مواجه من أهالي البلدة.

\*\*\*

( وجدت مكاناً لائقاً وحسب مقتضيات الحكاية وتسلسلها السردية، أن أضع ورقتك الأولى لتماشي وتحاith ما أحكيه.. )

## الأحد ٣ آب ٢٠١٤

لكان يجب أن أتحرك، اتخذت قراري ومضيت إليه، استقبلني ببشاشة مصطنعة نوعاً ما، وتلك هي من الأعيب ساسة لا يمتلكون روح المواطنة وجديتها، على سحنته كانت العافية ترفل بترهل ولمعان، وفي سحنته رأيت صورتني تنعكس بوهج غريب دليلاً على العافية التي تنماز بها سحنات السادة الكرام، ودار الحديث بيننا بلا تكلف:

- يبدو أنك عانيت ما عانيت حتى وصلت إلي!  
- لم تعد مشقات الحياة متعبة، هناك أشياء أكثر مجلبة للتعب.  
- أجهدت نفسك، كان يجب أن ننتهي من هذه القضية قبل أن نتفرغ لشؤون الناس.

- للضرورة أحكام، في الرخاء تنتعش الصحة ويسود الخير ويعم السلام.  
- كيف هي أموركم؟ أموركم الشخصية أعني؟  
- حين يسود الأمن، يمكن قراءة وجوه الناس بوضوح، ويمكنك التماس أوضاعهم من كلامهم من وجوههم من نظراتهم أهم قانعون أم مخفقون.

- لو لم تكن من رهطنا، لما خسرت وقتي الثمين من أجل هذه

الملاطفات العابرة، حقاً إن حماسك تثلج صدري. إننا لم ولن نُهزم، صمودكم يزيدنا صلابة وتحدياً، رغم ندرهم ووعيدهم بتطهيركم من البلدة، أنتم في قلب المعركة معنا.

- كثيرون واقفون على قدم وساق ينتظرون فرصتهم، وكل شيء يخضع للقانون، لا تنظر إلى أعمارنا، أو ان المحن يسترد الجسد شبابه، لدينا خبرات في هكذا أمور، نحن أدري بشعاب البلدة وأسرارها.

- شعوركم يمنحنا فرصة مثالية للنجاح، لا نريد توريث الناس بمهمات تكفل بها عاتقنا.

- لدينا الرغبة الصادقة أن تقاسمكم المعركة، لن نسمح لأي وباء أن يستشري في جسد البلدة، جلبلاء؛ كما أرغب تسميتها، بلدة حيوية لن تحتمل الإهانة، أنها بلدة تاريخ، رغم رجحان كفة الضغائن بين بعض أناسها.

- لا أعرف إن كنت تدخن.. أم..؟

- لم أجربها من قبل!

- حسناً.. جلبلاء؛ كما ترغب تسميتها حصينة، ولدينا معلومات مؤكدة أنّ بضع دمامل فاسدة انحرفت عن أخلاقية المواطنة، يمكننا استئصالها من غير تحميلكم العناء، نريد أن نجنبكم الخسائر المادية والجسدية في معركتنا الحاسمة ضد المنفلتين.

- هناك من دفعني أن أقدم لكم خدماتهم ، رجال لديهم خبرات ومواقف مشهودة في معالجة هكذا أمور، يمتلكون خبرات في مواجهة التحديات المصيريّة، ستجدهم في الخط الساخن لو تطلب الأمر وإن سمحتم لهم بذلك.

- يمكننا أن نستدعيكم لو تطلب الأمر.

نهض.. فعرفت أنه أنهى حوار، وكان عليّ أن أتركه، تقدم مئي،

صافحني ورافقني إلى الباب..]

عدت إلى منزلك فور خروجك من المبنى، وددت أن تناقش القضية مع نفسك، لم توضح هذا الهاجس الذي دغدغك في ورقتك، فاكتفيت بكتابة لفاك مع، وما دار بينكما من حوار، ذات مرّة، ما زلت أتذكر اللحظة، كنّا جالسين في المقهى نصغي لمؤتمر صحفي للرئيس أوباما، وهو يتلون ويتهرّب من صلب الحقائق وفسرت لي: ” لا شيء أكثر غموضاً من سياسة حاضر أميركا، أميركا ليست قويّة كما يظن البعض، بل العالم يهزم نفسه أمامها لذلك تبدو منتصرة في الحياة“

ذكر بأن جنود الارهاب بحاجة إلى ثلاث سنوات، لتُقتلع من البلاد وسوف تسير الأمور بهذا الاتجاه، كما رسموه بدقة ومهارة سياسية محكمة التنفيذ.

\*\*\*

عاد الرجل الطويل - بعدما صرفك - إلى عمله، لم أجد كلمة تعبيرية عن وضعه النفسي، ولم توضح أكثر مما دونت، مثلاً هدوءه أو انفعالاته أثناء الكلام، وما كان يجول بخاطره، إن كان كلامه مرتبكاً أو متقطعاً، إن كان قلبه ينبض بتسارع أثناء الكلام، إن كانتا عيناه قفلتان أو رتبتان أثناء الكلام.

حسناً.. شرب قدح شاي وصعد إلى قمة البناية، هذا ما أظنه وربما سأفترضه، لم تشرب الشاي أنت كما شربه هو، وهذا ظنٌ أرجو أن تسامحني عليه، أنا أرسوم مشهداً لقضية سواء أ جاءت متطابقة أم منافية لما حصل، ولن تؤثر على حكايتك، وربما ستزيدها تشويقاً إن لم نقل رصانة بناء ونقطة تثوير، أغلب الظن أنك صعدت إلى غرفتك وألقيت نظرة عفوية من غير أن تعرف لم فتحت درفتي النافذة ونظرت إلى البلدة، تحديداً نحو قمة البناية المركزية مرة أخرى. تراجعت ووقفت أمام مكتبك، من غير رغبة أن تقرأ أو تكتب شيئاً، جاءتك **كولالة** تسبقها رغبتها، عانقتها ومضيماً ساعة أو يزيد غاطسين في رغبة قد لا تتكرر، وأستمحك عذراً عن بوح الصريح بهذا السر الذي أعرفه عنك.

من كلام شوارد وتلصصات أنفار التقطتها، قمت بتوليها وفق قناعتي وسير الحكاية، كي أصل إلى رسم المشاهد بواقعية أقرب للحقيقة، لتقربنا إلى حدٍ معقول من البناء الفني لها.

”الخيال وحده لا يكفي لبناء حكاية معتبرة“

كلام رددته يوم كنا في المقهى بمواجهة الوادي وكان المطر

يشتد والفيضان بدأ يجرف مجاريه الجبال ومزابيل الناس، كُنّا نتناقش حول الحكاية المعاصرة وكيفية صياغتها بشكل محكم وأسطوري ومعسول.

الرجل الطويل؛ قام بفحص الأجهزة رغم تواجد كلام بأنه هرب من رتابة العيش في بناية أشبه بالسجن، ولحظة صعد إلى قمة البناية، وجد رجاله ينحتون أعينهم في الفراغات، وأسلحتهم تلاحق كل نائمة شاردة، كانوا بذعر مفضوح واحتباس النفس يتلفتون عبر الجهات الأربع من أجل رصد أو صد أي عواء مباغت.

ألقي نظرة عبر التلسكوب إلى الجهات كلها. وجد في جهة الشمال أشباحاً تتحرك، لم تتضح الملامح بشكل مقبول، خالها ظنوناً أو هواجس القلق، وهي تتخذ أشكالاً هلامية وشيطانية لإرباكه، نقل نظره إلى ما وراء النهر، وجد نقاطاً سوداء تتحرك كأنها نمال دؤوبة تتأبر لنقل أكوام مؤن إلى مخابئها، تمشي بخط متعرج.. تتمم:

- ما زالوا يخرقون حظر التجوال!

سمع صوت أحدهم:

- سيدي.. مع الفجر اصطدنا بعض المارقين.

- ماذا كانوا يحملون؟

- وقود.

- اسكبه في أجوافهم!

- هل بدأت المعركة سيدي؟

لم يحر جواباً؛ هبط السلام عائداً لغرفته، أسقط نفسه على

السريير غارزاً عينيه في السقف المبقع بالرطوبة، ورداءة الصبغ،  
وانهمك بحثاً عن الحلول.

\*\*\*

( أجد هنا من المناسب أن أدس ورقة غير مؤرخة، ورقة تصف  
ببلاغة ودقّة ما جرى وكما وصفت.. )

*ليستسلم جسد البلدة لسلطة الظلام، تتكاثف غيوم الأرق وتزداد  
نبضات القلق، لم يعد الواحد يمتلك وقتاً للراحة، الكل متحفز، هناك في  
لحظة ما يعوي عواء مجهول المصدر، يبدأ من مكان ما، متسرباً إلى  
مسامات الليل، إنه يعوي من كل جهة، ويتنقل ساحباً معه آذان الناس،  
ليغمهم في بركة الرعب، وسرعان ما تنهض قيامة عواءات لتشكل معاً  
لحناً جنائزياً تفر منه الطيور الهاجعة، ويضج الفضاء المعتم، لتخرج  
العصافير من أوكارها مذعورة، الفئران والجرذان والقطة، تبدأ الكلاب  
بالنباح والحمير تنهق والديكة تصيح والدجاجات تقوقى، كما لو أنها  
وضعت بشكل جماعي بيضها، كل شيء يشتبك ليغدو العواء كونياً، قبل  
أن تتصاعد أفاعي الدخان، وتنمو الحرائق وتدب روائح الفساد، تسكر  
الناس أو تذوب في حوض القلق، ودائماً في الليل ينهض ليلتهم الورود  
والأحلام وأغنيات القلوب ويُنبِل خضرة الأشجار قبل أن يلتهم جنورها.. ]*

الرجل الطويل؛ نهض ودنا من الشاشة، شغل كاميرات الجهات كلها، تكشفته أمامه الشوارع وهي أسيرة تستنجد بالناس، ضغط الزر الأحمر، فانطلقت المدرعات من مخابئها، ووجد البلدة تحتدم في صراع مهول، ومضات ليزرية تتقاطع، ورصاص يغني في الفضاء، ونيران تنهض من أماكن متفرقة، ودخان بدأ يتلولب مغتصباً فضاء البلدة. جلس يسيّر المعركة، يوجّه الأسلحة نحو مصادر العواءات، لكن زمام الأمور سرعان ما انفلتت من إرادته وراح كل شيء يسير خلاف المزاج وينافي توقعاته الظنونية، التي رسمها بحرص متناهٍ ويتكرر لحوح حد الملل على منضدة الرمل.

تهالك وجلس:

”لم أكن أتوقع أنها فوق كل التوقعات، هل إن حروب اليوم لا

تشبه حروب الأمس؟“

استوطنه فرح مباغت غمره وأنعشه، جيشه لم يمل أو يتوقف بعد، جحافل غير نافرة تنتقل ميكانيكياً لتطارده مصادر العواءات المنسربة، ضحك طويلاً، كانت البنادق ترمي على ومضات تيرق وتضمحل، تدور حول قطعانه، بدوا مثل قطيع محاصر بمجموعة أسود جائعة. يتقافزون خوفاً أو رغبة لتحقيق إحد الأملين، الهروب أو توقف المعركة!

كل شيء يتجرد من كينونته، إنها ألعاب كومبيوترية، طراد ممتع ورهيب، معارك بلا خسائر، هوس مجنون، راحة، قهقهات، إنها متعة الحروب المضمونة والمحسومة نتائجها، عندما توجه



أسلحتك بكل أنواعها، الخفيفة والثقيلة، على شعبك أوان يأسه أو أوان فقدان مقومات الحياة والإرادة والأمل والرجولة.

\*\*\*

ذات صباح؛ لاح الأفق فريسة يائسة تختلج بين مخالب حيوان ضارٍ، أشعة الشمس تحاول تبديد الظلال والدخان المتسربل بالغبار، كان الناس يتعثرون في مشيهم فعرف أنهم سهروا الليل ترقباً وهلعاً، تراجع عن النافذة والتهم فطوره بارتباك قبل أن يتوجه نحو غرفة العمليات، داعب أزرار الجهاز، وجد الشاشة ناصعة، اختار جغرافية البلدة، رغب أن يعرف كل صغيرة وكبيرة، هناك ملفات حيوية تم دفنها في الذاكرة، وجد بصيص ضوء ينهض من أعماقه، أراد أن يجد منفذاً أو عتبة دخول إلى الحقيقة عبر تلك الملفات المخزونة. سلسلة جبال حائرة تحيط بالبلدة، وإد مقلق كما تؤكد الشروحات الهامشيّة، كونه ممر مجارييف السيول الهائجة من الجبال مواسم المطر، مضافاً إليها مياه مجاري المنازل، ونهر ما زال يتضاءل ويفقد كيانه الرهيب الذي كان هويته في كل العصور السابقة.

لم يجد راحة بال كي يهتدي إلى منفذ أو مسلك يقود إلى قلب الحقيقة، وجد قلبه في ضيق شديد ووجد فكره متشتتاً. قرر أن يقوم بجولة تفقدية، أمرٌ لا بد منه، كانت ضمن النظرية التي جاء يحملها:

“شارك خصومك أحلامهم، كي يسهل عليك التهامهم“

فلسفة وجدها نافعة في بلدات قام بحكمها وانتزع بالحديد والنار  
سرطان الفساد منها، رغم تعريض تلك البلدات لخسران مبین، في  
كل شيء، في الأرواح في المباني في الحقول والقضاء على آخر  
أحلام الناس.

شعر بأنه بدأ يشيخ، قرر أن تكون **جلبلاء**، كما تسميها، بعدما  
زرته بدأ يتلذذ بالكلمة الجديدة، **جلبلاء.. جل-.. بل-.. لاء.. لاء..**  
**بل-.. جل-..** قرر أنها ستكون آخر ورقة في مسيرته الحربية، سيقدم  
أوراق تقاعده قرار سريع اتخذه، ليخلو بنفسه بقيّة ما تبقى له من عمر:  
”لم تعد الحياة جديدة بأن تُعاش، أو يضحى المرء بكل حياته  
من أجلها، فالحياة لعبة قدريّة بيد لاعبين كبار، عليك أن تلعب فيها  
لوقت محدد، وأن تراقب نفسك، وقبل أن تتحدر أو تتجرف، عليك  
أن تترجل من صهوة حصان أحلامك، خروج يروق لك لا كما راق  
لمن سبقك أو يروق لمن هو أعلى منك“

\*\*\*

وجد مركبته جاهزة، ووجد رجاله على أهبة الاستعداد يشهرون  
أسلحتهم في كل اتجاه . انطلق الموكب، سار ببطء بين جدارين من  
البشر، ناس على جانبي الشارع الرئيس في احتشاد غير مسبوق،  
وقفة تمنأها يوم مجيئه، كانت عباات النساء مثل الرايات ترفرف  
فوق الهامات، وكانت الأيدي تتراقص والأصوات تتداخل، تعذر  
عليه أن يقتنص جملة واحدة مفهومة، لحظتها قلت لي:

”يا لنفاق العالم“

”هذا سبب بلاء شرقنا“. همست في أذنك وسط الضجيج.  
في تلك اللحظة أطلق أحد المندسين تمتمة في أذن صديقه:  
”ماذا لو عوينا كلنا معهم؟“

من حركة شفثيه وقلق نظراته، تمكن أكرس جبلاء، ومن  
بين طوفان المحتشدين أن يقتنص عمق الثورة التي سكنت جوف  
صديقه، شقّ الزحام المجنون وباغته بكف على فمه، سحبه إلى ظل  
جدار، أخرج من جيبه ورقة وقلماً وكتب:

”لا تفقد صوابك، راقب وانتظر ما سيحصل؟“

(في ورقة من أوراقك أشرت لما حصل أمامنا بكل صراحة  
ووضوح، ورقة أن أن أرتقها بجسد الحكاية، طالما الحالة بالحالة  
تذكر، والحكاية تحتاج إلى شطحات إن كانت ترمم الفراغات وتُفعل  
من ديناميكية عربية السرد..)

لأكرس جبلاء، ذات شطحة لسانية في مقهى الجماهير المطلة  
على وادي البلدة، استنفزه رجل أمن قزم، وفي ذات الليلة أخرجوه من  
المقهى، بعدما حطموا الباب، كونه بلا مأوى، واتخذ المقهى مناماً بعد  
كل سلام جمهوري لتلفاز المقهى، أخذوه إلى سرداب الأمن، هناك ومن  
غير رحمة، ولا مُسكن آلام، أو بنج خادر، تمكنوا من عقير لسانه،  
وحرروه أكرس مدى الحياة، كانت الغاية من ذلك عبرة واقعية، ولطمة

تحذيرية، كي لا يتفوه أي شاب من شباب البلدة، بما هو ممنوع، أو جرح لسمعة السلطة، أو يحط من قيمتها الثورية..]

أخرس جلبلاء؛ معه جلسنا في خلوات كثيرة، أكثر من مرة رأيتك معه، قبل أن أكون ثالثكما، كان يخرج من جيبه دفترًا صغيراً، تتكاتبان فيما بينكما، شاب موهوب عشق القراءة ورجب أن يكتب كتاباً واحداً في عمره، رغبته كان يرددها لكل من يجالسه، قبل أن يجردوه من لسانه ويخلّوا سبيله متسكعاً تخشى الناس عشرته، تجنباً من وشاة البلدة ورجال أمنها فهم يتواجدون في كل محفل وزاوية ومكان، كان لا يهاب الموت، وتماه في وضح النهار، لا يهاب رجال السلطة، أينما يتواجد، تسقط عليه عيون الناس، وكان يتباهى دائماً، أينما يجلس ويجالسه شخص ما ليكاتبه، يعيد له جملتك الأثيرة التي كتبتها في كشكوله، يشهره وهو ينفذ دخان سيجارته بمتعة:

”أول مثقف موسوعي شجاع يمشي على أرض جلبلاء“

شاب حالم، يمتلك حس التأويل المضاد، وسبل تفكيك أعماق كل فعل حكومي خانق لحرية الناس، أو مضايق لمعيشتهم، كان عاشقاً للماركسيّة التي اجتاحت شباب المرحلة كاجتياح وباء الأنفلونزا أو ان البرد.

أخرس البلدة؛ لم يحتمل كثرة تواجد رجال الأمن وأذناهم في مقهى الجماهير، حاول أحدهم أن يستفزه، وأفقده صبره، تصاعدت

حمى غيرته، فتنازل من غير تردد، عن حكمته لصالح شجاعته، نهض وأمام صمتنا، وحدقاتنا المنذهلة، أطلق صرخته بوجه رجل الأمن القرم:

”في النهار أسود وفي الليل قرود“

جملة واحدة كانت كافية لسحله سراً، وخرسه بقية حياته. ومن لحظتها أصبح يجلس وحيداً، ويمشي وحيداً، ويعيش وحيداً.

\*\*\*

وصل موكب الرجل الطويل إلى بداية وادي البلدة، برزت قيامة القصب والبردي وأفواج من الطيور الغريبة تحلق وتهبط، قوافل كلاب خدراء، حمير منبטحة وبقر مستلق، نقيق ضفادع تسطو على الليل، وغيوم رمادية تتحرك مترججة، عرف أنها حشرات ضارة، ذباب وبعوض لا يسكتان طوال الليل والنهار.. تتمم:

- يجب أن تزاح؟

ردّ مرافقه:

- ستزاح فوراً سيدي!

وصل الموكب إلى بداية ميدان الرمي ٤، وجد أهرامات من القاذورات متراكمة ومنبوثة. كانت هناك مئات الكلاب المتعاسة، لم تستطع أو ترغب أن تبادر بإعلان احتجاجها، رأت بأعين كلبية متسائلة، عشرات البنادق الحرة تستهدفها، فوجدت السكوت في حضرة الحكومة من ذهب.

- يجب أن تباد!

ردّ مرافقه:

- ستباد سيدي حالاً!

هبط، وأرسل منظاره صوب المرتفعات الترابية وقمم التلال الشاحبة، وجد نقاطاً متضائلة تتحرك.. قال:

- هل وصلت الإمدادات؟

- سيدي.. نصبنا الأسلحة الإستراتيجية في أماكن مُحصنة وسريّة، ووزعنا اللاقطات الحساسة في أماكن مموهة، ونصبنا الكاميرات الليزرية على نقاط حيويّة، وقمنا بتخزين المؤن في مخابئ سريّة مُحكمة، تحسباً لحصارٍ قد يُفرض علينا، أو إطالة أمد المعركة لوقتٍ غير محدد.

حرّك ناظوره تجاه ضباب قاتم يرتفع من خلف النهر، وجد أشباحاً تتحرك، وقبل أن يتكلم.. قال مرافقه:

- مسلّكم الوحيد، مكان عصي على الخرق، ممرات وعرة تخترق المتاهات، وتمضي قدماً نحو حوض الجحيم، عفواً سيدي؛ أقصد إلى حوض حميرين ٥.

- أريد قطع دابر كل منفذ وكل طريق لهم!

- سيدي.. سنتطلق كوكبة فدائية لتنفيذ أوامركم فوراً.

- في غاية السرعة!

- اعتبر القضية منتهية سيدي.

عاد ووجد الناس في حشود ضاجة.. قال مرافقه:

- البلدة تضج بالمنافقين، إنهم يفتعلون المباهج الوهمية كما يروق لهم.

- أريد إنهاء هذه الظواهر المنافقة.

- ستنتهي حالاً سيدي.

- فوراً!

- قبل أن تجلس على كرسيك سيدي.

ما أن دخل المبنى، تراشقت البنادق، وضج الناس مذعورين نحو منازلهم، وهربنا لحظتها نحو المقهى.

\*\*\*

في عمق نومه، سأفترض هذا، حلم أنه يرغب أن ينشط ذاكرته بهواء الصباح الهاب من جهة النهر، كان ندياً منعشاً، تفاجأ بوجود مجاميع من الناس واقفة أمامه. أصوات واضحة كأنها محبوكة بتناسق، كأنها تنطقها أفواه شخوص مسرحية:

صوت: ها.. باشا قبضتم على الريح! ومتى تنصبون المشنقة؟

صوت: سأبقى هنا حتى تدبحون العواء من الشريان إلى الشريان.

صوت: أعطيه قبلة من يقول ليلة البارحة نمت مرتاحاً.

صوت: سأزوجه ابنتي بلا مهر، لو خلصنا منهم هذا الصعلوك!

صوت: سأدبح ولدي لو تركنا لحالنا نعالج القضية بأنفسنا.

صوت: إنه جبان آخر من جبناء المرحلة الجبانة.

صوت: كلب ابن الكلب!

صوت: كلب.. مستحيل، الكلب وفي!

صوت: هم صحيح، الكلب أمين.

صوت: يا جماعة اتركوه! حمار قومي جاء يحارب الهواء!

صوت: يمكن هذا دون كيشوت ٦ جاء ليحارب طواحين جبلاء.

صوت: دون كيشوت منو؟

صوت: يقولون إنه أنزل القمر يوم الخسوف وركبه مثل حصان

طروادة ٧.

صوت: لا.. لا.. يا معود.. دون كيشوت واحد من جماعة

علي بابا ٨، هرب منهم وجاء إلى جبلاء حتى يحررنا من الكوابيس

وغازات بطوننا.. ههههه.

صوت: أقوووول.. دون كيشوت عنده دبابّة؟ لو طيارة؟ لو

همر عتيق.. ههههه؟

صوت: لا.. لا عنده حمار حيساوي ٩، وعنده سيف من قطن..

ههههه!

صوت: يا قوم.. لم لا نهجم عليه ونسحله من شاربه.. ها..

ماذا تقولون؟

صوت: لا.. لا.. خطيّة ١٠.

صوت: يا جماعة، يقولون جنابه كان - مطيرجياً ١١ -

ومنحوه تاجاً ونجمتين على

الكتف مقابل أغنية حربية.. ههههه!

صوت: أنا سمعت بأنه كان مطرباً فاشلاً وصار قائد مرحلة



جغرافيّة.. ههههه.. أقصد مرحلة غنائية.. ههههه.. أقصد مرحلة  
تأريخية مقابل أغاني غناها في حفلة ابن مسسسعوووور.. ههههه..  
أعني مسؤووول كبيبيير.

نهض من نومه، لم يحتمل مزيداً من الكلام الثقيل الذي بات  
يشغله، كلام يردده الناس، وينقل إليه عبر كوكبة منافقين قدموا  
خدماتهم بوقاحة، كوكبة تنتقل من أحضان لأحضان، وآخرون  
يتواجدون داخل منطقة كل حدث لتقديم خدمات مزدوجة، هذا ما  
ظهر فيما بعد، كانت أسرار المبنى تتناقل سراً من لسان للسان،  
وعبر الهواتف النقّالة، أو الرسائل MSN إلى المسلحين، أثرت سلباً  
في تحركات قوّات الحماية، وأثخنهم قتلاً وجراحاً.

دنا من النافذة، وجد جموعاً بشرية تتقاطر وتشكل تجمعات  
صغيرة.. صاح:

- أخلوا المكان!

تصاعدت نبرة صوت امرأة:

- نريد منكم تعليمات جناب الباشا؟

سحب أحد رجال الحماية مسدسه ووضع الفوهة في رأسها، في  
تلك اللحظة استدرت نحو الحديقة المركزية، وفعلتُ مثلما فعلت،  
كنا نتوقع بأنها ستكون أول امرأة ستنتقل إلى جوار ربها برصاصة  
مسدس حكومي، أو كما راج يومها، بنيران صديقة، سمعناه يصرخ:

- جنبونا إراقة الدماء!

تراجعا وتناثرنا في كل الاتجاهات، ظهرت الساحة من بعدنا،

كما أشيع، أرض مهملة تضج بمخلفات الطعام، صنادل مُقطعة،  
فردات أحذية متنوعة، عباءات رجالية ونسائية ممزقة، فوط عادة  
مدماة، سكاكين، عصي، وعُقب سجاثر غير منطفئة.  
تنفس الرجل الطويل الصعداء وتراجع ليغط في النوم.

\*\*\*

لم يرغب بتناول شاي العصر، نهض وصعد إلى أبراج المراقبة،  
لم يكن يرغب أن تستعجل الأمور ويحصل التصادم المتوقع، كان  
يرى وفق قناعته أن إطالة المعركة تتيح له فرصة الوصول إلى رحم  
الأشياء، ما لم يصل إلى أعماق الناس من حوله، لن يتمكن من  
تحقيق حلمه الأخير بتطهير البلدة من أنفار التنظيم، بعدما هيمنوا  
على الثلث الجنوبي حيث المقبرة الجديدة، تلك التي بُنيت بعد إزاحة  
المقبرة القديمة من رأس البلدة، لتحويل المكان إلى دار عرض  
الأفلام السينمائية، أمّنت لهم منطقة ما وراء النهر الحافلة بالأحراش  
وحقول المزارع المتوحشة بالأشواك الضارة من غير حرب:  
”عليك أن تعرف قوّة وأسرار ومواطن ضعف خصومك قبل  
أن تحترقهم“

وضع في باله تلك الفلسفة السياسيّة، مقولة منقولة من كتاب  
ما، فهو كما شاع بين القاصي والداني، كان مطرباً فاشلاً، بوأته  
الظروف التعيسة والتقلبات السياسية المربكة، ليكون قائداً يشار  
إليه ببنان العنف، ومروّجاً بارعاً للقرارات الفوضوية، ما زالت عافية

الفن التعيس ولمعان الطرب المبتذل لامعة على سحنته، صوته ما زال شبه نافع، وما زال كلما أمسك المايكرفون - طبطب - على الحاكية، وما زال يتبع - طبطباته بالنفخ - فو.. فو.. فو - كما كان يفعل في الأعراس الشعبية البائسة لأناس يعيشون تحت خط الفقر، وأماكن تجريب صوته على جمهور لا يعي من الفن سوى الموسيقى القاصفة كما تكون، وهز الأبدان بجنون. الكل يعلم أن البلاد محرومة من خصلة التكنولوجيا والمعلوماتية الحديثة، والناس يجهلون ما يجري اليوم من تطور في العالم، لكن الأخبار تتسرب عبر المتسللين وعبر الفضائيات، من أين يقدم السياسي تتبعه ألف باء بيئته، لا يسبح عقله خارج حوض حيزه الطبقي، ومن هذا المنطلق فُكر بإمكانية حرمان الناس من هذا الجهاز الهادم لكل سياسة أوتوقراطية:

”فكرة تحتاج إلى عمل دؤوب“ - تحرك لسانه - عليك أن تمنع استيرادها. عليك أن تغلق كل منافذ تصليحها وصيانتها. عليك أن تمنع قطع الغيار. عليك أن تحرم البلاد من دخول البطاريات الجافة أيضاً. - هز رأسه - فكرة مقبولة، ولكن يتعذر علينا تطبيقها، إنهم يعملون لصالح أصحاب السيادة، لديهم حصانات أمنية ودبلوماسية، إنهم يتنقلون بمركبات دفع رباعي، وبرجال حماية تتسلح بأسلحة فتاكة متطورة كما يفعل سيدي“

هبط السلام وعاد لغرفته، انتظر الليل وجاء من وراء سياج الهلع والترقب، كان ليلاً على غير عادته، كان الهدوء استثنائياً،

رجاله لم يعد أحدهم يقر له قرار، انتظر وقت العواء، ودائماً منتصف الليل بدقيقة ينهض من مكان ما، ينهض ليتجول عبر كل شبر وفي كل زقاق، أنه يمضي إلى كل بيت، يتلبس الناس ويسهر معهم، تنطلق البنادق وترسل المعدات الثقيلة حممها، بينما العواء ينهض من فم كوني، فم مُصان مُسيّر، ليس بوسع أسلحة الوجود كلها خرسه أو اكتشاف منبعه ومكمنه.

مضت الدقائق هلعة، نظراته تتدلق صوب الشاشة، صمت شامل يخرس الشوارع، شمّ رائحة منحتة عطسة، كانت رائحة نار ورائحة أجساد تحترق، استرجع أمره نهائياً لحظة أمر بحرق غابات القصب والبردي في الوادي الكبير:

”كان يجب حرقها نهائياً“

باغته صريخ جهاز الإنذار المبكر باتراً تساؤلاته:

- حصول خرق أمني واضح وصريح سيدي!

- ما الذي يحصل؟

صوت خجول اقتنصه عبر جهاز اللاسلكي:

- سيدي.. أنتهاك شامل!

- من نفذ هذا؟

- الوادي مكهرب برجالنا، لم نرصد حالة تسلل، لكنه حصل،

ربما.. سيدي.. ربما.. أقول.. ربما.. حصل ربما.. حص.. حص..

صصل.. رب.. رب.. رب.. رب.. ر..

- ما.. ما.. ماذا؟

- سيدي ربما.. أقول، ربما حفروا، ربما حفروا نفقاً، ربما نفقاً  
سرياً للوصول، ربما للوصول إليه، ربما سيدي!

انبتّر الاتصال وتعذر عليه معالجة الموقف، تعذر عليه تأمين  
الكلام، قام وذرع الغرفة بقلق تبين من وقع أقدامه وشتت فكره، كانت  
الحرائق تستفز ظلام الليل، تحدث قيامة عواءات، راحت النجوم  
تتوارى خلف غطاء أسود من حريق نهض من كبد البلدة، وصار  
دخانه عباءة ساترة لكل شيء مفضوح.

هرع نحو الجهاز، ما إن عاد الصوت:

- بدأت غابات الوادي تزال!

- أمرت بذلك ولكن أن تزال من قبلهم، تلك هي الهزيمة الكبرى  
التي لن أرضاها!

- استقل الأمر سيدي، نيران هائلة وصلت إلى المنازل  
والناس بدأت تفر مذعورة.

- وحدات معالجة الحريق في طريقها إليكم، عليكم بالصمود  
ومراقبة مداخل البلدة ومنافذها السرية، لا تصيبوا من أي طارئ  
مقتلاً، سدّدوا وصوبوا على أقدامه، أريد أحدهم حياً.  
عاد وجلس.

”خطرٌ رغبت بإزالته، لكنه أزيل من غير عناء، قد يكون  
المنادي على حق ربما بدؤوا ربما بحرب ربما الأنفاق السرية ربما..  
نفق.. نفق.. سمعت بهذا.. نفق نفق.. قد أجد في أية لحظة يدين  
تمتدان إليّ ربما من تحت كرسيي وتسحباني ربما إلى دهليز طويل

إلى نفق.. نفق.. قد يتواجد مهندسون بين حاشيتي، هل ينبغي أن أضع جواسيس على حاشيتي أيضاً؟ يا ترى من فعل هذا؟ نفق.. نفق.. تحت البلدة؟ لابد أن أتحرك ربما قبل أن أُسحب إلى نفق.. نفق.. وأجد نفسي ربما بين مخالبيهم.. نفق.. نفق“

لم يجد جواباً مقنعاً.

قام وصعد إلى سطح المبنى، وجد رجاله أصناماً متحجرة، راقب عبر الناظور الليلي، وجد كل شيء يحترق ويتوسع، أمر رجاله بالصولة، رأى سريعاً المذنبات وهي تنطلق في ليلٍ ذي مسغبة، وحدات صائلة تصطم بالفراغات وتعود لتغير مساراتها، تتبادل الجحافل الأمكنة، كل مكان أو منفذ مر به، تتمركز فيه جحافل صامدة، وحول الوادي الكبير بدأت الحوضيات تدلق سوائل مكافحة الحرائق، تمنى لو أن الغيوم المارقة في السماء تمطر، كي تتفاعل مع الرغوة وتوقف زحف النيران، كانت المركبات تزعق وزعيقها يخبو تحت زعزعة مدافع تصب جحيمها على فراغات الجبال المحيطة بالبلدة وعلى جنوبها.

جاء فجر الفجعية، أكوام جثث رجاله محترقة، تختلط بجثث كلاب وحمير وبقر وطيور.

- بداية غير موفقة. أعترف.

بغبح ببعاءه:

- التوفيق معك في الجولة التالية يا سيدي.

- ذلك منهجي في كيفية مكافحة العواء الغربية.

- رُبَّ صولة تلغي صولات سيدي.
- صولتي القادمة ستكون حاسمة.
- لم نكن نحسب الأمور بهذه الطريقة سيدي، كُنَّا مستيقظين أكثر مما يجب سيدي.
- عندما تكون متيقظاً أكثر مما يجب، يعني أنك ستهمل بعض الثغرات لتهدب منها الرياح، لا يجب للمطرب أن يسيح مع نفسه خارج متطلبات الحضور! عليه أن يراقبهم! أن يتتاغم مع ما يرغبون! عندها بوسعك أن تخبط - شيش بيش - وهم لكل نهيق يطربون ولكل إيقاع مهما تصاخب يرقصون، هذه هي متطلبات المرحلة الراهنة لأمزجة بشر اليوم.
- ستلح سيدي، إنك سيدي صاحب نجاحات مشهودة سيدي في التعامل مع المواقف الثورية المناهضة سيدي.
- افرضوا حظر التجوال بعد الأصيل.
- سيدي هذا عين الحكمة والصواب سيدي.
- لا أريد إخفاقات بعد الآن.
- سيدي سنحرق كل شيء من أجلك سيدي.
- انسحب ببغاءه وعاد هو ليكنس جسده من وثناء السهر برشقات من ماء شبه بارد.

\*\*\*

ذات ظهيرة لم يرغب أن ينعم بقليلة، داعبت ذهنه فكرة قراءة

ملفات البلدة، الملفات الشخصية لكل فرد، رغب أن يعرف كل شيء عن أرباب السوابق، رجال الدين الجدد، الذين تحايلاوا على القانون، المرأؤون، المقامرون، الطفيليون، شاربو المسكرات سراً، المحششون، المكبسلون، ناهبو الزوجات، رجال الأمن السري، صاحبات صالونات الحلاقة، الكسبة، أصحاب المال، الوافدون إلى البلدة في غياب القانون، أصحاب بيوتات التجاوز، الشعراء، المطربون، الفنانون، الرياضيون.

اكتشف أن نسبة الصعاليك هي ثلث الشباب، والبلدة تعج بالسماسرة والعاهرات واللواطيين وأصحاب الشواذ وسراق النعل في المساجد.

بدل القرص المدمج بأخر، وجد ملفات لكتب محظورة:

\* كتاب أسرار السعادة الأبدية - مخطوط ممنوع التداول - مؤلفه شاب تم شنقه أمام الناس بداعي كتابة أقوال وحكم تنافي عبقرية السلطنة.

\* كتاب الاهتداء إلى المستقبل الصحيح - محظور التداول - مؤلفه مجهول، ما زال البحث جارياً للوصول إليه واعتقاله بسبب التحريض على الثورة.

\* كتاب أسرار الكف وتحقيق الأمل - محظور التداول - كتاب مستورد ومترجم ترجمة ركيكة، المترجم مجهول الهوية والبحث ما زال جارياً بطريقة سرية عن من ساهم في إلقاء نسخ منه داخل السوق ليلاً.



\* كتاب أسرار النجوم وكيفية الاستعانة بها لصرع الخصوم -  
خطر التداول - مؤلفتها شابة أحرقت نفسها قبل أن تُعتقل بدقائق.

\* كتاب أسرار الإغواء - محذور التداول - يعالج كيفية  
انتساب الشباب لفرق الموت وتحميلهم الأفكار الثورية. المؤلف  
مجهول، أغلب الظن أنه هاجر البلدة، وهناك معلومات مؤكدة بأنه  
التحق بالفئات المتطرفة.

\* كتاب أسرار الحب - قيد الرقابة - مؤلفه معتقل منذ خمس  
سنوات، ما زال ينتظر قرار البت بخطورة أو عدم خطورة كتابه على  
جيل شباب الثورة.

\* كتاب أسرار جمع المال السريع. المعلومات قيد الكتمان..  
المؤلف مجهول.

\* كتاب أسرار المراهقة وكيفية إسقاطهم في بؤر الشهوات.  
تعذر تلخيص الكتاب لقوة الأسلوب وكثرة الألفاظ.. المؤلف مجهول.  
\* كتاب كيف تعدل بين النساء سليطات اللسان وأنت حائر.  
كتاب خادش للحياء مدسوس بخطب سياسية.. المؤلفة مجهولة.

أخرج القرص ووضع قرصاً آخر. وجد تصنيفات الحيوانات  
والطيور والأشجار، أصواتها وأسماء صغارها، أخرج القرص وغلق  
الجهاز وعاد لسريه ليفكر بطريقة مثالية حول ما يجري في البلدة  
ليلاً من تناقضات وسبل وضع الحلول الناجعة لها.

\*\*\*

مع بداية الليل، تفتق ذهنه عن فكرة ومضت في خياله، توصل إلى قناعة؛ إبادة الكلاب الضالّة، والحمير السائبة، والقطط المتكاسلة في المنزويات وفوق الأسطح، ستمنح البلدة رخاء غير مسبوق، فكرة جاءت بعد مراجعة ذهنية توقفت عربة خياله أمام مشهد من زمن طفولته، يوم سمع من لسان رجل درويش زارهم كضيف مستطرق.. قال لهم:

”الشیطان يدخل المدن من خلال الحيوانات“

قرر أن يفرض أمراً:

”ممنوع تربية الدواجن والحيوانات الأليفة والطيور والبلابل، وضرورة تحرير منازل البلدة من الحشرات أيضاً، كي تهرب الشياطين، وتغدو البلدة آمنة مطمئنة، وتنعم بنومٍ هنيءٍ بلا كوابيس“

قال مرافقه:

- سيدي يمكننا أن نجلب صفقة أدوية لمكافحة الحشرات.
- فكرة رابحة، سأتصل بشقيقتي البيطرية لتنفيذ هذه الفكرة.

\*\*\*

مع الخيط الأوّل لفجر يوم الأحد ١٠ آب، تسلل الرجل الطويل مع ببغائه إلى مستودع الكنز العام، أمر الخازن بفتح شفراته السريّة، حمل ما موجود في حوضيّات محصّنة. لملم حوله من رجاله الأقربين.. وخطب فيهم:

- لا يمكن أن نحقق الحلم ما لم نجعلهم يستولون على البلدة،

كي نجمعهم في بؤرة القنص، ثم نبدأ معركتنا الأخيرة لسحقهم - هذا ما وردني ليلاً من أوامر - حتى لو هدمنا المنازل على رؤوسهم، يجب أن نترك البلدة لهم، ما لم نُسقط البلدة - والكلام ما زال لصاحب الأمر - لن نتمكن من الحصول على فرصة النصر المؤزر وكتابة تاريخ جديد لصالحنا. تلك هي الفكرة السريّة التي جئت من أجلها.

- كل شيء رهن عبقرتك سيدي. بغبغ ببغاؤه.
  - لا أريد أي أثر يديننا.
  - أعددنا من سنورطه بتحمل التهمة وهو خادم ومضح لنا.
- تمتم ببغاؤه.
- ثقتي بكم ستبقى مطلقة.

\*\*\*

وقبل الغروب بدقائق رجفت البلدة، انفجرت حوضيّة محملة بقوالب ثلج على رجال الحماية، ومعها تتاثر الرصاص، عمّت الفوضى، وبدأت الناس تفر إلى العدم.

في تلك السانحة، كنت جالساً في أرجوحة المنزل، كانت كَوَلاة تجلس لصقك، كان رأسها على كتفك وكنتما تتحاوران حول آخر أنباء الفوضى ومصيركما - كما ورد في ورقة من أوراقك - في تلك اللحظة كانت البلدة تحتضر وتموت وكانت الحياة تنهراً، الناس بدأت تهرب، الطيور الحيوانات الحشرات كلها تفر وكَوَلاة رويداً

رويداً كانت تموت.

خارج البلدة وقف الموكب، رفع الرجل الطويل عسلي السحنة  
منظاره الليلي إلى عينيه ليلقي نظرة وداع نحو بلدة تموت.

ضحك قبل أن يتكلم:

- ههههه.. إنها أشبه باغنية من أغنيات شبابي.. هههههه.. لن  
تقوم لها قائمة بعد اليوم.

- سيدي البلدة يجب أن تزال من الوجود يا سيدي. قال ببغاؤه.

- كما تقول يجب أن تزال! لكنها بلدة تاريخ! مهما فعلنا بها

ستنهض من جديد شئنا أم أبينا، إنها جبلاء.. جبلاء.. وما أدراكم  
ما جبلاء؟

- وقد يطول هذا؟

-- نعم قد يطول ولكنها ستنهض أقوى مما كانت، ذلك هو  
سر قداسة جبلاء.

- يجب أن لا نسمح لعدونا أن يتسلل إليها إن نهضت من  
جديد!

- العدو ربما أكذوبة، ربما العوبة، وربما كوابيس تتركب عقولنا،

نحن من يحققها ويروج لها من أجل أحلامنا المشتركة، ليس هذا  
كلامي، إنها أوامر سيدي.

\*\*\*

أشباح هلامية ظهرت من بين الرماد والحرائق، وهي تطلق

العويل والنباح، مزداناً بالرصاص، وصيحات تُكَبِّرُ خلال الظلام.  
هرب الموكب..

وبدأنا كالمجانين نبحث عن منزويات تؤمن مسالك فرارنا، ففي  
تلك اللحظة - وهذا ما تؤكدُه أنت عبر أوراقك - بأنك احتكمت  
لعقلك وقررت، أن تسكن المستحيل، أن تربض في وحشة البلدة.  
وأن تكتب حكايتك!

## الهوامش :

- ١ : الطنطل والسعلوة : مخلوقات خرافية تتوارد في الحكايات الشعبية العراقية، يخرجان في الليل، في الأماكن غير المأهولة، لإرعاب المستطرفين والاستهزاء بهم.
- ٢ : كاكه : تعني أخ في اللغة الكردية، والكلمة تستخدم ككنية عامة لمناداة الشخص الكردي، زوربه : تصغير أو تدليل للاسم زوراب.
- ٣ : تيتي .. تيتي مثلما رحتي جيتي : كلام دارج للسخرية ضد من يذهب لعمل ما ويعود بخُفي حنين .
- ٤ : ميدان الرمي : مكان يقع شرق بلدة جلولاء، موقع عسكري لتدريب الجنود على الرمي بالذخيرة الحية .
- ٥ : حميرين : سلسلة جبلية معروفة تبدأ من المناطق الشمالية وتنحدر إلى وسط البلاد .
- ٦ : دون كيشوت : دون كيشوت، خالدة سيرفانتس .
- ٧ : حصان طروادة : الحصان الخشبي الذي استعمله الإغريق لاقتحام حصن طروادة .
- ٨ : علي بابا : الشخصية المشهورة ضمن حكاية السندباد البحري، وتطلق التسمية كناية عن اللصوص .
- ٩ : حيساوي : نوع من الحمير ضخم البدن .
- ١٠ : خطيئة : مفردة عامية من باب التعطف والاسترحام .
- ١١ : مطيرجي : صفة تطلق على مربي الطيور المنزلية .

## الأحد ١٧ آب ٢٠١٤

أجلس تحت شجرة المشمش، وكما يجلس الصياد منفرداً على  
ضفة نهر ينتظر نفائس السمك ليصطادها، أنتظر مروق نفائس الأفكار  
لأصطادها. تبدأ منازل البلدة ببلق نتانتها، اندمج بولع مع ذكريات  
لا تريد أن تتلاشى من ذاكرتي، تهبط أنيقة لامعة بمنتهى حرارتها،  
تسليني قاتلة وحشتي، مبددة أحزاني، وحاقتني بمغنويات جديدة، هذا  
ما جعلني أكثر صموداً وأطول صبراً وأقوى تحدياً، لا رغبة أملك ولا  
دافعاً يغريني أو يجبرني على ترك البلدة، ثمة رغبة ما، ضارية و متحدية  
تسكنني وتستولي على كل ما أملك من حول وحلول، لا شيء يعلو  
على فكرتي، هنا يجب أن تنتهي حكايتي، هنا يجب أن أنضم إليهن  
حيث يسكنن، هنا وكما فرض عليّ عقلي النهاية المحتملة لي..]

### ”الضربة الأخيرة“

كلام بسرعة البرق شاع، وكما يندفع قطع حيوانات بذعر  
وفقدان رشد أوان صولة أسود ونمور جائعة، وكما تبدأ الحكاية من  
فكرة وحرف وكلمة وجملة وسطر وورقة، وكما موج الماء يشكل  
أمواجاً متلاطمة عابثة قبل أن تغدو فيضاناً، كذلك بدأت الناس

بحالة هذيانية تندفع، بفرذانية قبل أن تتحد مثنى وثلاث ورباع وأرط، مثل رياح غبراء انتفضت فجأة، واندفعت مجنونة عابثة في كل اتجاه، حيثما وجدت الأقدام مسالك ميسرة، أو متموجة، انطلقت تشرد إليها، وعبرها.

ناس فسرت الضربة الأخيرة بأنهم، أي أميركا وأعاونها، سيستخدمون السلاح النووي لانتهاء الحرب بشكل حاسم وسريع، فقدت العقول رشدها، وفرت مجنونة باتجاه بلدات خارجة عن حيز التأثير المميت لتلك الضربة المزعومة التي انتشرت كالنار في الهشيم .

(أبو حازم) رجل انفعالي الطبع، يحاول أن يوقف سيول الناس المتلاطمة، قروي ترعرع على الحماسة والمغامرة، منذ صغره تدرّب على خوض غمار الصعاب، كان يخرج إلى ظلام الليل بحثاً عن الأرناب والغريبي والدعّالج ١. إنك ذات جلسة أوجزت وصفه أمام أحرص البلدة وكما كتب لي:

”رجل انفعالي تقوده غيرته الفطرية وحماسته القروية نحو كل عمل إنساني، (أبو حازم) نهر غضب لا ينضب أوان الخروقات المجتمعية والكوارث الطبيعية“

- دعهم يا (أبا حازم)؛ دعهم يفرغون صدمة الإشاعة، العقل أوان المحن الكارثية يتلاشى، والبدن يغدو مجرد قربة فارغة تتلاعب بها أمواج هائجة.

حاولت أن تخمد حماسته، أن ترخي أعصابه، (أبو حازم) يحتاج لدقائق قد تطول أو لا تطول كي يسترد أنفاسه ويستعيد زمام



سيطرته على لسانه. لفظ زفيره مصحوباً بأهة طويلة قبل أن ينطق:  
- ستفرغ البلاد من العباد، يجب أن نتدخل بأيّة طريقة لنضع  
حداً لهذه الحماقة.

تمر المركبات.. ناس تمشي، ناس جالسة على الرصيف، إنها  
تعبت أو يئست أو لا تملك إرادة مرنة لمواصلة المشي مع الجموع  
الهاذية نحو المجهول. تقدمت منهم، منحتم حفنة كلمات معنوية،  
حاولت أن تشيع في نفوسهم سلاح الصبر، منهم من رضي بكلامك  
ومنهم من سمعته - يدردم - مع نفسه، لاعناً الوطن، وأبو الوطن،  
ومن أوجد الأوطان، ومن ابتكر الوطنية، ومن لفق مفهوم المواطنة،  
ورثب لها حقوقاً وهمية:

”الأرض للجميع والحدود مخالب غريبة شيطانية لخنق البشرية  
ضمن سجون مؤدلجة“

كلام كتبه أخرس البلدة في كشكوله ذات أصيل، يوم التقيناه  
واقفاً على الوادي وهو يحرق بالماء الغريني الزاحف من الجبال،  
رداً على كلامي:

” الأمواج المتلاطمة تشبه أناس القرى الحدودية، وهم يفرون  
من الحرب“

لم يكن هناك رابط ما بين سؤالي وجوابه، كتب أيضاً:  
”لو تمرّس العالم! لما احتجنا الى حروب، لأننا سنعيش في  
سجن عالمي موحد بلا حدود“  
لم تفه بكلام وحين تركناه قلت لي:

”إنه مسكون بجنون الكتابة، يبدو أنه قد بدأ فعلاً بكتابة كتابه،

**سجن الشعوب**“

سبَّ الوطن ومن فيه، ليس بمستبعد أوان الأزمات الحياتية القاسية،  
ما زال (أبو حازم) يحتفظ برد فعلك، قالها لي كما قلتها لهم بحرارتها:

- ضمير المرء مَقُود أخلاقه!

” اخترقنا الشوارع - يقول (أبو حازم) - كانت الفوضى عارمة،

**خمبابا** ٢ يواصل حرث منابت الحياة، ركن المركبة في ظل جدار  
تحت شجرة توت، ورحنا ننظر بعيون تجمدت وأفواه تحجرت إلى  
سيلٍ بشري يهرب، بعدما تعذر علينا أن نفعل شيئاً، أتذكر في تلك  
اللحظة، أنني بصقت باتجاه طائرات شبح كانت تبدو نقاطاً سوداء  
في زرقة السماء، وصحت فاقداً إرادتي:

”لعنة الله على **خمبابا** كلب ابن الكلب“

ضحكت وقلت:

- **خمبابا** غول خرافي، ليس كما تقول كلب ابن الكلب..

هههههه.. يا (أبا الحوازم).

يقول (أبو حازم):

”كنا نقول الغرب ونقول أميركا ونقول الصهيونية والإمبريالية،

وسراً نتهامس فيما بيننا ب- **الاستكبار العالمي**، مصطلح شاع زمن  
حرب الثمانينات، ورد إلى أسماعنا عبر إذاعات إيران، كنا نقول  
قوى الشر، ونقول معسكر الكفر، ومصاصو دماء البشرية، أعداء  
الله، أذئاب الحملات الصليبيّة، سالبو أملاك وأرواح الهنود الحمر،

نقول ونقول أقاويل نقولها، وفي كل جملة نقول كلمة توصيفية تفرزها  
ألسنتنا في لحظة غضب، أو من باب التفكه، قبل أن يختصر لنا  
قاموس أميركا بمفردة **خمبابا**،

رضوا بما قلت، وجدوا الكلمة نافعة وجميلة، شرحت لهم من  
هو هذا ال- **خمبابا** كلب ابن الكلب على حد زعم (لازم أبو حازم)،  
بأفواه فاغرة أصغوا، بأذان متلعة سمعوك:

- ثلثا وثلثا الثلث الثالث من البشر لا يعرفون تاريخهم!  
هدأ أخيراً (أبو حازم) وتكلم بلكنة شبه متوسلة كما قالها بعد  
حسرة وزفير طويل:

- ماذا يحصل لهم لو بقوا في منازلهم؟  
- الناس أوان حروب المدن لا تمتلك مفاتيح الصبر، **خمبابا**  
يبغي هد مرتكزات البلاد، من حق الناس أن تخاف على أرواحها،  
بيت يتهاوى يقتل من فيه ويقتل الجار إلى الجار.  
يقول (أبو حازم):

”انبتير كلامنا فجأة لرجفة مباغته، علا غبار وارتفع عمود  
دخان وصعد زعيق وتصاعدت ولولات واختلطت أصوات نسائية  
ورجالية. توجهنا نحو مركبتنا وانطلقنا نحو جهة القيامة، فوضى  
وتلاحم بشري، شققنا طريقنا عبر شباب في لحظة ارتباك، منازل  
أصبحت في خبر كان، وجدنا كوكبة شباب يندفعون بحماسة لينبشوا  
الأنقاض، رأيناهم كيف يجربون بقايا أشلاء بشرية ممزقة وتحت  
جدار مائل اكتشفنا طفلاً مأخوذاً يواصل البكاء، انتشلوه، تقدم منهم

وضمَّه إلى صدره، لم يسرف الطفل وقتاً كي يسترد عافيته، نحت عينيه فينا، سريعاً تجرد من هلعه وتعذر عليه الكلام،  
ظلَّ الطفل وأنت تحتضنه يكافح من أجل أن يقول شيئاً:

- ممممم.. !

شجعته على ذلك، حاولت أن تعيد له صفاء الذهن كي ينطق:

- ممممم.. !

أشار بإصبعه نحو السميت، رفعت نظرك والناس من حولكم غارقون في جلال الدهشة، عيونهم تنطق دموعاً، أخذت الطفل وانطلقتم إلى دائرة الرعاية الاجتماعيَّة، استقبلتكم فتاة محتشمة الهيئة ببشاشة يندر أن تجدها عند موظفات اليوم.

”ابتدرتنا ببشاشة وحكمة وروح نبيلة“ . يقول (أبو حازم).

- هذا هو الطفل الثالث في الاسبوع ممن فقدوا كل شيء،

لكنني سأكون لهم الشيء الذي فقده.

- الله الله.. كلامك ذهب - يقول (أبو حازم) - أجابها بفرحة

عارمة أدمعت عيوننا.

- الوطن موجود فينا وحوالينا، في شهيقتنا وزفيرنا، في حلنا

وترحالنا، الوطن ظلُّ يتبعنا لا يتركنا، الضائعون نحن وليس الوطن،

الوطن لا يضيع، إنَّه فينا ونحن نبحت عنه في صحاري أمزجتنا

وبراري عقولنا وفي توصيات الآخرين.

ناولتها الطفل لكنه تشبث بك، مفتونا كان بك، لا يريدك أن تتركه،

كان يشير بيديه نحو السماء، يقول (أبو حازم) الدمع تراكم في موقيه:

”ربما كان يقول له أبي وأمي طارا في السماء“  
ما زال يفشل في النطق وما زال يقول بلسان يتشكل عليه:

- مممممم.. !

أخيراً.. رضخ الطفل ولاذ بصدر أنعم وأدفاً.. قلت:

- ضعيه نصب عينيك.

بعين دامعة هزّت الفتاة رأسها:

- كلّهم فلذات قلبي، وكلّهم قطع من كبدي، سأكون لهم الوطن

الذي لا يموت.

دنوت وربت على كتفها، وجدت نفسك تهدد وطناً يرتجف،  
وطنٌ أوان المحن يغدو رضيعاً في المهد.

يقول (أبو حازم):

”عدنا ووجدنا رهطنا في حيرة وقلق، سرعان ما شاع فيهم

الفرح، جلسنا نحتسي أكواب الشاي ونفكر بما هو قادم“

مركبات عسكرية قدمت من شرق البلدة، تتعثر، إنها من  
ملخفات العهود البالية - تُعْتَبُ - وتقذف أدخنة، أصوات محركاتها  
تصك آذان المارة، وكنت ترى كيف ترتفع أيدي المارة ليكبسوا آذانهم  
بأكفهم تجنباً لأصوات المركبات العسكرية البغيضة.. قلت:

- الحرب في تطور مهول.

وحدات عسكرية تترك شرق الحياة لتتجابه مع خمبابا في الجنوب،  
جنود زاعقون ورقصهم يتواصل داخل حوضيات شبه متهالكة وأغانٍ  
غامضة ترافقها فرقعات أصابع صاخبة وصراخات مجنونة.

سحب نفرٌ منهم أقسامَ بندقيته وألهب السماءَ برشقات رصاص.. قلت:  
- يحاولون أن يقضوا على ما فيهم من غضب وتذمر وهم  
يمضون لحرب مجهولة.

تكلم (أبو حازم) في تلك اللحظة كما قال لي:  
- ليتهم يأتون لنتواجه وجهاً لوجه، سنقاتلهم من وعلى أرضنا،  
فهم دخلاء يجهلون شعاب أرضينا ومسالك فرارها، وهذا ما سيمنحنا  
فرص التفوق الميداني عليهم.  
ضحكت.. وأفهمته:

- كثيرة هي الفرق الرياضية التي تخسر على أراضيها وبين  
جماهيرها.

وجد (أبو حازم) نفسه أمام معضلة حقيقية. لكنك واصلت كلامك  
لقتل حيرته:

- حرب اليوم حرب آلة، خمبابا لا يضحي بقطرة دم، بل يبذخ  
أطناناً من القنابل من أجل اقتناص هدف بائس، حروب اليوم مكر  
وتكنولوجيا وخديعة، لم تعد حروب اليوم والغد فارساً لفارسٍ، ولا سيفاً  
لسيفٍ، أو رمحاً لرمحٍ، لا قرعَ سيوف بالدروع، أزرار تضغط وأقمار  
اصطناعية توجه الصواريخ نحو أحشاء الأهداف، موجز كلامي؛  
خمبابا لا يثق بقدراته البدنية، مؤمن حد الوله بقدراته العقلية،  
مختصر مفيد؛ إن دين الغرب التكنولوجيا.

توقفت للحظة، بدوا كما لو أنهم يفكرون بكلامك:  
”هزنا رؤوسنا“.

يؤك (أبو حازم) ويضيف بعد توقف في محاولة استرداد أو خنق  
فاصلة حزن:

” كان ذلك دليل فهمنا لكلامه وبعضنا أراد منه بقية الكلام“  
- خمبابا يحاربنا عبر القارات - توقفت قبل أن تنتهي كلامك  
بزفير دافق - خمبابا ضبع ليل لا أسد نهار يا جماعة الخير.  
يقول (أبو حازم)؛ وتعقيباً على ما قال في تلك الجلسة، وتحت  
برد شتائي قارس، في مساحة أرض عشبية أمام مدرسة بنات قلت:  
”الحياة دولاب يدور، وما يحصل قد حصل من قبل، الزمن دولاب  
هواء يدور، ساحقاً الأجيال تلو الأجيال، يرفع أناساً ويكبس أناساً“  
توقف صخب الرهط، ومعهم ألقيت نظرة ود، فتاة وفتى يمسيان،  
الفتاة كانت متحررة من الذوق العام والوصف ل- (أبي حازم)،  
ببنطلون حليبي ورين كوت رماني، تلقي على كتفها جاكيتة سوداء،  
الفتى يتمايل ويتضحك، يلبس قاط كاوبوي، فمه يعلك اللبان،  
وفرغعات البالونات اللبانية تستنفز النفس وتتشعر البدن - هذا ما  
قاله (أبو حازم) أيضاً - قلت لحظتها:

” إنها الحضارة الجديدة التي يريدوننا أن نستوعبها“

يقول (أبو حازم) مكماً المشهد:

”كانت الفتاة تبتعد وهي تتراقص ضاحكة، تبتعد متمائلة أو  
متحايلة، قبل أن تعود بحركة شعبانية شبه منافقة، ترفع كفها وتُهبطها  
بشهوانية واضحة على كتف الفتى، كف تجتهد أن تكون مازحة،  
كانا يمسيان في حوض الشارع، قبل أن يتواريا عن أنظارنا“

مشهد دراماتيكي ألقاك في لحظة لا تتسى، أسقطك في يوم من أيامك، يوم لا يريد أن ينقرض أو يبلى، يوم كنت تمشي منفرداً داخل الحديقة في معهد النفط في منطقة الوزيرية، كما جاء في ورقة من أوراق حياتك، أو أوراق حكايتك.

[هبط كف على كفتي، خلت أن أحد زملائي يمازحني، ضحكة ناعمة شبه مأكرة أشعرتني برجفة، استدرت، وجدتها أمامي، معها وقتت وتحاورت، لكن الحدود الملتهبة، تلك الخطوط الحمر، ظلّت أمينة بيننا حتى تلك اللحظة، لا أعرف كيف تجردت من تحفظاتها ووصلت منتشبة منطقة عاطفتها، ومن بعدها جرى نهر الحب إلى محيط السعادة التي جمعتنا في قارب الحياة.. قبل أن أن أن.. نفترررررق..]

كلما عدتما بذاكرتيكما إلى أيام الدراسة - هذا الكلام سمعته منك - وعرجتما إلى ذلك الموقف، كولاية أعادت لك كلامها: "لو لم أفعل ما فعلت، لربما سقط قلبك في واحة أخرى" تصر وتقول كلامها، هي لا تريد أن تقتنع بما تقول، وجدتها الأمل ونصفك الضائع كما قُلت لها وطنك، أفهمتها بأنها وطنك الضائع، رضيت بما قُلت وأنت أيضاً كنت وطنها المفقود كما قالت لك.



[كولالة؛ فقدت والدها في قصف الحكومة لقريتها يوم الأنفال ٣، ماتت أمها تحت مشارط الأطباء بعدما فشلوا في إخراج رزاق قنابل مسمومة ألقيت عليهم في صباح مغبر معطر برائحة التفاح، ترعرت في بيت خالتها، اجتهدت في دراستها واختارت معهد النفط بناء على رغبة زوج خالتها، فهو مهندس يعمل في قسم الإنتاج في شركة نفط الشمال؛، كانت تراقبني وكنت منفرداً دائماً:

”العصن مَيال لسنفه“

كلام قلته في حضرتها يوم جلسنا في كافتريا المعهد، بعدما تطورت تلك الرتبة المباحة على كتفي وصرنا حلمين يتناصفان الأمل وفيما بعد سرير الحياة.. قبل أن أن نفترررررق..]

ها هي تعود تلك اللحظة من خلال مشهد فتى وفتاة في يوم حرب، لم يتركوا البلدة، ولم يباليان بالحرب والخوف من الحرب، ببراءة يواصلان الحب والمرح تحت سماء ملغومة وحياة مرتبكة غير مبالين ب- خمبابا وهو يواصل ذبح مستقبلهما.

[العشق أقوى من كل شيء، بوسع العشق أن يهزم كل حروب البشرية، يحلو العشق تحت سطوة الحرب، يكون أقوى وأمتع، كأنما العاشقان يتحديان الحرب والموت بعشقهما، ولولا العشق لما عاش الرجل ولما عاشت المرأة، العشق هو سر ديمومة الحياة، بالعشق تتحقق أحلامنا، وبه نكنس أوجاعنا، وبه نرمم خرائب أعمارنا.. ]

خالص الصمت سريعاً، ولا يحلو الجلوس من غير كلام.  
 تكلم عباس سائق الرهط:  
 - عقلي يشك بهما!  
 ضحك (أبو حازم) وحين أنهى ضحكته.. عقّب:  
 - يا (أبو خضير)؛ هههههه.. ستموت ولم تذق لحم النساء  
 يا (أبو خضير).. هههههه.  
 ضحكت وعقبت:  
 - لو أوقف خمبابا حربه علينا، لزوجته على نفقتي الخاصهههه.  
 عباس.. صقّ بكفيه وصاح:  
 - أشهدوا يا عالم على قولههههه.  
 قلت له:  
 - ذات يوم ستصطاد حوريةً من ماء البلدة لتتخذها شريكة  
 تعاسههههههه.  
 عقب أبو حازم ساخراً:  
 - وهذا ما فكرت به أنا أيضاً، ولم لا نقول حمارةً مائيةً..  
 ههههه.. أو بقرةً بحريهههههه.. أو تيساً ينابيعياً.. ههههه..  
 أو.. أو.. أو.. ههههه.. ويومها سنزف عرسك الغريب يا صياد  
 السلاييح.. ههههه.  
 منفعلاً ردّ عباس، وبشيء من الحكمة:  
 - عليك أن تربط جهاز عدّاد على قلبك ليحسب نبضاته، قبل  
 أن يتوقف قلبك، بل لدي فكرة تنفّعك يا (أبا الحوازم)، أرجو منك أن

لا تتنفس بسرعة، حفاظاً على دقات قلبك قبل أن تخلص بسرعة..  
هههههه، وتموت قبل أوانك.. هههههه.

- هههههه.. يا جماعة عباس بدأ يتعلم الكلام.. ههههههه.  
أجابه (أبو حازم).

قال عباس:

- اسخروا ما شئتم، ذات يوم قريب ستندهشون أمام أكبر سمكة  
أخرجها من نهر البلدة.

تواصل الكلام والحوار.. أكدت لهم:

- يا جماعة الخير، الحرب لا توقف جريان الماء في الجداول  
والأنهر، الحرب قد تسكت العصافير للحظات، لكنها ستعاود صخبها  
أكثر تحدياً ورغبة في السعادة، الحرب قد تعكر مزاج النسيم، وقد  
تفسده وتنتهه، لكن النسيم سيواصل إنعاش الحقيقة وإيقاف تكبيد  
أورام الملل البشري مزيداً من الخذلان والتدهور، قد تحرم الناس  
من نومهم وقد توقف أعمالهم وتعدمهم أرزاقهم، قد.. وقد - توقف  
للحظة؛ يقول (أبو حازم)؛ كانت عيوننا منغرزة على لسانه، قبل أن  
يهز رأسه ويكمل كلامه - لكن الحياة أكبر من الحرب، الحياة هي  
الحرب الحقيقية للبشرية، الحروب الجانبية غضب محض منفلت من  
قبل السيدة الموقرة حياة، تعود جناب الخاتون حياة لتتفرغ لماكياجها،  
لعبثها ومسراتها، والحرب ستمضي بعيداً بعيداً، لكنها ستبقى دائماً  
رهينة الحضور.

هدأت البلدة - يقول (أبو حازم) - وعادت الناس لحياتها الروتينية،

خرج الأطفال إلى لهوهم ولعبهم وعادت الطيور لدورانها الرتيب بعدما تنافرت وتوحشت وهي تتلاعب سكرى في الفضاء الداخن.  
أنت امرأة، نهضت لتستقبلها، امرأة فقدت زوجها في حرب السنوات الشرقية، وتفرغت لأبنائها وبناتها، تزوجوا وانتشروا في تلافيف البلدات، بقت وحيدة تعمل مستخدمة في مدرسة بنات، وضعت قدر لبن ورف خبز حار أمامكم، في عينيها ترسم خارطة دموع متفرقة لا تجف، فرحة لوقوفكم وسهركم من أجل خدمة الناس.. قالت:

- لا أملك غير هذا لأطعم وطني!

ضحك وضحكنا معه؛ يقول (أبو حازم)، ليست سخرية قدر تعلق الأمر بغرابة كلامها وعجائبيتها، امرأة تطعم الوطن تعبها، تقول في حضرتك وأمام دهشة رهطك، إنها لا تملك شيئاً تمنحه للوطن، حرّكت رأسك، ابتسمت وبسمتك أشعلت فيها روح المرح، أسعدتها، شعرت أنّها تحارب معكم، إنها قالت بطريقة واضحة ومفهومة؛ ما عندي شيء سوى هذا، لبن رائب وخبز حطب خرج تحت غضب خمبابا من تنور تحدى وأنتج لديمومة العمر أرغفة العافية.

قلت لها :

- إنك تحاربين من موقع أدنى يا أم.

يقول (أبو حازم):

” في عينيها تلامع وهج فرح، في دموعها رأيت رغبة صادقة، كانت رغبتها، كما حدثت في تلك اللحظة الخالدة، دبابة تعاليها

لتحارب من غير ملاجئ أو متاريس واقية“  
قالت:

- لو تسلّحوني راح تشوفوني شلون أرقص على جثتهم..  
ههههه.

ضحكت وضحك (أبو حازم) وضحك الجميع، وبعضهم راح يصفق - كما سرد لي وقائع تلك الوقفة وتلك الحوارات وأنتم تواصلون السهر من أجل الذود عن الناس والوطن ضد هجمة غريبة شرسة، بعدما اجتاحت الحكومة دولة الكويت - قال (أبو حازم)؛ بعدما تخلص من آخر هاء من هههاته في تلك اللحظة، وما تزال تحتفظ بذات الحرارة، رغم مرور أكثر من عقدين على ذلك:  
- لا تتعجلي الأمور يا أم! سيأتي دورك! كلنا سنشارك في حرب خمبابا.

- يا أم أنتن تحاربن من موقعن، لنا المقدمة ولكن...!  
توقفت.. ضحك الرهط، بادرك عباس بسرعة البرق، كأنه كان ينتظر فلتة لسانك، أو كلمة تفتح بها باباً للتهمك والسخرية:  
- ها أخينا بالله! أشو توقفت.. أكمل كلامك.  
أجاب أحد الجالسين:  
- يقصد، منّا المقدمة ومنهن هههههه.. المؤخرة.. هههههه..  
يقصد الخلفيات.

لم تفهم المرأة كلامكم، وقفت حائرة قبل أن تواصل كلامك:  
- حين يتجابه جيشنا معهم، يمكننا أن نشترك جميعا في الحرب.

قال (أبو حازم):

- لو حصل ذلك وهذا ما أرجوه، إذا ذهبنا إلى خط التماس،  
تأكدي أننا سنأخذك معنا، لا لتقاتلي! بل لتطعمينا لبناً رائباً، وخبزاً  
حاراً، من يديك الوطنيتين.. ههههه.

قالت المرأة:

- عليك أن تهيء لي مركبة حوضية خاصة لنقل بقراتي  
ودجاجاتي لتقاتل معكم بالحليب الدسم وبيض العرب.. ههههه..  
آه كدت أن أنسى، أريد تنوراً غازياً أيضاً.. هههههه. وأجلب لي  
أسطوانات غاز من باب الاحتياط.. هههههه.  
ضحكتهم وأنفرت العقد.

ذهبت المرأة، وجلست مع الرهط لتتناول فطور الصباح، تحت برد  
سيتواصل ورائحة حرائق ليلية تنمو وتلوّث فضاء الحلم والحقيقة والغد.

[ نكرياتي غابة شائكة، وعشقي للحكي ينبوع متدفق، ما زال

يرافقني ويغرقني طويلاً في هذيانات آخر العمر.. ]

يتوغل الليل..

تزداد نتانة الهواء.. تفرض شيئاً فشيئاً عليك جباية النوم.  
لا يحلو النوم في بلاد تحارب ما لم تسبقه نار الحكي.  
تدخل المنزل.. وعلى سريرك.. في غرفتك العلوية، كما كنت

تسرد، يحلو لك التمدد وقراءة كتاب أو كتابة مقتطفات حياتية سابقة  
ليوم الحكي..

ولكن.. ليس هناك ضوء، وليس لك إلا المكوث والتحديق في  
نجوم خجولة الضوء عبر النافذة، نافذة غرفتك، أو كما كنت تسميها  
غربتك العلوية.

حتماً..

إنك وجدت أشياء كثيرة ستحكيها نهائياً.

## الهوامش :

١ : الغريبي والدعاج : حيوانات ليلية تكثر في المناطق الوسطى والشمالية من العراق، الغريبي من الحيوانات الثديية، شرس الطباع، يعتاش على الفطائس وجثث القبور، أمّا الدعاج حيوانات فقيرة، تعتاش على الحشائش لحومها طرية من صنف الحلال.

٢ خمبابا : في ملحمة كلكامش، كائن أسطوري كان يحرس غابة الأرز، قتله كلكامش وصديقه أنكيو وحصلوا على عشة الخلود قبل أن يسرقها الثعبان في غفلة منهما.

٣ يوم الأنفال : قامت الحكومة العراقية بترحيل إجباري لأكثر من ٥٠٠٠٠ آلاف قرية كردية من المناطق الشمالية إلى صحاري الجنوب ضمن حملة جينوسايد سمّتها (أنفال)، بدأت في ٢٢ آذار الثلاثاء ١٩٨٨ وانتهت في ٦ أيلول الثلاثاء من العام نفسه على خمس مراحل. دفن خلال الحملة المشؤمة أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ - كما تؤكد المصادر الشفاهية - شخص كردي من مختلف الأعمار والأجناس في مقابر جماعية وهم أحياء.

٤ : شركة نفط الشمال: مؤسسة نفطية مركزها مدينة كركوك الغنية بالنفط.



## الأحد ٢٤ آب ٢٠١٤

[لم تعد كلاب البلدة تنبح، من المحتمل أنها فقدت ألسنتها في الحرب، لم تعد الوطاويط تجوب الفضاء لكنسها من بعوض ترعرع على دم الفقراء، وكل ما حولي صمت تام ورائحة مقبئة تكتم النفس وتقلب الأحشاء للمنازل، ومع بدء جلوسي تحت شجرة المشمش تبدأ بدلق ونشر جيف الأشياء ومعها ينطلق قطار الحكي، ضوء قمر خجول يهبط مخترقاً الغبار والدخان والصمت، يفلت من وراء غيمة يابسة تمر من فوق بلدة بلا ناس، ولياليّ تشبه إلى حدٍ ما كوميديا لا تنقرض ولا تنجلي أشجانها وحكاياتها..]

تجلس..

هواء قاسٍ يمر عبر أنفك، يستوطن جوفك، ناهضاً الأشياء المهملّة وموقظاً حكايات بلاد ابتليت بأناسها وساستها وجيرانها. أناس فقدوا دروب الأحلام.. وساسة سقطوا في أحوال الكلام.. وجيرة تمتلك مخالب إثارة الأوهام.. ليل وليل.. والليل خلق ليكون راحة ولباساً ومائدة مفتوحة للحكي.

وحكاياتك شמוש ساطعة لا تريد أن تُكسف مهما دارت حولها  
أقمار الظروف.

برد يشتد.. ورهطك منشغل بإخماد رجفات أبدانهم المتفاقمة.. قلت:  
- البلدان مثل البشر، تسمن وتنحف أوان الحروب.  
”صمتنا.. يقول (أبو حازم)، لم نجد ما نقوله بعدما وجدناه  
يعيش في زمنه، زمن تغريداته، ولا يحصل هذا إلا عندما يشعر  
بهواجسه الأدبية تفرض ملامح ماضيه وتكتسح لسانه فينطلق السيل  
عارماً ملغوزاً بتعابير كنا نحتاج إلى تفسيرها“  
- عليك أن تتعامل بحذر، إنك متعافٍ وكلُّ متعافٍ محسودٌ،  
وكلُّ محسودٍ مرصودٌ، وكلُّ مرصودٍ لقمّة دسمة لفكوك العتمة.  
” صمتنا.. كانت عيوننا حائرة، نريد أن نفهمه، برد وليل  
وخمبابا نهض ليتعشى بالناس والمنازل والأحلام، سحب شهيقاً وفي  
زفيره تطايرت شظايا نيران“  
- يحصونك كما يحصون أنفاسهم!

يقول (أبو حازم):

”كلّما كان يتكلم، تزداد لهفتنا وتتوسع فجوة الجواب، وعيون  
الرهط من حوله تلمع في القمر الخجول في ظلام بلدة ما تزال براعم  
أحلامها تطعم خمبابا، وخمبابا ما زلت عند كلامي ولن أتنازل عنه  
حتى هذه اللحظة، إنه حاشا من يقرأ ويسمع.....“  
- السراج في الظلام يجذب! عندما تكون خارج الوطن ستحافظ

على شخصيَّة وطنك، وتجتهد أن ترسم وطنك من خلال مشيك، من خلال كلامك وتصرفاتك، إنك شُعلة ستحرق من حولك غرمائك، شُعلة يتكالب عليها المكر والخديعة والغدر وجلسات مؤامرات فوق الواقع، كل ذلك لأنك شُعلة متوهجة في مكان حالك، وهم يجتهدون لتعبئة قناديلهم بالشعوب وقوداً، لينيروا أنفسهم المظلمة بأحلام ضحاياهم.

يقول (أبو حازم):

” فجأة صدحت أغوارنا بأهات وتنفيسات متقاوثة لفك أشرار  
الذهول، عرفنا معاً، أنه في تلك اللحظة، قد سكن بيت الألم، وفي الألم  
كانت دائماً وأبداً تتجلى مواهبه العاطفية، وتبرز حكمته في الكلام جليَّة،  
يغرد عالياً بكلام فلسفي رصين يجبر سامعيه على الدهول“

- دليلول يا وطني دليلول ١، أينما نوجه سفينة أحلامنا  
نصطدم بعدوٍ من بيننا أو من حولنا واقفاً مكشراً أنيابه بكامل الحول.  
يقول (أبو حازم):

”كان ألمه وطنه، وكان لا يتورع من تكرار ما جرى له، كان  
يقول دائماً أتمنى يوماً ما أن أجمع آلامي وآمالي في كتاب مفيد“  
- أن تتسلخ من قديمك وأن تتجرد من كينونتك، عليك أن تجابه  
غول الفناء.

كانوا صامتين وعيونهم تلعب على سحنتك رغم حلقة الليل  
وبرده، رغم هاجس خمبابا وهو يصول ويجول في فضاء البلاد،  
ليلتهم منابع الجمال وردم ينابيع الحياة.  
”كان كلامه كالعسل في مصاغينا، وكثنا عندما يغرد نذوب في

الصمت لنصطاد جواهره النفيسة“، والقول ل- (أبي حازم).  
- ما بين قديمك وجديدك هوةٌ ساحقة، إن لم تتحصن بأعشاب  
الحقيقة، إن لم تحسب خطواتك بدقةً متناهية، وحساب مصروفاتك  
اليومية فلساً فلساً، إن لم تتدارس غدك مدارس عقلانية، حتماً أو  
جزماً، إنك ستهوي إلى قاع الندم، وعندها لا وقت لديك لتتدارك  
خُسرانك، وليس لديك وقتٌ لتبدأ من جديد، بعدما تقعد أرضية  
المبتدأ ومبتغاك.

يقول (أبو حازم):

”بعدهما عرفت مريب كلامه، قلت: انسلخوا من جذورهم،  
ولحظة حدثوا تراثهم، لم تعد لديهم أبصار يبصرون غدهم، لم تعد  
لديهم أذان واعية يسمعون صراخات مستقبلهم، صاروا مثل قماشة  
الراية حيثما تهب ريح صافية أو مغبرة، رطبة أو جافة، حارة أو  
باردة، ترقص لها ومعها“

توقف (أبو حازم) عن كلامه وعبّاس كان قد ابتلع ريقه بعدما  
شرب قذح ماء، كان صوت قرقراته - كما يقول (أبو حازم) - أشبه  
بخير ماء يهبط من كهف جرّاء الصمت والصفاء السائدين، ورغم  
وحشية البرد طلب توضيحاً مبسطاً لما قلت.

- عندما يُريد الغرب طعاماً يرسمون دوائر حول بلدان متعافية،  
يدرسون كل التوقعات غير المتوقعة، الأمس واليوم والمستقبل،  
الخسائر والأرباح، وطعامهم الدائم الأمل الحُبلى بالغانم وتشاحنات  
الأعراق وتنافرات الطوائف والمذاهب.

يقول (أبو حازم):

”وَحِينَ عَقَّبْتُ عَلَى كَلَامِهِ وَقُلْتُ؛ يَقُولُونَ عَنَّا الشَّرْقُ شَرُّ  
الْبَشَرِيَّةِ. نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً عَمِيقَةً أَسْكَتَنِي، وَلَحَظْتُهَا نَسِيتُ مَا رَمَتُ  
أَنْ أَقُولَهُ وَمَا طَرَأَ بَدْهَنِي مِنْ تَعْقِيبِ عَلِيٍّ مَا قَالَ“

لم تبدِ امتعاضاً لما فعلوا بك، كيف أحاطوك برجال مسلحين  
واقتلعوك من جذور واجبك، لم يفه أحدهم بشيء، كانوا أشباحاً  
متلبسة بالهلع والت هستر كما أوضحت لهم، وكما كنت تشرح لنا  
يوم أخرجوك من عمالك، بسبب الحصار الذي فرضه العالم على  
المواطن لا على الوطن، كما فسرت القضية.

ليلٌ داج وقمرٌ يستحي، برد واغل وريح لم تصهل بعد، وعيون  
رهطك تسبح في حوض الاستغراب.

تكلم (أبو حازم) كما يقول:

”تعلمنا في صغرنا من آبائنا؛ أن من يجرب لبس لباس  
المشبهين سيبته بقية حياته في مسالك مسدودة أو متاهات ترميه  
لمتاهات“

ضحكت وضحك الرهط معك، شعر (أبو حازم) أن كلامه سلعة  
غير نافعة أو حكمة فكاهية تدغدغ العقل وتحرر زوابع الضحك.

عقب عباس كما يقول (أبو حازم):

”أبي كان حدّاداً.. ههههه .. ويوم لبست لباسه صرت صياد

سمك وسائق تكسي“

”يعني أنك تهت“. ردّ (أبو حازم) مقهقهاً.

أجاب أحد الرهط:

- فتحوا بطونهم لغربان الغرب كي تضربنا وكنا خير جار لهم.  
- ما تقوله قولٌ مقول، ألم يأخذوا ترانزيت على نفوطنا! هذه هي أخلاقيات جمهوريات المظاهر والزيف ووووو.. الملتبسة بخزعבלات الحداثة والعولمة وحرية التعبير والعيش وفق اقتراحات الفكر والمزاج ومشتهيات الأمزجة والقلوب.

(أبو حازم) أدلى دلوه، لا يترك حواراً ما لم يحرر لسانه من شحنات ذهنه، وكما وصفته أنفعالي سريع الغضب، رغم سعة قلبه، وتسامحه الكريم، وهذا ما أكده لي:

” مشكلتنا؛ أننا نتعامل بالسماحة والصدق، نفتح ذراعينا لكل من هب ودب، ونمنح ثقتنا بعماء تام لدول الجوار، وحين ندير ظهورنا، نتلقى أنصال خناجر صديقة في نحورنا“  
بردٌ يتفاعل ويتصاعد، وليلاً يمضي خجول الكواكب، والخوف مرهون بمروق أول الطائرات، والحوار جزء من عملية فيسيولوجية تروّض السكنات وتمدها باليقين كي لا ترتجف الأبدان من البرد ومن المجهول القادم من وراء البحار والمحيطات.

- المكر ليس من خصالنا، هذا ما شجعهم على سلوك سبل خرقنا، قد يحصل أننا نمارس المكر ضد أنفسنا، ولكن مع الغرب والعالم نكون صادقين إلى أبعد حد، نجابه الماكرين بأخلاقنا، طريق المكر مبتور ومفضوح، نحن لا نملك وجهين كما لهم من أوجه وأقنعة تتحرك وفق الدسائس والمصالح والشهوات.

يقول (أبو حازم):

” قلت؛ حمداً لله أنني لم أحب هذه البلاد المخادعة، لم أمر بها رغم أنني سافرت مرّات عديدة للسياحة والعلاج“  
- العمل حتمني أن أجد نفسي بينهم، لا أشعر بندم لما فعلوا معنا، أنا الآن أشعر أنني أعيش بسلام، أعيش بينكم، على أرض أنجبتني ومنحتني طفولة نادرة وخزين حكايات.  
في تلك الجلسة وحسب قناعاتي أنك ربما أردت أن تحتفظ بنصف الكلام لجلسة قادمة، لم يطرح أحدهم سؤالاً، (أبو حازم) أكد لي، بأنكم كنتم تصارعون وحشية البرد، كانوا وهم يصغون لك، يلاحقون بأنظار مرهقة لما يفعل خمبابا في سماء البلاد، ربما لمست فيهم ذلك، لذلك قررت أن تستبدل دقة الحوار، أردت أن تزعج رهطك في حوارٍ خارج أوضاعك الشخصية، حوار يمنحك الدفاء، ويميت تتأقل ساعات الليل وأنتم تسهرون لاصطياد أنفاس تخرج في الظلام لسرقة ممتلكات الناس، أو وسيلة وفرصة ذهبية لزرع بذور الفتنة لترويع الناس، وفي الفضاء كان خمبابا ما بين ساعة وساعة يصلون ويجول ليختار ما يختار من أهداف ومرتكزات الحياة.

فرغ بدئك من شحنة الحكي، ومن حولك بطيئاً يمشي الليل وتنتقض فرص الإصغاء شيئاً فشيئاً.

لا كلب ينبح في البلدة..

تُحرك الكرسي من تحتك كيفما ترغب والنعاس سلطة قاهرة..

يأتي؛ لكنه يفشل في إزعان عينيك وإقفال جفنيك، لا يمل ولا يُهزم،  
يباغتكَ كلما أغمضت عينيك، يريد أن يشلَّكَ رويداً رويداً ويلقيك  
في سلَّة النوم.

لم تعد تمتلك أحلاماً جديدة..

دائماً تجد خردواتك القديمة تنفع في يومك الذي سيتواصل.

وليلك الذي سيبقى ينزف حكايات.



## هوامش :

١ : دليلول : أهزوجة شعبية وهي مناغة تخديرية للأطفال من أجل تنويمهم.

## الأحد ٣١ آب ٢٠١٤

[صامت هو الليل؛ الكلاب ما زالت تجهل أن الحرب قد توقفت،  
وإنها ما زالت لا تثق ببشر اليوم أو أن التسليح العام، عندما يغدو كل  
مواطن طلقة لتغذية بندقيّة الخراب، لم تعد تعرف كلاب البلدة، أن  
الرصاص قد نام في شواجير بنادق جلبت لحرب الداخل لا لدرء الحدود  
من زحف سيول الأحزاب، وما عاد الرصاص يستهدفها عشوائياً، أو  
مزجياً كما فعلها نقر من المحاربين يوم تقدموا تحت تهريج وتطويل  
وحشد فضائيات منافقة لإخراج عدو مزعوم من البلدة..]

رموا على الهواء، نفرّ ظلّ يصطاد الكلاب المدعورة، ويقتنص  
القطط الراجفة وبعض ما تبقى من طيور منازل أبت أن تترك  
أوكارها، كانت غايتها واضحة، تحطيم غضب الناس عبر كاميرات  
مخادعة، تريد أن تبعث رسائل طمأنة عبر مشاهد ناطقة، تريدهم؛  
تلك الكاميرات أن يفهموا، أي الناس، أن الدماء المسالة، الدماء التي  
راحت كاميرات محمولة على أكتاف شباب وشابات تدور حولها،  
كأنهم دمي من لمعان سحناتهم، يتحركون بمكوكية لإخراجها من  
عدّة زوايا بداعي زيادة أعداد جداول الدماء المهذورة، غايتها منح

المشاهدين بالونات ضخمة من الشعور بالزهو لسحق بثور الآلام، كانت ترافقها صيحات حماسية مأتية تطلقها أفواه تدرت على صناعة الرعشة والذهول لدى المشاهدين، تلك الدماء؛ دماء قتلى وجرحى العدو الفار كما يفهم البعض من خلال لقطات ذات أثر إيجابي على عقول وقلوب فقدت صلتها بالحياة، لكن يا ترى هل تمت المصادقة على تلك المشاهد؟ لا أحد طبعاً، أي حوار حولها كان ينتهي برشق ضحكات أو هزات رؤوس وتحريك الكفين.

لم تعد الكلاب تثق ببشر اليوم، رأيت كيف انهال عليها رصاص طائش ومقصود، وطاويط البلدة ما زالت تجهل أن فضاء البلدة عاد لسيرته الروتينية، بعوض وحشرات ليل ما زالت تتربص برغبة عارمة صولة استرداد أجوائها، بعد زوال رائحة ال- (تي أن تي)، لتغرد من جديد كيفما تشاء، وكما كانت على أديم أجساد بشر دمهم خالٍ من فيتامينات وبروتينات غنية بالغش والمكر والسرقة والرشا، كل هذا ألفناه وعشناه أو سمعناه، يُخَيَّلُ إليّ؛ أنك الآن جالس وأنني أراك عبر الكلمات، كلماتي، وعبر الكلمات، كلماتك، تحت شجرة المشمش. أه.. ما زلت أتذكر يوم كنّا نصطاد السمك، اكتشفنا تلك النبتة اليانعة عند حافة "صخرة شاكر" اقتلعتها ونقلتها إلى أمام المنزل، كنت متوقفاً أنها ستذبل وتموت لكنك قلت لي لحظتها:

- ذات يوم سنجلس تحت ظلّالها لنحكي حكايات، وربما سأطعمك من ثمرها أيضاً.

- ليس هذا وقت نقل وزراعة الأقاليم والأشجار.

- سأنقلها؟ أما تدري أنني سجين عقلي!  
عند الغروب؛ ونحن نللم أشياءنا، اقتلعتها من جذورها مع  
حفنة طين ووضعتها في كيس نايلون، ما زلت أتذكر أنك رميت  
بكل الأسماك الصغيرة داخل صفيحة الماء إلى النهر، زرعتها وها  
هي شجرة وارفة الأغصان والظلال.

\*\*\*

( مقطع غير مؤرخ أو مرقوم مؤهل حسب قناعاتي أن يتواجد  
هنا بين سطوري لمنح الحكاية ديمومة وتفعيل الفضول.. )

[ ليلٌ داغ، وأنوار نجوم كالحة تشوي ظهر الظلام بخيوط خجولة،  
ورائحة المنازل تنهض لتعقب الصمت وتخثره، وتشيع نتانة بغيضة،  
حيوانات نفقت جَراء سقوط القذائف، أطعمة تعفنت في برادات المنازل،  
ورائحة مقبئة تنهض، إنها تبدأ مع الليل، ولا أعرف لم في الليل  
تنتشر الروائح؟ ربما سأجد الجواب في يومٍ ما، فالليل أحرص، ولم تعد  
هناك مناوشات حربية، ليل غريب أشعر به، تندلق فيه روائح تزداد  
ضراوة ليلية إثر ليلية، وليل البلدة جوف حوت منحوت في متحف الظلم  
والظلام، فيه تحاك الدسائس، وتمرر الغايات الخبيثة، وفيه تداس  
الناس بمهمازي الأمل واليأس.. ]

تجلس..

حوار يتشكل وينهض، كلماته تدغدغ أوراك، كلماته دفاء  
لشطاء غربتك، تُنهض موسيقى الآمك، وآلامك أغنيات متواصلة،  
أغنيات سوف لن تهدأ ألحانها وتندثر كلماتها.

عيناك تسافران..

زورقان لا يستقران..

في ميناء ماضيك يرسوان..

أزمان أزمت، وأمسك كله قريب، وسيبقى قريباً مهما شرد الزمن وتوسع.  
ها أنت تتزف تعب قدميك، أبر توخر عروك، تتميلات تنهض  
في أوردة وشرابين بدنك، وقلبك ينبض بتسارع، وانفاسك تضيق،  
ولسانك يجف، لم يعد في العمر بقايا ماحكات رومانسية، بعدما  
خابت الأحلام، وخلدت الروح للتأمل، فاقدة حصان المغامرة في  
متهات الحياة، وأوان مراجعة ملفات الأزمنة المغبرة.

*لا بعيد في قاموس أحزاني، الأزمت السياسية برامج مفتعلة*

*لتحقيق الغايات العظمى، ولغسل عقول الناس من أحلامهم الشخصية..*

*مشيت اليوم كثيراً، خضت متهات أمسي، وعبرت حواجز عارضة*

*معظمها عفوية أنتجتها قيامة الحرب، حرب الفراغ، مررت ببيوت ما تزال*

*تحترق، نار ودخان لا يرغبان أن يخدان، أزقة تشققت ممراتها، مثل*

*شرايين وعروق وشعيرات دموية متناثرة في جسد المرء، لا أقدم تدوسها*

كي - تكشف - أو تخمد أوجاعها، أشجار تنتظر المطر، بعدما يُست  
يبست، وصحون فضائيات تنتظر عودة الناس، لتبدأ بنقل آخر أكاذيب  
العالم وأسارره المفتعلة، أسلاك أعمدة الكهرباء منهذلة، أسلاك الوطني  
وأسلاك مولدات الطاقة، أزيح ما يمنع المرور، أزيح مزابيل رُميت عمداً  
لقتل جمال الحياة، صفائح وبراميل ماء اقتلعت من الأسطح، صارت  
عوارض مملوءة بالتراب، كدروع بدائية لحجب الشظايا والرصاص..]

تمشي..

ذهنك مشدود لسحر يجذبك، هذا ما كنّا نفعله معاً، وكما كنت  
تمارسه وحدك عندما لا أكون معك:

[من هنا مشيت، من هنا كنت أمشي، ومن هناك لم أرغب، منذ  
عصر ذلك اليوم وحتى اليوم، أن أمشي..]

برق يوم لا يريد أن ينخلع من ذاكرتك. كنت تمشي عبر ممر  
ضيّق بين صفي منازل، مشغولاً بوجع الكلمات، فتاة في مقبل  
مراهقتها رغبت أن تغزل حلمها حولك، قالت جملة لم تلففها، قالتها  
ببراءة ورغبة صادقة، كان قلبك مأسوراً بهموم الحكي كما أسررت  
لي تفاصيل تلك الواقعة.

- لما لم تشكل معها أزمة قلبية؟  
- تعرفني.. أنا مسكون بهذا العذاب، عذاب نشترك فيه، دعنا نتعاشق مع محبوبتنا، وفيما بعد بوسعنا أن نتفرغ لما هو أدنى من سلطة الحكمي.

- لكنها أزمة لا بد منها يا عزيزي.  
- نظنها أزمة، بل هي أفلونزا عابرة، إنها عطسة قلب تبحث عن فرصة انطلاق.

- لو كنت مكانك لما أهدرت الفرصة؟  
- ستعيشها، وربما ستهدرها إن مررت بها لو احتكمت لعقلك، إنك مبتلى معي بأفلونزا الحكمي يا صاح.

في اليوم اللاحق؛ وأنت تمشي، رمت عليك وردة، عطرها - ما يزال إلى وقت قريب، قبل أن تتقطع بنا السبل، وتشردنا الحرب - يضيع فضاء ذائقتك، من على سطح المنزل رمتها إليك أو عليك، لم تجد في نفسك شجاعة كاملة، كما أسررت لي، كي تلتقطها وتقرح لنفسك، إلقاء نظرة خاطفة لمعرفة رامية الوردة.

في يوم آخر؛ وأنت تمشي، سقط عليك سروال طفل، سروال نظيف معطر، سقط على رأسك، رميت السروال ومشيت.

فسرت المشهد لي :

- أتدري أن الفتاة وردة بريئة تنتظر صاحب أنف حساس يقطفها من بستان الوحشة ليزين بها عروة مستقبلة أو يكنس بها عواصف مراهقته.

مرّت أيام.. قبل أن تلمحها واقفة كما قلت، تبادل فتى عواطفها بحفنة إشارات ورشق ابتسامات، ضحكت وما زلت أحتفظ بحرارة كلامك:  
- الحالمة في شرقنا لا تملك صبراً، فعمر الحب في زمننا قصير جداً.

ومن يومها لم تعد تتخذ ذلك الزقاق ممراً للتسكع ومطاردة توهجات جمرات الحكي.

[اليوم سلكت طريق المحطة إلى سوق البلدة، كان فيما مضى محطة للسكك، يوم كانت القاطرات البخارية روح البلدة وسحرها، كانت تعج بحركة المسافرين طيلة النهار، أُزيلت المحطة، وحُولت القاطرات وعرباتها إلى خردوات بعد تقطيعها إلى أجزاء يسهل حملها ونقلها وبيعها في زمن الحصار..

- لتحديث حياتنا تماشياً مع تطور العالم.

كلام شاع، روجته ألسنة السلطة، لكن الأيام نفت أقاويلها:

- الحكومة تريد تجريد الناس من سبل معيشتها.

وأنتشر كلام مضاد همساً:

- تجويع الناس يفتح أبواباً واسعة للولاء والخضوع التام للرعية!

كي يسهل عليهم ترويضهم وصهرهم في ورق أيديولوجيتها.. [



تمشي ويومك لا يريد أن يتقدم، ما زال يفرض حضوره عليك  
أن تطيع وتصغي.

[هنا ضرب العجر خيامهم، من هنا أيضاً قذحت أناس البلدة  
شرارة ثورة حجارة عارمة عليهم، هنا ضرب المصريون مخيمات  
للسيرك ولعب القمار والرقص الشرقي، ومن هنا أيضاً انهالت عليهم  
أكوام الحجر، كلنا يتذكر يوم تم تحويل ذلك المكان إلى سوق الجمعة  
لبيع الخردوات العتيقة، وأشياء فائضة عن حاجة المنازل. فيما بعد تم  
ترحيل سوق يوم الجمعة إلى يوم السبت، بعدما تعذر على أهل القرى  
المجيء إلى البلدة بسبب الإجراءات التفتيشية المشددة، ومنع مرور  
المركبات، بعدما توسعت دائرة المفخحات أمام المساجد. دنيانا مثل كرة  
القدم، تتبدل بلحظات، ومزاج الساسة ريح وغيوم، ريح باردة وحارة،  
ريح جافة ورطبة، ريح مغبرة وصافية، وغيوم داكنة وقطنية، غيوم  
جافة ومثقلة، ناس لا تعنيها تبدلات وتغيرات الطقس والظروف، همها  
العيش بسلام وبلا وجع رؤوس، تريد أن تكسب مالاً متواضعاً يكفيها  
لتحقيق أمانى أطفالها، البلدة لا تريد تلوّث مزاجها بزيف الحداثة،  
ودسائس ساسة بلا عقول تنتج وقلوب تتألم وعيون لا تدمع للألم ولا  
تبصر الغد بوضوح أو بتخمينات، الحروب الوهمية ومضات خاطفة،

كل حرب سريعة ومبهرجة إعلامياً نفاق محض، يراد بها ترويض وغسل أدمغة الناس أو ان الإخفاقات السياسية والأزمات المالية الحادة، حين تتراكم الإخفاقات الحكومية، ويتعذر عليها تحقيق أمانى الناس، ليس أمامها سوى خلق أزمات مفتعلة ومغلقة بذرائع تتأرجح ما بين الشك واليقين، من أجل كنس أحلام رؤوس رعية حائرة، ولفت أنظار الداخل والخارج، لتمرير الحدث بالحدث، غابتها ترك الناس عندهم داخل شرنقة، أو أسماك زينة تحوم داخل قفص زجاجي غارقة في دوامة من الهذيان والفرغ والأمل. المحاربون يؤسوا من التلصص، تعبوا من مراقبة عدو غير موجود، عدو يتشكل بالسنة قادتهم، ترسمهم أعلام أحزابهم، يعظمونهم ويمنحونهم فراسة وعبقرية ومكرًا، كي يتهيؤوا، كي لا يتهاونوا، كي يبقوا قرايين خاضعة معلومة المصير..]

”لم تعد حياتنا حديقة مسرّات، الحياة حفنة كلاوات ١“. قالها عباس. في يومٍ لا يريد أن يرحل أو يتقدم، دوّنت ذلك في كشكولك، يوم ما زال يفرض حضوره لتعيش صدقه طالما حلمك محاصر بحفنة أورام.

كنتم تحاولون تطعيم جموع بشرية فرّت مهاجرة من العاصمة، (أبو حازم)؛ ما زال يحتفظ بحرارة اللحظة، حكاها لي كما كانت بشيء من الندم والحسرة، وبضع قطرات دموع تشكلت في موقيه،

قوافل بشرية مرعوبة مسلوبة الحياة زحفت ووجدت البلدة مكاناً وفق قناعاتها لا يرغبها خمبابا، جاهدت ورهطك لتهدئة أنفـس حائرة وخائرة تسمع ولا تعي الكلام، هاربون من جحيم خمبابا، يوم أشيع أن خمبابا سيضرب العاصمة بمسحوق النووي، كما ضرب هيروشيما وناكازاكي ٢ في الحرب الكونية الثانية.

[ الناس من حقها أن تصدق الشائعة، من حقها أن تتخذ كل كلام خارجي رأس مال، الناس لم تعد تثق برجال الحكومة، جرّاء أكاذيب وتلفيقات مُعسلة تذاع على مدار الساعة، الناس تثق بكل منتج مستورد، كل أجنبي هو طويل العمر، ومتانة مضمونة، ولا يتعطل طيلة العمر، عكس صناعاتنا المحليّة، كلّها مغشوشة، من حق الناس أن تعتقل كل كلام فالت من مصدر أجنبي وتسجنه الفكر والضمير وتتخذ رأس مال، الناس سمعت وصدقت الترويجات الإعلامية، فخرجت تركض مثل القطيع أوان الاستنفار، ولسان حالهم يردد اللازمة الأزلية لحب الذات:

- روعي يا روعي]

بادرت وبرفقة رهط من أهل البلدة لاحتواء وإخماد آلام الناس، ففتحتم لهم مدارس معطلة بأمر من الحاكم، كلام رده أكثر من مسؤول في تجمعات جماهيرية عارمة:

”بلادنا في خطر ومصيرنا واقف على قدم وساق، لا داعي للدراسة ودوخات الرأس، والسنة تعتبر السنة الدراسية سنة عدم رسوب للجميع، بقاؤنا هو الضمان الأكيد لمستقبلكم الزاهر أيها الشعب العظيم“

هياتم لهم ماء الإسالة، جلتم في سوق البلدة وبيوت مترفيها، وأبت بيوت الفقراء أن تقف خجلى إزاء محنة إنسانية رغم تكرارها ما بين عقدين وعقد، بادرت بما تملك، كلٌ وفق حاله وماله.. قالوا: ”الوطن نحن“ . رقيق هو قلبك، ودمعت عيناك للكلام.

يقول (أبو حازم):

”في تلك اللحظة بكى أكثر من واحد ما أن سمعنا كلمة وطن، الوطن نبض متجذر في أعماق بشرنا، وأن الأزمات الوطنية يغدو الوطن أعلى من الروح البشريّة“  
قلت معقياً:

- الله الله.. وطنهم يسكن مآقيهم وألبابهم لا في ألسنتهم“  
جمعت مدارث وأسرّة وخبزاً وأشياء فائضة عن الحاجة، والناس تحتشد من حولك، تحاول أن تقنعهم بأنك فاعل خير، لا تنتمي لجهة رسمية ولا تمثل جهة تعاونية ولست مسؤولاً حكومياً يظهر بين الناس في الأوقات العصيبة عندما تعصف بحيواتهم ومناصبهم أخطار خارجية، يتواجدون لاستجداء حب المنكوبين.

يقول (أبو حازم):

”الناس من حولنا لم تصدق، ألسنتهم اجتمعت على أنه مدير

ناحية البلدة أو أمين سر الحزب الحاكم فيها، لكنني أفهمتهم وأكدت لهم بأنه شاب أصيل من البلدة، جُبل على فعل الخير وأنه يمتهن مهنة الأدب ويريد أن يكون في قلب كل حدث يحدث في البلدة ولديه فكرة أن يكتب كتاباً عنها“

عبّاس قال:

” الدنيا كلاوات يا عالم، لا تصدقوا أقوال الساسة ولا الإذاعات المُغرضة! ها هم أخرجوكم من بيوتكم بالكلام الفارغ ونجحوا في كسب حربهم علينا“

*[هولاكو لم يفعل ما فعلوا، يقولون إن هولاكو دمر بغداد، وبغداد لم يدمرها خمبابا، بغداد شهد العالم على سرقتها من قبل بعض قاطنيها..]*

يقولون إنهم ليسوا بغداديين أصلاء، يقولون إنهم متبغديين تبغددوا زمن فقدان الحياء وسلطة فقهاء الظلام، أقلام مأجورة ستنبري قريباً أو فيما بعد ستتصدى للحقيقة، ستُنقع الناس أن خمبابا حرق بغداد وسرق تراثها، نهب مالها وعمرانها وذبح ناسها وجمالها، أقلام لا تستحي ستكتب هذا الكلام، طبعاً الناس ستصدق كلامهم، ففي كل عهد أصحاب العته هم الفئة المتفوقة، والأقلام المأجورة هي الأقلام التي سيجعلونها صادقة، وهناك من يذهب أن الغازي يجلب معه غاياته الخبيثة، وأنهم يدربون أناساً للمهمات التدميرية لتشويه

سمعة الناس والإساءة لتاريخهم كجزء من متطلبات الترويض أو زرع القناعة في أذهانهم بأهميتهم.

*[حسناً.. لم فعلتم هذا ببلدتي؟ أجتتم لمحاربة الجمال والجماد والبشر سواء بسواء؟ أم لمحاربة الظلم والظلام والبلادة يا أعداء!]*

تمشي.. لم تعد الوجوه المُسخمة<sup>٣</sup> بهباب ودخان الطبّاخات والبريمزات والمدافئ و الجولات النفطية تنتظر قدوم زبائن تحمل ما تعطل في البيت من وسائل العيش البدائية، لم يعد هناك شخص ماء، يحمل على كتفيه أو على عربة ويشارك **العربنجي** في الدفع، خزان ماء يروم ترقيع ثقوبه، لم يعد الماء صالحاً للشرب، لم يعد بوسع خزينة البلاد أن تستوعب طلبات متعالية الأثمان لتنقية الماء بمادة الشب وبغازي الكلورين والأوزون كما تصرح علناً.

”الماء الطبيعي سيمنح أبدانكم مكاسب عفوية وحصانة ذاتية من فايروسات الوهم، وبلادنا في أزمة زائلة، بثباتكم وتحدياتكم سننتصر على أعدائنا مهما فعلوا وتكاثروا، واعلموا أنّ الماء طهور لا ينجس، سمّوا اسم الله عليه واشربوه أنقى من ماء الفلترات أيها الناس“

كلام يردده ملاً الجامع في خطبته الجمعية بناء على توصيات الحزب الحاكم لتهدئة أسنة الناس، لحظة اندفعت جموع مختلطة من أناث وذكور وهي تهذي حائرة، بعدما تفاجؤوا بنزول حليب

مطعم بالقهوة من صنابير الماء في كل منازل البلدة ومطاعمها.  
وصلت مفتح سوق البلدة من جهة سوق اليومين ٤، صفا  
محال عن يمينك وشمالك.

(كل شيء مفقود في السوق تجده عندنا).. ما تزال الرقعة  
الصفحية صامدة رغم سوء تثبيتها على باب محل منهار السقف،  
مخطوطة بخط متعرج من غير تنسيق أو وفق قواعد الخط وبترتيب  
متعرج كأنها حزمة أفاعي متجمدة في لحظة انزلاق، رغم تقلبات  
الظروف المناخية ظلّت حروف الكتابة صامدة محتفظة باللون  
الأسود على باب ثلاجة عمودية مخلوعة من حجم ستة أقدام صامدة  
مشنوقة محكمة التثبيت:

(كهربائيات/صحيات/خردوات عتيقة/تلفزيونات بالات رخيصة)  
فيما مضى؛ كُنّا نمشي والكل كان يبندرنا ببسمة وترحيب،  
يطلبون منا أن نجلس ونشرب قدحي شاي، كنت تستجيب أحياناً  
وتجبرني أن أجلس معك لنخوض مناقشات تشرق وتغرب تتخللها  
قهقهات مفتعلة وكنت تقول:

- علينا أن نضحك أو نفتعل الضحكة كي نخنق أفاعي السأم  
فينا، الضحك يكنس أوساخ حياتنا السياسية المترسبة في دواخلنا.  
قلت لك:

- هذا يعني أن دواخلنا صالئصات بشرية؟  
- نعم يا صاح؛ حياتنا مركبة زمنية تمرق من خلالنا، وتخلف  
أوضارعدامها في أجوافنا.

لم أعقب على ما قلت.

ها أنت تمشي منفرداً، تحاول أن تستدرج ملامح الجميع، نظراتهم، بسماتهم، كلماتهم الترحيبية. ليس هناك من شبح يدعو للجلوس، لا رائحة شاي أو هباب نيران المراجل أو ضجيج أجهزة اللحام وشرارات الكوسرات وضربات المطارق.

تمشي.. تمنح الحرائق والفوضى نظرة غضب، وثغرك يزفر بحرقة صائتة.

وصلت شارع السوق الرئيس، منحت يمينك نظرة متوجسة، ارتسم أمامك المشهد الذي لا يُنسى، تلامحت في مآقيك أشباح أو أرواح المصلّين، يوم جلبوهم عنوة، بعدما غلّقوا مساجد البلدة كلها ليصلوا جماعة، أو ينتفضوا جماعة ضد الدولة، وربما كانت مفتعلة من قبل دهاقنة الساسة لتحقيق مآرب توضحت سريعاً فيما بعد.

قلت لي مفسراً القضية:

- لعبة سياسية ماکرة لتلبیس هذه الفئة أدلة تجریمية، بغية كنسهم من الوجود فيما بعد!

- أظنك تقول الصواب، ها هي المركبات الشبح تجتاح البلدة، وتشكل سوراً دموياً حول الجميع، وربما تنتظر إشارة من جهات عليا لتبدأ الحصاد؟

- انتظر؟ بلدتنا صارت سفينة بلا ربّان وسط بحرٍ هائج!

- لا أفهمك!

- قريباً ستتقلب الأوضاع، وربما سنكسب حكايات نادرة لو عشنا.



- حكايات دموية أغلب الظن.

حدّقت فيّ بذهول وأومات برأسك دليل تأيدك لما قلت.

ها هم ما زالوا يصرخون، يخبطون الدين بالسياسة، ليلطخوا أحلامهم بوحل الرياء وحماستهم القبليّة، فتحوّلت خطبهم الدينيّة إلى قصائد مُخاطبية غير منضبطة أخلاقياً وإملائياً ووزناً، هددوا بها وتوعّدوا رافعين أيديهم أعلى من معنى الكلمات، تميل العقول وتتزاح الغترات، ودون أن يُكلفوا أنفسهم بالعناية المطلوبة، تمتد أيديهم للكوكبة الباسلة الواقفة والتي ظلّت كل جمعة تشكل جماعة مع حضرة الإمام، تعدل الغترات والعباءات والعقال للسيد الصارخ من على منبر خطبة الصلاة، ذلك الصارخ بحماسة، ذلك الرافع هم الصبيان وواقده شعلة الغضب في أبدان الزعران.

قلت لبعضهم في حوارات جانبية:

- هذا لا يجوز يا سادة؟ ستقتلون الدين بالسياسة!

قلت لهم:

- أنتم تتطحون الصخور يا من تدعون أنكم تدافعون عن

العقيدة السمحة!

قلت لهم:

- أنتم تقودون البلدة وقاطنيها إلى فكوك الكواسج والتماسيح!

شباب متحمس، لم يجدوا قلوبهم رهن إراداتهم، نعتوك

بالمتواطئ.. قلت لهم:

- ستتقلب الأمور ضدكم، أنتم تدينون أنفسكم بأنفسكم

وتمنحونهم فرصاً قانونية مجهولة العواقب لملاحقتكم.

ضحكوا، وسمعتهم يقولون:

”خرف شاعر البلدة وتواطأ“،

وسمعتهم يقولون:

”راحت أيّامك يا زوراوه أفندي“

في تلك اللحظة لمعت أفعى، وقفت تراقب، كانت تتلوى وتستقيم، بحثت عن شيء تدافع به عن نفسك، أشياء كثيرة تصلح أن تغدو أسلحة قاتلة، أنابيب مياه مقتلعة مرمية، أدوات عمل، قطع حديد، كل ما موجود في سوق صفائح الجينكو، وجدت الأفعى تخدم، دنوت باحتراس، لم تكن كما ظننت، عكاز مرمي منتصف الشارع، حملته؛ ياااااه .. لا بد أنك صحت، لا بد أنك تذكرت يوماً عشاناه، كنا في المقهى لحظة رأينا أستاذ هاني معلم التاريخ وهو يروم عبور الشارع، قمت وهرعت إليه، نهضت ووقفت منتصف الشارع لقطع سير المركبات المارقة، عبرتما وقدمته ليجلس معنا في صباحية حافلة بالكلام والذكريات.

استدرت ومشيت..

صمت ملغوم بالخوف، لم تعد سينما اللطيف ٦ تجمع أولاد البلدة في أيام الأعياد، دخلنا مرّة، وجدناه الناطق السليم والمذهل عن الأبطال، بصوت جهوري ما زال هو الصوت المتعلق في ذاكرات الناس، كان يمتلك صوتاً مبوحاً ونبرة متسلطة يصلح أن يكون مدبلج أفلام سينمائية، كان يتكلم بدلاً عن الممثلين، كان

يمتلك خاصية تلوين وتبديل جرس صوته، لم تكن لاحظتها نعلم أنه كان يلهج كلمات أجنبية غامضة، لكنه كان يشرح لنا الحوارات، كان معنا حشد شباب ذاهل وكثراً محشورين في دكان صغير، مأخوذين ومسحورين بما نشاهد، ما أن خرجنا حنتلاسن وتشاحن بعضهم مع بعض بخصوص حوارات الأبطال، وأغلبهم كان يجهل أن المتكلم، أو الناطق البديل عن شخصيات الفلم الصامت كان اللطيف.

تمشي..

لم تعد مقهى (أبو شكر ٧) جامعة ناس البلدة كما كان في زمن السبعينيات وشريحة من الثمانينيات، يوم دخلنا وفرت أنت بجائزة الصنوبل في لعبة الدمبل ذات عيد، وخرجنا ملء جيبك بالنقود، لنعيش يوماً حافلاً بالصرف والترف.

توقفت..

ألقيت نظرة، فرعان موحشان، لا بد أنك انتظرت العون من عقلك، أي الفرعين تسلك؟ يندر أن تجد متراً بلا فوضى أشياء، ركام فوق ركام، لا بد أن السؤال حضر أو غاب عن بالك، من أين أتت كل هذه القاذورات؟ سؤال غير مهم بالنسبة لك، خرجت تبحث أو تحت سلطة حكاية، ولم تدم حيرتك طويلاً، صوت ما نهض من أعماقك، صوت عقلك، أمرك أن تسلك فرع محال بيع الأقمشة والتجهيزات المنزلية.

ليميني سوق القماش، ويساري سوق الموبايلات والمرطبات  
والمصورين وصيدليات الأعشاب الطبية، ومحلات الأحذية الرجالية  
والنسائية، ومحال بيع الفرش والمدائر، دغدغني فضول مباحث، لم  
يكن فضولاً بالطبع، بل سلطة عقلي وأوامره، اقتحمت ركاب رماد هائل،  
وقفت عند أول فرع على يميني، لم أجد هناك أثراً لمحلات الخالدي،  
يوم كنت أزوره لأستعير منه الكتب، وأختار الميديات والعطور وكل  
أنواع الكماليات، لم تعد بذلة يوم زفافي في واجهة المحل، كلما كنت  
أتبضع أقف ومعني ضلعي المبتور كؤولة نسترجع متعة ليلية زفافنا،  
قبل أن أن أن نفتررررق، أين مضت ملفوفات الأقمشة؟ أين العباءات  
النسائية الإسلامية؟ وربطات الأميرة، وستائر النوافذ الحديثة، وبدلات  
الأطفال، ومحلات الذهب المزيف والحقيقي؟ أين هي الحشود النسائية  
وهنَّ يغربلن وينبشن كل بضاعة متراكمة، أو معلقة بحثاً عن فرص  
إسراف وتبذير تحت أنظار عيون المراهقين المفترسة..]

سقوف صفيحية؛ كانت متراصة بطريقة مائلة ومانعة من نزول  
المطر إلى وقت قريب، الآن باتت منحلّة مائعة هابطة على أرضية  
يتعذر عليها المشي. لكنك أزحت بالعكاز، عكاز الأستاذ هاني ما  
يعترض سبيلك ومشيت..

عند نهاية السوق المظلم وقفت وألقيت نظرة جانبية، لا محل للتصوير:

”أين مرطبات ( أبو عوف ٩ )؟“ . سؤال لا بد أنك طرحته على نفسك.

استدردت ومشيت.. وعلى الجسر الصغير منتصف السوق وقفت:  
”أين الماء؟“ . هاتك الظن، خلت الجسر تكلم:  
”ممنوع مروره!“

لم تعد المنازل ترسل ماء مجاريها، لم تعد الغيوم تمنح مطرها في بلدة سُرقت ناسها وجمالها، حاضرها.. ماضيها ومستقبلها:  
”ومن أين يأتي الماء، وادي العوسج ١٠ وكن قرمزي ١١  
بيكيان من أجل مزنة مطر“  
أسررت في نفسك.

جسر منتصف السوق يبكي، يكاد أن ينفلق، لكنه يخاف من الوشاة، يخاف أن يهدّوه، وأسلاك نقل تيار المولدات نازلة بالكامل على الشارع وداخل الوادي المتيسر.  
مشيت ومشيت..

لا شيء سوى خرائب وطلل ومواقفك تمشي معك تسليك وتسكنها. مشيت لتسترجع وأنت تقترح تجميع حكايات جديدة عن البلدة. وعند مبنى البلدة في صدر السوق هرول ملثم نحوك:  
”ها عمي زوراب! أما زلت عند قرارك؟“

وقفت ونظرت إلى عيين مطموستين ولحية ينز منها العرق والغبار:  
” ما زال حلمي يسكنني، وما زلت أنتظر فرضيات عقلي“  
هز رأسه. ظنك جننت، هزة رأسه اكدت احتمال نفسه، كان

يتحزم بحزام تتدلى منه قناني زجاجية مملوءة بسوائل كثيفة وفتائل نابتة في سداداتها تنتظر شخطة عود ثقاب، وعلى كتفه اليمين تتدلى بندقيّة عتيقة ممرغة بالوحل.. قال:

”لكنهم قد يواصلون الحرب علينا مرة أخرى“

”لم يعد لي أمل بعد الذي جرى لي“

تركك وانسحب لشجر أرض ومضيت تمشي..

في هذا المكان وقفنا قبل أن يتغير مسار الحرب والسيادة، كان هناك رتلٌ من مقاتلي رجال حماية الرجل الطويل يستطلعون الوادي، وقفنا لحظة وقف كبيرهم أمامنا وابتدرونا:

”البلدة لا تستحق أن نضحي بأرواحنا من أجلها“

دمعت عيناك، على ما بدا أنه لا يعرف قيمة البلدة، وربما قيمة البلاد، وربما لا يعرف حتى قيمة نفسه، ولا يعرف لم هو هنا يقود فصيلاً مسلحاً مرتبكي العيون، لا يعرف ماضي البلدة ومستقبلها، قلت بصوت شبه مكتوم:

”أنتم تجهلون حقيقة ناس تراقب بعضها البعض، تنتظر فرص

الوشاية، لا تنتظر من أحد أن يساعدكم! من يفعل ذلك سينحر مع عائلته في وضح النهار، ليس بوسع أحد ما أن يدلك عليهم أو يمدك بمعلومة عنهم“

لم أستطع أن أفهم شيئاً مما دار من حواريكما، ولحظة مشينا شرحت لي ما قلتما لبعضكما.

على حافة الوادي الكبير وأمام غابة البردي والقصب، المكان

الذي احترق بطريقة مجهولة، وأدخل البلدة في قيامة دخانية، وجثث الجثث التي احترقت وأرعبت الناس وولت هاربة، بعدما شاع أن الرجل الطويل جاء ومعه تيزاب شعبي حارق ليحرق الجميع، ليلة قامت قيامة الرصاص والقنابل وزعيق المركبات الغريبة حتى الفجر. وقفت.. تستذكر يوماً سيتجدد فيك دائماً كلما مررت أو وقفت حيث تقف.

كان يوماً حافلاً بالهرج، اجتمع الناس عصرًا، جاؤوا لاهئين من كل أطراف البلدة، صغاراً وكباراً، كنا جالسين على حافة الوادي، نتحاور حول آخر ما قرأنا وما كتبنا، قبل أن نتوقف لهرج بدأ ينمو وصخب بدأ يعلو، واجهنا مشهد مرح منقطع النظير، عندما هاج ثور وتخلب، كل شباب البلدة، رجالها وأطفالها، استثناء النساء، كن من فوق منازل تحيط الوادي على طوله من جهتين، توجهت أعينهن مع أعيننا، إلى شبح حيوان يثير الغبار وهو يطارد أنفاراً تغامر للدنو منه، قبل أن تتطلق صارخة وسط هدير ضاحك والثور يلاحقهم.. قلت قولك:

”هذا يوم الحكي، إنه يوم لا ينسى“

ما زال الفتى الثوري رشيد أحمر ١٢. يحاول بمعية زملاء الفوضى والمرح، أن يوقفوا زحف الثور أو مسك الحبل القصير المتهدل من رقبتة، كان الثور يناور بحنكة وخبرة مقاتلاً وسط هيجان شعبي ضاحك، ينطح من يتعثر أمامه ويمر من فوقه دون أن يلحق به أضراراً جسدية، بدا حائراً أكثر من كونه ثائراً لهذا التجمع البشري

المريب من حوله، أينما يريد أن يفر، يهرب والناس تهرب أمامه، يطرح من يدركه ويمر من فوقه، هكذا يمضي من واحد لواحد، قبل أن يشعر بتعب وبلا جدوى خرق الأجساد البشرية التي لا تنتهي، ليرتد على عقبيه، قبل أن يقف مرة أخرى في منتصف حلقة بشرية لا تتجلي ليفكر بطريقة منقذة.

ومع الغروب، ظلت مكبرات جامع البلدة تنادي الناس للصلاة، انسحبوا ضاحكين، بعدما زعموا أن الثور قد مضى - بعدما أخلي الشارع العام من الناس - إلى **كن قرمزي** وتمت ملاحظته من قبل رجال الشرطة، تمكنوا أخيراً من قتله برشقات كثيرة من الرصاص، فسروا قضية الإسراف في تبذير الرصاص:

” رأينا أشباحاً كثيرة لثيران تهاجمنا من كل حذب وصوب“  
كلامهم فجر تندرات وسخرية انتشرت بسرعة النار في الهشيم، دعا إلى سجن كل شخص يتكلم بتهكم حول سلك الشرطة، فتحولت المزحات من العلن إلى السر.  
قلت:

- شرطة اليوم غير مؤهلين لحمل السلاح!  
- أخي شرطي، تطوع وألبسوه الملابس وأعطوه مسدساً من غير تدريب، ما زال رغم خدمته لسنوات خمس لا يعرف كيف يستخدمه ولا كيف يفككه ويديمه.

وهناك قول آخر ضعيف المسند يذهب إلى أن الثور عاد بمحض إرادته وانبطح في الوادي أمام القصاب **شهاب (أبو الكرش)**،



عزل رأسه بضربة ساطور انتقاماً لما فعل.  
الغروب حلّ، وعدنا إلى منازلنا، وما بين القولين، ظلّ مشهد  
الثور الذي تخبل ماثلاً في ذاكرتينا وصممنا أن نكتبه ذات يوم  
حكاية مشتركة.

طأطأت رأسك، وأيامك تمرق طرية حارة، ها أنت تستذكر يوم  
فاض الوادي، بعد مطرٍ دام لآيām ثلاثة، يوم وقفنا ننظر كيف دعبل  
السيّل الغريني الهائج المنازل الطينية لجانب من حي اللوكا ١٣،  
نزلنا وبمعية رهط شباب إلى الماء، وانتشلنا أشياء كثيرة للناس،  
حاجيات ودواجن، وبقراً وأغناماً.

ها أنت تتذكر طفولتك، أيām الأعياد، عندما كان الوادي يضح  
بالناس وتتنوع الألعاب الشعبية البسيطة، يوم تعلمنا ركوب الدراجات  
الهوائية، طبعاً بعد اخفاقات وسقطات تمزقت جزاءها أسمانا، لكننا  
تحدينا وقادنا تحدينا لنكون من سائقي الدراجات المهرة، وأظن أنك  
وقفت متأملاً أو مسترجعاً لحظات طفولتنا التي لا تنسى وقررناها  
أن تكون مقبلات الحكي:

”حقاً أيامي لا تنسى“. أظنك قلت هذا أيضاً.

هزرت رأسك وبدأت تمشي..

اخترقت أزقة حي الجماهير ١٤، ومضيت إلى كن قرمزي،  
اخترقت حي الشهداء، ووصلت المعسكر، عرجت على النهر، لم  
يعد هناك عبسكة ١٥ صياد السمك وسائق التوكسي، ذلك الذي لم  
يصطد سمكة واحدة طيلة أيامٍ وليالٍ رغم توفره بكثرة في النهر، قبل

أن يحدث ما أحدث في يومٍ لا يريد أن يتقدم أو يبلى من ذاكرة أحد، يوم شلَّ البلدة وأدخلها جوف الذهول، لم تجد في نفسك رغبة أن تعيش تفاصيله، ربما عقلت احتفظ به لليلة نادرة وأنت تصغي له وتسير وفق أوامره، إنك خرجت تحت ضغط هموم تريد أن تفرض حضورها، وحكاية **عيسون** لا أظنها كانت غائبة عن بالك، لابد أنك كنت تنتظر عقلت ليُسكنك فيها، هو يوم راسخ والمعني في تاريخ البلدة، ويستحق حكاية منعزلة.

وصلت ملعب السكك. تراءى لك **عبوشة** ٦ وهو يغربل اللاعبين بمهاراته الفنيّة، صاحب اليسارية المراوغة، ها أنت تكاد ترى ضرباته الحرة المباشرة القويّة وهي تدور وتتخذ مسارات تتغير، قبل أن تخدع حراس المرمى. برز لك **زكي أحمر** ١٧. ما زال قداماء البلدة وحتى يومنا هذا يسمونه **جورج بيست** ١٨. تشبهاً بالثعلب الإنكليزي الماكر، الكل ما زال يتذكر يوم سجّل هدف التعادل في الأنفاس الأخيرة في مباراة **كلاسيكو جلولاء - خانقين**، بعدما دفع **علوكي** ١٩. أخذ الكرة من بين أقدامه ليقع الهدف التاريخي باسمه. شاهدنا كيف اندفعت الجماهير المحتشدة، فاقدة نفسها ومسعورة، ليرفعوه على الأكتاف من الساحة وحتى منتصف سوق البلدة ومن ثم إلى البيت.

كان نصراً مطلوباً ل- نادي **الوحدة** ٢٠ الرياضي على نادي **خانقين** ٢١، ضمن مباراة كأس التعداد العام لسكان العراق في العام ١٩٧٧.

لا أحد ينسى المرحوم **معن** ٢٢ صاحب الهدف الأول، بعدما تقدم نادي **خانقين** بهدفين، وفي الوقت الإضافي الأول، عاد **معن** ليتلاعب بلاعب **خانقين** ويسجل الهدف التاريخي الثالث ليغرق البلدة في تلك الليلة في بحر انتشاء رياضي منقطع المثل، جلسنا تلك الليلة نستذكر المباراة وحيثياتها.. قلت:

- لن نشهد فرحاً آخر مثلما نعيش ليلة **معن** و**زكي أحمر**.  
ما تزال تمتلك كامل أحلامك، متيماً كما عهدتك بالعشق وحب الخير، أميناً وفيّاً لفن الحكى وتجميع نوادر بلدتنا.  
مشيت..

القاطرات لم تعد متواجدة لتحتفي بالناس، كانت الناس تصعد وكانت الناس تنزل وأعلام **المقاصبي** ٢٣ كانت ترتفع وتنخفض نهاراً، وفي الليل تشع ألوان فسفورية من **فوانيس** يدوية ترسل إشارات ضوئية لسائق القطار كي يتقدم أو يتراجع وأن عملية تنظيم وضعية العربات وتغيير اتجاهاتها، كانت القاطرات في تلك الأيام تمنح حياة البلدة بركة وعافية بصغيرٍ منعشٍ وساحرٍ، ورزقاً مثالياً للناس.  
حرّكت رأسك..

ما زلت تعيش حلمك ويومك الذي لا يريد أن يتقدم.  
تريد أن تنزف التتميل المتصاعد من قدميك..  
الليل بدأ بإرسال تراجيديا النتانة..  
لم تجد قديماً في قاموس حياتك، قديمه جديد، وجديده تكرر لما حدث وسيحدث.

تجلس.. تحت شجرة المشمش.  
ليلٌ أبدي.. صمتٌ يسبق العواصف، ورائحة العفونة إستقرّت  
مسامات الفضاء.  
وليلك لا ينقرض سريعاً.. ولا تنتهي الحكاية..  
مع الليل تتشكل وفي الليل تتوغل..  
وليل الحكي طويل وطويل وطويل.. وأنت فيه الحلم والحالم.

## الهوامش :

- ١: كلاوات: باللهجة العراقية الدارجة تعني القبعات، تستخدم كناية عن الخداع وأطلاق الوعود لتخدير العقول.
- ٢: هوروشима و ناكازاكي: مدينتان يابانيتان تعرضتا لضربة نووية في الحرب العالمية الثانية من قبل أميركا
- ٣: المُسخمة : من كلمة سخام باللهجة الدارجة، هباب الأجهزة التي تعمل بمادة النفط.
- ٤: سوق اليومين : مساحة أرض كانت تجتمع فيها الناس يوم الجمعة لبيع الخردوات المستهلكة، تم تحويل التجمع إلى يوم السبت بسبب حظر التجوال الذي فُرض في أيام الجُمع.
- ٥: زوراو : كلمة تدليل واختصار لكلمة زوراب.
- ٦: اللطيف: صاحب أوّل جهاز عرض أفلام سينمائية صامتة في البلدة. كان الشباب يتهافتون للدخول إلى دكان صغير لمشاهدة أفلام صامتة وكان هو يتكلم بدلاً عن الممثلين.
- ٧: أبو شكر : صاحب المقهى الكبيرة منتصف سوق البلدة، وكانت ملتقى أغلب رواد المقاهي. كانت تجرى فيها لعبة الدميلة الشهيرة والصنوبل هو الجائزة الكبرى في اللعبة.

- ٨: محلات الخالدي : متجر كبير لتأجير بدلات العرس وعمل الميداليات وتأجير الكتب.
- ٩: أبو عوف : شخصية معروفة كان صاحب مرطبات شهيرة في البلدة.
- ١٠: وادي العوسج : منطقة تقع شرق البلدة تعج بالأشواك وملحيّة الأرض.
- ١١: كن قرمزي : بالعربية كن : شرح جبلي متآكل بسبب السيول المائية مواسم المطر، قرمزي تعني اللون الأحمر الداكن، كناية عن حميرين سلسلة الجبال المعروفة بحمرة ترابها.
- ١٢: رشيد حميد أحمر: فتى ثوري شجاع كان يتحدى أزام السلطة في وضح النهار أيام النضال والاحتفالات الخاصة بالقوميّة الكرديّة.
- ١٣: اللوكا : مأوى لمعالجة إعطاب القاطرات، يقع منتصف البلدة، ضمن حي العروبة، تم رفعه - بعد غزو دولة الكويت - وتحويله إلى خردوات من قبل عصابة حكوميّة استغلت غياب السلطة والقانون.
- ١٤: الجماهير / الشهداء : من أحياء البلدة الحيويّة.
- ١٥: عبسكة / عبسون : تحبيبات للاسم عبّاس، أحد رهط زوراب إبان حرب الخليج الثانية.
- ١٦: عبوشة: عبد علي لاعب كرة قدم شهير مثل نادي شرطة محافظة ديالى، اغتيل على يد الجماعات المسلحة.
- ١٧: زكي حميد أحمر: أبرز لاعب كرة قدم هدّاف أنجبته

البلدة، تم استدعاؤه إلى نادي الزوراء في عصره الذهبي، وبسبب الظروف المعيشية لم يستطع الالتحاق بالنادي. أصيب بمرض الرعاش إبان الحرب العراقية الإيرانية، بسبب سقوط قذيفة قرب، وهو شقيق رشيد حميد أحمر الفتى الثوري في البلدة.

١٨: علوكي: تصغير للاسم علي. أحد لاعبي نادي الوحدة الرياضي في فترة السبعينات.

١٩: جورج بيست : من مشاهير كرة القدم الإنكليزية.

٢٠: نادي الوحدة : أول نادٍ رياضي افتتح في البلدة. منتصف سبعينات القرن المنصرم.

٢١: خانقين : قضاء تابع لمحافظة ديالى يقع شمال شرق العراق وجولاء ناحية تابعة إدارياً له.

٢٢: معن : رياضي معرف في البلدة، عداء متفوق صاحب الهدفين الخالدين في مرمى نادي خانقين، في بطولة التعداد العام لسكان العراق. اغتيل على يد الجماعات المسلحة.

٢٣: المقاصجي: عامل سكك حديد، يعطي الإشارات لسائق القطار، بغية تبديل مسارات العربات بواسطة علمين أحمر وأخضر نهاراً، وفانوس يدويّ بذات اللونين في الليل يضاء ببطارية مشحونة.

الأحد ٧ أيلول ٢٠١٤

[[الليل والحكاية نديمان لا يفترقان؛ لم نعد نمتلك تلك اللهفة البريئة،  
وذلك الاندفاع الذي كنا نصارعه فينا، فقدنا روح التناغم مع الكتب،  
كان الأدب تعبيرياً، وكان الأديب حريصاً على المنافسة النزيهة، واليوم  
أغلب الكتب غايتها التجارة والمكاسب التي تفرضها الجوائز، ومع  
تداخل الأجناس، خاصة الصحافية التي غيرت الكثير من ثوابت الحكاية  
ونجومية القصة وأمزجة القراء، دفعتهم من الاعتبارية إلى السطحية،  
شخصية اليوم مهشمة، متناثرة، خائفة أو حائرة، سواء بسواء، ليست  
كشخصيات ذلك الزمن الذي كان، يوم كان كاتب الحكاية يجبرنا أن  
نتتبع ونعيش مع أحلام وبطولات شخصياته، كنا نمرض معها ونغضب  
مع غضبها، نتفاعل معها، نصفق لنجاحاتها.

نعم.. سأتفق معكم بأن الزمن غير أمزجتنا، لكن ما تزال كتب  
الأمس هي الأكثر قدرة على ترتيب أوضاعنا، ومنحنا بعض سعادات  
ماضينا، أغاني اليوم لن تصمد أمام أغاني كوكبة الشرق والعنديل  
الأسمر والأطرش فريد أو أم - ست الحباب - فائزة أحمد، ولا صادحة  
مثل - مخلصني بقالوا مدّة وبليلة شوق ناداني - لشادية، كذلك



تنجر المقارنة في كل مجالات حياتنا الأخرى، لم أجد ما يدفعني أن أعيش سعادات وانبساطات الماضي، لا أملك سوى ليل يتواصل وشجرة تمنحني رائحة الحكى، لذلك؛ ستبقى رهين الحكاية والنوبان فيها حتى نهايتك؛ يقول لي عقلي..]

تجلس..

لا شيء يتضح، تتشكل ملامح الأشياء، تكبر وتضمحل، تتكون وتتلاشى، والليل يهيمن بصمته وعمته، نجوم تحاول بخيوط ضوئية، قد تليق هنا بناء للجاجة مزاجي أن أقول متكسرة، رغم أن الخيوط تنقطع وتتشابك وتلتوي وتنفتت لا تنكسر كما أقترح، تبدو على أقل تقدير متكسرة وهي أقرب للحقيقة كما أرى أو يرى مزاجي، الخيوط الضوئية تشبه زجاجات متعامدة، تهبط من شاهق إلى الأرض، ليعذرني القارئ، ولتعذرني أنت أيضاً، عن مفردة وضعتها في مكان وجدته الأقرب إلى روح المشهد. تحاول يائسة، تلك الومضات النورانية الخجولة إلى حد ما، أن تستعيد كينونتها، أن تشق مسارب الظلام لتصافح أو تغازل الأرض وموجوداتها الخاضعة للصمت، الكلاب ما تزال من خلف أسوار البلدة، وفق شهادتك، وهذا ما أراه وفق حساباتي أيضاً، بعدما بنيت كلماتي وتصوراتي للمشاهد على ما ورد في أوراقك، تلك الكلاب؛ بعدما أخرجتها القنابل والجوع وهجرة الناس، من فوق التلال المحيطة

بالبلدة، ترفع آذانها كرادارات تقتنص الأهداف، تمد أبوازها كأسماك تحتضر، إنها تبحث عن آخر التنفيسات، تستطلع؛ في محاولة شم رائحة الحياة، رائحة الطعام والطعام عند الكلاب هي الحياة بكل تجلياتها، إنها هناك واقفة بخشوع وتوسل، تنتظر مصدر ثقة ليقنعها بأن الحرب لم تعد قائمة، وأنها كانت مجرد فبركة كوميدية، وأن الرصاص خلد للخنوع، بعدما تكشفت - كالأوت - الحرب، كما تلهج ألسن الجميع، وأنت تقترح كلمة أنسب وأثقف مما يتوارد على ألسنة العامة، تقول ؛ قُبَعَاتِهَا .

تجلس..

دائماً تبدأ من حيث اللاشيء، تأتي الجفوة من أرق مباغت، من ومضة تبرق وتلتقيك في يومك، وكل أيامك لا تريد أن تتقدم، أيام ذهبية، تلك التي عشتها أو عشناها معاً، وكلما تتقدم السنين تفقد الحياة جواهرها الذهبية، لتغدو فضية منحدرة نحو الفلزية، قبل أن تتحول إلى حفنة رمال، كما تتنبأ كتب السماء .

أيامك ستبقى عالقة في ذاكرتك، غالباً ما تنحدر لتسكنك، لتعيش سخونتها، إنك تسهر؛ لا وقت للنوم، يقول عقلك، ليس هناك دافع يجبرك أن تُخلد جسدك للراحة.

تجلس تحت شجرة المشمش..

لم يذعن طائر الوسن لمصافحة ولو لبرهة جفنيك، والنوم في بلدة فارغة المحتوى محض حلم صعب المنال، أظنك؛ كما تؤكد، أنك بقيت متأرجحاً ما بين سريرك ونافذة غرفتك، تارة تخترق العتمة

الكاذبة بنظرات لا تصل إلى شيء، قبل أن تصطدم بفرغ لا نهائي من العتمة، ليل وليل وليل، إلى أين يمتد هذا الليل؟ حتماً قلت هذا، وأجزم أنك كررته، وأتاك قلته ذات يوم في حضرتي، ليلة خرجنا بعد نهارين من المطر لنتسكع، فوق رؤوسنا الغيوم ما تزال تتطاحن والبرد يشتد، لبسنا الكاوبوي وجزماتنا وحملنا مظلاتنا وخرجنا إلى الليل، مررنا بالسوق، ومشينا على الشارع الرئيس المقوّس بمحاذاة الوادي، لحظة جلسنا في مقهى الجماهير، على مقعد أمام الباب بمواجهة الوادي الذي ثار وفاض بشكلٍ غير مسبوق، جاء أخرس البلدة وجالسنا، قبل أن نتكاتب معه في سينات وجيمات تتطلق، قلت جواباً لسؤاله الأخير، لحظة طلب منك تفسيراً مقارباً عن سعادة التجوال تحت المطر.. كتبت له:

- التجوال تحت المطر يساوي عندي سياحة بحرية في ليل وليل وليل.

تعرف أن الليل نهايته فجر كاذب، فجر لا يأتي بجديد، تمد عينيك لتحظى بشيء يُسليك، يتراخى جفناك، يرتد بصرك، من غير أن تصطاد ملمحاً يهدئ قلقك، ترجع إلى سريرك لتغازل العتمة بحثاً عن مفتاح لحكاية ما.

*ليطول بي التمعن، أحاول أن أجد فرصة مثالية أو فكرة معقولة، كي أستهل بها أجواء ليالي، أن أغير إستراتيجيتي كي أخرج من فلك الروتين،*

ليس لي سوى الذهاب إلى مكتبة ذهني، هناك أجد الملفات والكتب التي شكلتني، أحاول - رغم انحسار درجة الرغبة - أن أستدرج إلى حد ما، بعض المتعة مما قرأت تحت ضوء الفوانيس أو اللالات النفطية، كتب لأبير كامو وهمنغواي وتولستوي ودستوفسكي وسارتر ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وروايات أجنبية متنوعة، قصص ممتعة لكتاب عرب وعالميين، دواوين شعرية للمتنبى ونزار القباني ومحمود درويش والسياب والمعلقات السبع، قبل أن يجتاحنا ماركيز - غابو - بعزلته السحرية وأتباعه ممن والاه في ظفراته الجنونية، يوم كنا نندمج ونبحر ونعيش حياة الفراديس الخالية من هموم الجوع ومشكلات الوطن وخزعبلات المراهقة وطيش الأحلام الوردية، لكن اليوم لم أعد أشعر بقلامة ظفر مما كنت أشعر به أو أنوب فيه، أحاول أن أقرأ روايات ذات درجات تقنية أعلى، وشطحات خيالية أبحر، ومواضيع ذات أقيام ثورية فعالة، ومناطحة للواقع المرير الذي يحجمنا ويحتجبنا ويقلصنا، كان الأدب؛ بالأمس تربوياً ونفسياً ومعنوياً ووعظياً، بانياً للحياة ومغذياً للعقل، صار اليوم؛ خواء، خالياً من عسل المادية التي أطاحت بالقارئ خارج المتن، أدب اليوم؛ ليس كأدب الأمس النبيل، أدب الأمس؛ كان شمساً ساطعة وقمرًا منيراً، واليوم صار الأدب؛ كشمس كاسفة وقمر مخسوف.. [

صعب هو النوم في بلدة ساقطة، في ليلٍ يضج ببالون الحكايا، قمت وهبطت درجات السلم، جلست على كرسيك الصامد، كرسيك الذي لم ينقلب، بقي كما هو محافظاً على وضعيته، بعدما فرغت البلدة في تلك الليلة الأبدية، يوم زحفت الناس متسترة بعباءة الليل - تحاشياً من زخات الرصاص وانفلاقات القنابل - فازه من بلدة بدأت تسقط في ليلة سقوط **كولالنتك**، رافضاً كل كلام يغريك لتهرب، بقيت وفي ذهنك رغبة ضارية أن تلملم حكاياتك المتناثرة وأيامك التي لا تريد أن تتقدم في تشعبات البلدة، رغم ارتجاجات الأرض وانهيارات المنازل، بقي كرسيك في ظل شجرة المشمش، كأنه قرر أن يُشاطرك الصمود والتحدي والبقاء حتى النهاية، قرر أن ينادمك وأن لا يموج أو يهترئ إلا معك.

*[داج هو الليل، لم تعد نجوم البلدة تمتلك قدرات تنويرية لتفك أو تفتك أحشاء الظلام، أشعة ما تزال تعترضها، تنبعث من الحرائق وأدخنة تختلط بغبار مجهول المصدر، تتلولب وتتعلب وتتأفغ لتصافح ملامح أشياء ترتمي كسولة في بلدة فقدت حياتها وحيويتها في غفلة من غفلات أو شطحة من شطحات عقول قاطنيها، ذائقتي اليوم ذائقة زنبقية متحركة لا تعرف مستقرها، تنجذب نحو التوهجات، سرعان ما ترتد حين تصطدم بالسراب، أبحث عن حكاية تمتاز أو تنماز وتتسلح بالعناصر الأكاديمية، كونها أعمدة فولاذية ستبقيها قائمة لكل العصور..]*

من خلل العتمة، أشباح هياكل تتلامح، بقايا مبانٍ تراها أشياء غير طبيعيّة، تغزو وترتد، تتعملق وتضمر، لا ترغب في تفسيرها، ظنون عينية تولد لحظات القلق والأرق والرغبة والحلم.

ما بين اليقظة والحلم، ما بين الرغبة واليأس، شبح شرخ العتمة ووقف يستوعبك، لم يمهلك وقتاً لتبتلع ريقك أو تفرك عينيك لكنس وسوس الأرق وتراكم آلامك أو تحاول إعادة الاعتبار لنفسك، لم يكن ظناً، ولم يكن خيالاً، أنامل شغّت بأضواء فسفورية، نقرت رأسك ومن صوتها عرفت أنها حقيقة مباغته، بهمسٍ خلابٍ وجرسٍ متعاسٍ تأوهت :

- هجرني النوم!

- ستوقعيني في ورطة؟ أظنك قلت كنتحصيل حاصل لمفاجأة غير متوقعة.

- لم أعد أحتمل الظلام - تكلمت بثقة واضحة، بصوت نقي ورغبة وجنون - أفتح لي صدرك؟ لدي ما يسعدك، ويعيد لك صفاء ذهنك، رغم سكنك وسط هدير المأساة.

خاضعاً وراغباً مرتعد الفرائص تركت كينونتك وعنادك، مذ رحلت كوالالة يوم سقوط البلدة، لم ترغب أن تمنح العمر فاكهة رغبة أو عاطفة قلب، حتى ولو في أحلامك أو خيالاتك المنشطحة، على نكراها قررت أن تعيش وستعيش. أتذكر يوم ماتت زوجتي، وقفت معي وواسيتني وبعد أكثر من ستة أشهر يوم كنّا في المقهى وما أن تركنا أخرس البلدة ورأينا أستاذ هاني يروم عبور الشارع قمت وقدمته

ليجلس معنا .. قلت لي :

- يجب أن تدفع عربة الماضي وراءك، وأن تلقي بمرساتك في نهر الحياة.

نظرت نظرة عميقة في عينيك، قلت والحزن في تلك اللحظة كان يخيم عليّ:

- من خصالنا النبيلة أن ننتظر عاماً، قبل أن نواصل عبور نهر الحياة مرة أخرى.

هزرت رأسك وقلت لي:

- لن نعيش الحداثة ما دامت رؤوسنا محكومة بسجون تقاليدنا وأعرافنا الباسلة.

اكتفيت بهزة رأس ولم أعقب بعدما وجدت كلامك عين الصواب، لكن أستاذ هاني تدخل في الحوار بعدما شرب شايه:  
- حياة العزوبية في بلادنا لا تنفع.

- وحياتنا الزوجية ضياع لمواهبنا. قلت هذا وهزّ أستاذ هاني رأسه مؤكداً على كلامك.

تدخلت:

- محكومون بحياة ضائعة، المرأة لا تمنحنا فرصنا كي نمنحن السعادة.

أجاب أستاذ هاني:

- وضعت هذه الإشكالية في بالي، ها أنتما تريان حالي، ماذا لو ارتبطت بواحدة؟ كيف أواجهها وماذا أمنحها بعدما حصل لي

ما حصل؟

تدخلت وأجبتة:

- لابد أن عقلك كان يفرض عليك رغباتك أستاذ؟

- عقلي كان دليلي، هو من حفر لي البئر وألقاني جسداً بلا

روح في حياة صاخبة.

قضينا أصيل ذلك النهار ونحن نسترجع أيّامنا البريئة.

لم تنتبه إلا بعد لأي لهندامها، وعلى ما يبدو بل يبدو، أنها

خرجت بقميص النوم، هذا ما أكدته أنت وبنيت عليه حكياتي أو

بالأحرى حكايتك.

*[كانت برداء النوم، شعرها مطول ومتناثر كأنها ناهضة من سرير*

*معركة عاطفية، وهج وجنتيها كفضة القمر، كعسل منسكب على زجاج*

*شّفاف، من عينيها شرارات كالحليب تتدفق ومضاً ومضاً، تغزوني*

*وتشّلني، ومعها فقدت كينونتي، وجبرت على المثل لما أرادت، فقرر*

*عقلي نلك وأطعت..]*

عينك لم تعد تفرزن ألوان الأشياء وأحجامها، موقف محرج

في ليلٍ لا يرحم وخلفك نافذة غرفة أرضية كانت لوقتٍ لا يريد أن

يتقدم تنحسر على أرضيتها زوجتك وطفلتك، غارات في نومٍ

صاخب، تتصاعد موسيقى أنوفهن عبر فناء الصالة، تُشعر أي



سامع بقسوة النوم في ليل بلا كهرياء، في ظل فوضى عارمة تتوسع  
وحياة تتدحرج نحو الهاوية، في ليل ملغوم بالرصاص والمجهول،  
قلق أجساد غاطسة على أسرة شبه متهالكة، تتشد آلامها وأحلامها  
عزفاً بالأنوف.

[ نهضت ووقفت مرتبكاً، جفّ ريقِي، لم يحصل لهذا الجمال  
الكهربائي أن ألقى علي ذات يوم سلاماً، أو رد لي نظرة بنظرة، وفتت  
مندهباً، فتعلت آليات ذهني للحظات، قبل أن أستيقظ من شرودي  
وأعيش عسل الحكاية.. ]

امرأة لها شبيهه؛ ربما هي من كانت تلك التي رمتك بوردة  
وسروال في تجوال أثير من جولاتك، بعدما عرفت أنها ترجلت من  
صهوة حصان رغبتها معك، ووجدت من يمنحها إشارات وبسمات  
وراحة وانتظماً في دقات القلب، باغتك ندم وألم، خجول الطبع،  
هذا ما وجدته فيك عبر رفقة طويلة، كسبت كامل صفات أبيك،  
استثناء الحكي، كان هو عاشقاً لصيد الأسماك، وأنت مسكون  
بعشق اصطيد الكلمات والحكايات، وما زال تعبيرك يحضرني وأنا  
أكتب حكايتك، يوم وصفت لي سبب مرافقتك لأبيك إلى نهر البلدة:  
- أذهب معه، هو يلقي بصنارته للنهر ليصطاد السمك، وأنا ألقى

بصنارتي إلى بحر الخيال لاصطاد الحكايا.

لكم حاولت أن أوقظ فيك رغبة اصطياد الفتيات، شكلك الوسيم كان يكفي لاصطياد سيل النظرات من الطالبات، ونحن نتسكع على الشارع العام، الشارع المحاذي للوادي الكبير، كنا نتناقش حول ما قرأنا من روايات ودواوين شعرية، وكنت أصطاد عشرات النظرات منهن وهن يرسلنها لاصطيادك، ولأنك لا تمتلك الشجاعة الكاملة لمواجهة البنات، لذلك كنت تهرب من صئارات أعينهن كسمكة نبيهة خاضت تجارب عسيرة مع الشباك والصنارات.

لا بد أنك دامع العينين ومختق النفس وقفت تشيعها، وهي تتبختر سواء أخرجت أو عادت، بعدما تزوجت وسكنت في زقاقك، تلك التي أبحث لي حكايتها لحظة رأيتها تغزوك بنظرات ثاقبة مبللة بدمع فقدان، قلت لك:

- أنها تقتربك!

قلت:

- عندما لا تسبح المرأة في حوض السعادة، تغدو مفترسة رجال!

*لم أجرو ذات يوم أن ألقى عليها سلاماً عابراً كونها جارة وزوجة لجار، كانت متعالية تسكن برج جمالها، غرورها شجع الكثير من الشباب أن يلاحقوها بنظرات الرغبة، دون أن يتجرأ صاحب شجاعة أن يدنو منها، أو يفوز بفرصة معاورة، يدان تشعان أمسكتني وجذبتني وصرت لصقها، بدأتنا تعصراني، حاولت أن أتملص منها، لكنها بدأت*

تمرر أنامل مكهربة لتشعل حرارة لاهبة على سحتي، انحدرت حيث  
مكمن عذابي وعذاب البشرية كلها، راحت تسحق شيئي المستفز، تعجنه  
وتلولبه وتأخذه في سياحة موتية فائقة اللذة، وفي غمرة ظلام أبيض  
خلاف ظلام الليالي والكهوف والزنازين الأرضية، أبيض كالحليب، لا  
يخرقه النظر، أنهضتني وأدخلتني البيت، خاشعاً مررت نظراتي، حالماً  
كنت، أنامتني فوق سرير كالحبر، وصرنا معاً، من غير حيرة أو  
خوف، في قارب الحكاية..]

- لا تشغل ذهنك بهذا الانجراف الخطير! - أفاقتك من حيرتك  
- قوّة ما دفعنتي أن أرتكب هذه حماقة، بل يمكنني القول، إنها  
ليست حماقة كما نتصور، وليست رغبة جامحة أيضاً، إنها في  
الحقيقة ليست رغبةً ولا هي إرادتي، أنت تعرفني، لا تستغرب ولا  
تتخذ هذا الجنون رأس مالٍ، إنها مفروضة عليّ وعليك، وما كُتبت  
لي ولك يجب أن يدونه الواقع بواقعة، وأنت تسميها؛ حكاية!  
سأفترض هذا الحوار، وقد ابتعد قليلاً، لكنني أجزم أنني سأعيش  
في حيز دائري سكنتماه، وما أدونه لا يخرج من هذا الحيز الذي  
سأفرضه نطاقاً للحكاية، مستنداً إلى شوارد ما أسررت لي وما أسرره  
بعض الأصدقاء في جلسات المقاهي وطرقات الليل، لا غرو في  
ذلك أن مررت أقوالك ووجهات نظرك لأشياء كنا نتناقشها، وجدتها  
تليق بهذا المشهد الغريب في جسد الحكاية، من باب العجائبية التي

بدأت تغزو السرديات الحديثة وتغازل عقول الوقت.

- من أنتِ ؟ - بشيء من الحزم قلت - فكري بدأ يتفكك ، أشعر أنني في صلب الجحيم ، ألسِتِ هي ؟ - منحت نفسك ثواني صمت كي تسترد هدوءك وطبيعة حواراتك - ألسِتِ هي تلك التي حيرتني ذات مشي أم إنني ساقط في لجة كابوس؟ أم إنني تخارفت باكراً؟

- الجحيم سُمرت وهيجتني إليك - قالتها بهدوء فتاة ماكرة في لحظة إغواء - هذا كل ما لدي من تعريف لهذا المشهد.

- لذّتك فائقة - مسترداً هدوءك وخارجاً من ثوبك - لم يحصل أنني شعرت بهذا الموت العذب من قبل، إنه عذاب الحكاية أوان التخليق.

- عندما نرتكب الحماقات نكون في قلب السعادة، في الواقعية تكمن أسرار الأعمال الروتينية، ودائماً الاختلاف يترك بصمة الحيرة والمتعة التي لا تتقادم في الذاكرة، لا تترك بيت المذاق، هذا ما لدي من تفسير وأنت تسميه وفق ألف باء الحكاية؛ وجهة نظر!

- حقيقة توهمت أنكِ هي! تلك التي كنت أخاف أن أنظر إليها، بعدما سكنت بجوارنا.

- شيء جديد وكلام غير مألوف أسمعته، على أية حال يروق لي مثل هذا الكلام.

- تلك هي الحقيقة، ها أنذا كما ترين؛ أ..إنكِ هي..؟ أم إنكِ شبيهه لحد اللعنة؟ تلك التي ألقّت بصنّارة حظها في طريقي ذات خلوة خيالية.

- كلنا نسخ مكررة - تقدمت بضع خطوات منك - لا تنتظر

إلى الأشياء من خلال أطرها الخارجية، دع بصيرتك تنفذ إلى جواهرها! هناك تكمن أقيامها الدنيوية ودرجات لذاتها أو تعاساتها، ولا تنتظر بمزاجك إلى ما ترغب! فالمزاج البشري زئبق متحرك لا يعول عليه!

- خبّرني..؟ من أنت بحق هذا الجمال المكهرب بالفسفور؟  
- يروقني وصفك! يبدو أنك بدأت تشعر بجماليات الأشياء الغامضة، للحقيقة؛ لا أعرف من أنا؟ ومن أكون؟ ومن سأكون؟ أنا كائنة حائرة، كانت تضج بأحلام كبيرة، فجأة وجدت نفسها تركب مركب المسرات، ومن غير تدخل أو رغبة منها، حطّت في محطة يائسة، هي محطتك، وربما كنت لحظة أحلم تحلم معي، وربما حلمك وحلمي قد ألتقيا وقررا أن يواصل الكفاح حتى تحقيق غايتيهما الموحدة العظمى لإعادة هيكله وطن بعدما تهدم انهزم.

- حقاً .. - سحبت شهيقاً وشعرت بانتعاش يتوغل إلى عروك وروحك - كنت أحلم، تلك هي الحقيقة، أحلامي كبيرة، تنتشر في فضاء البلدة وتغرب باتجاه فضاء العالم، إنها سرعان ما ترتد مذعورة، لكن في هذه الليلة، لم تكن كما كانت ستكون في كل الليالي المتخذقة من حولي، وجدتها تخترق فضاءات ملغومة بكهرباء الأجنبي وأسلحة الفئات المحاربة، تخترق غابات القمامات التي تهبط على الرؤوس منزوعة الشعر وتمضي عبر سيطرات شباب السلب والنهب والحرق والتجاوزات الأخلاقية، في بيوت محتترقة ومنازل هُدمت أو حُرقت بعدما سُرقت، شجاعة أحلامي هذه الليلة عادت

في مركبة لا توصف وموقف محسود.

- ليت مركبة أحلامي تتعطل - ندهت بجرس شهواني -  
لأمضي بقية رحلتي معك رفيقة سفر عبر مركبتك إلى أي مكان  
ترغب أو تقترح!  
- لكنني..!

- أعرف! كنت مرتبطاً برباط هش - توقفت لحظة، هزّت رأسها  
قبل أن تواصل - رباط تمزق، لكنك ما زلت تحتضر في حضرة  
الفناء والرماد، ما زلت تسكن الخرائب والظلام من أجل استعادة  
طريدة ترجلت من عربة حياتك، ليس ذلك لأنك تعيس الحظ، ليس  
ذلك لأنك ضعيف الإرادة، ليس ذلك لأنك لا تجيد قيادة مركبة العمر  
عبر محطاتها المتعرجة، إنك مللم حكايات أو مخترعها، وأنت  
تصلح أن تكون قائداً، طالما تتمترس في ظل حقائق ستدفن، وتأريخ  
سينحرف أو يُحرّف ومستقبل مصنوع من خزف مخادع، إنك تمتلك  
صولجان قيادة الرغبات بشكل لائق وجاذب ومحسود، دع عنك ثوبك  
البالي وتهيأ بكل ما تملك من بقايا حياة وإرادة لتلبس ثوبك الجديد.  
- على ما يبدو بل يبدو، أنك خبيرة بما في نفسي أو ما في  
حياتي الخاصة.

- لدي ما يُذهلك - توقفت ونثرت شعرها بحركة إيمائية بلغت  
قمّة الأغواء - تلك هي خصال العاشقات النبيلات، حاملات  
الأحلام وموجدات المسرات ولو في منتصف الجحيم، مختصر  
كلامي لدي ما سيدهشك.

- تلك هي مصيبتني، ها أنا من بعد صبرٍ مديد أسقطت نفسي  
في طوفان، وليت هذا الطوفان يأخذني معه إلى ما في نفسي من  
لواعج تعتمل وبراكين أحلام تثور.

- الحكايات سترميك خارج الحياة.

- فن الحكيم هو فن الحياة!

- لنبتعد عن هذا؟ لنعش فيما نحن فيه؟ لا أملك تفسيراً آنيّاً  
يقنعك؟ كل ما أعرفه، أنا مأمورة وحياتي عربية تحت قيادة غيبية  
قاهرة، ورغباتي بضاعة لست مالكة لها، كانت لي أحلام بعثها  
ذات أنس، وأعطيت ما أملك مقابل عمل يشعرني أنني ما زلت قيد  
الآمال الكبيرة.

- حيرتي تفرض عليّ قناعة بأن ملامحك غريبة! - توقفت؛  
كأنك بصدد مراجعة كلامك، ولم تجد ما هو مناسب لتبديل كلامك  
- روجي تشعر بكهرباء مستوردة، أنت لا تشبهين ملامح أناس  
بلدتي، كل ملامح بلدتي تعيسة، رغم أن قلوب العالم متشابهة،  
لها نفس النبضات، تتوقع طويلاً للحزن، وتنبسط ومضاً ومضاً  
للانبساطات العابرة.

- لا يشكل هذا عائفاً أو تشتتاً للواقعة، مجبولة أن أوصل  
رحلتي إلى مكانٍ ما، وما زلت أجهل وجهتي، محطتك العابرة،  
أقولها بصراحة، وأرجو أن لا يشكل لديك هذا السر الذي أبوحه  
لك همّاً! ثمة أشياء ما تزال تنادينني، قلت لك؛ لا أعرف من أكون،  
كائنة مُسيرة، وهناك أشياء جوهرية أشعر بها، أنها تجتذبني، وليس

بوسعي المخاطرة والتمرد، موجز الكلام؛ أنا لست مثلك، إنَّ أمري ليس رهن عقلي، إنه رهن عقل ما، أشعر به ولكنني أجهل موقعه. - لا.. لن أدعك أن تغادرين، بوسعي أن أبدل حياتي، بوسعي أن أمزق رباطي المتهرئ مع الحلم، بوسعي أن أسافر معك إلى أقاليم الجحيم لو طلبت مني ذلك، طالما حلمك وحلمي مشتركان، طالما لدينا نفس الرغبة تجاه المحن ووو..آآه..تجاااااااه وطن تشرذم أمام مرور ريح واهنة.

- أنت لديك ما يُسمرك في تعاستك، وما يمنحك برهة سرور، مقابل بركان تعاسات، أنا لا أعرف ما هي خطوتي المقبلة؟ الليل مسرحي والنهار موتي، أنت غارق في حلم طال على العالم كثيراً، أنا حلمي خارج نطاق هذا العالم، هناك من يمسك بمقودي ويمررني في عالم الشهوات، بي يعيش وبي يحقق أحلامه، أبقى أسيرة من واقع لواقع، في المحطات التي أترجل فيها أشعر بكيونوتي، ولكن للحظات فقط، أستعيد فيها بعض حرّيتي قبل أن أنوب في لجة قائدي الذي أجهله وأطيع أوامره.

- لم تعد لي مسرات - بدوت أكثر هدوءاً وتمسكاً لإرادتك بعدما تحررت من المفاجأة - ربما جانبتي الحقيقة، أخرج مثلما تقولين في الليل، فقط في الليل أمتلك حرّيتي، في النهار أعيش في سجن إجباري، واقع مفروض علي، فقط في الليل، ظرفي لا يسمح بأكثر من هذا، أتحرر لأمارس حياتي كما أرغب، كنت غارقاً في التعاسة، كنت أشعر بكوابيس تدهمني كلما انعزلت في غربتي، حتى



القلم لم يعد يرق لأناملي، قبل أن أجدك قوة عامرة بالحياة جاءت في اللحظة الحاسمة، ليس بوسعي أن أعيش دقيقة لو بددت هذا اللحم المشتبك بحلمك، دعي أحلامنا معاً تمضي لإعادة إعمار خراب هذا العالم! يقولون عنه عالم متهستر، وأنا أقترح أنه عالم مستهتر. - هذا هو سر مجيئي إليك! - توقفت للحظة وسحبت شهيقاً عميقاً وزفرته - كان يجب أن أسعفك في اللحظة الحاسمة، طبعاً يجب أن تضع في ذهنك المشوش.. آآآه، في بالك المتعب.. أوووووه، في نفسك الجريحة.. هاهاهاها، إنني خاضعة لقوة حاسمة، هي تُسيرني، هي من تختار محطاتي، لذلك أكون في قلب المحن العظيمة أوان نضوج نيرانها.

- إن ما يشغلني سؤال بسيط - توقفت وأطرقت برأسك إلى الأرض كأنك شعرت بإيعاز وافد إليك من عقلك، ولم تمضِ طويلاً واصلت كلامك - هل أنتِ هي؟ أم إنكِ شبيهه جاء يرضي سرائري؟ لكم وددت أن أسمع همساً من شففتيك، ولكم رغبت أن تسقط عيني على عينيك، أم إنكِ روح أرواح الناس التي اجتمعت في محاولة جديدة أن تقنعني لترك خراب بلدتي.

- دعنا من هذه المصارحات الفاترة. علينا أن ننجز ما اجتمعنا من أجله، لا تلتقي الأحلام العظيمة ما لم تُبرم اتفاقات كونية فوق كل احتمال، وإنها من المعجزات التي قد تنتهي الحياة ولم يحصل الاتفاق عليها، أعني التقاء الأحلام الخالقة لإنجاز أعمال إعجازية لا تطرق أذهان الباحثين عنها.

- لا أفهمك؟ - توقفت لحظة أدارت رأسها كأنها متبوعة بشخصٍ ما، وحين تأكدت من الظلام خلفها عادت لتغرز عينيها فيك - هل حقاً بيننا ثمة وعد؟ أكاد أجزم أن عقلي لم يعد يمتلك صيرورته، كنت أراك من خلاف، هذا إن كنت أنتِ كما أظن، تلك التي في بالي الآن، حقيقة يجب عدم نكرانها، ليس من المستحسن أن نهرب من الحقائق العيانية، كنت أخاف أن أنظر إليك من قُبُلٍ، لا أعرف أ.. بسبب حيائي الزائد؟ أم لتصوري غير السديد، أن نظرة واحدة لك أو لغيرك، تخرجني من حديقة المثالية لتسقطني في حوض الخيانة الأخلاقية، وهذا بطبيعة الحال ما لا أرضاه لشخصي، كنت أسمع من أصدقاء أنهم يعيشون ذات الهم، وكانوا كما قالوا لي؛ أنهم يرونك من دُبُرِ كائنة متعبة من الرغبة أو لنقل عطشى لعسل المودة ولذعات التحنان.

- سنتحدث عن هذه الأمور فيما بعد، ربما سنمتلك الوقت المناسب والكافي لذلك، لدينا ساعات قلائل فقط، إنها تكفيننا كي نبني عمارة من الكلام المنمق الفاره الحالم المنفلت.

*[من عينيها ألقى توهج، من ثغرها ضوء انسكب، جسد أبيض ليس كجسد نساء البلدة، دار ذهني عبر إمكانات التأويل؛ ربما هي من الوافدات، نساء الهجرة أو نازحات الألم والجوع، تلك النسوة اللاتي أتين مع زوبعات التقتيل والتشريد، وتناثرن عبر الأزقة والشوارع لتجميع*

أقوات أطفالهن، حتماً هي واحدة منهن، غلبني الظن، وجدت لنفسها  
فرصتها العابرة كندٍ عاطفي، غزتني مناشير أنوار فسفورية، انبعثت  
رغم عتمة البلدة، لا تتبدد، انطلقت من أعماق نيونية واندفعت بشكل  
متواصل، اخترقتني، شعرت بحرارتها، بلذتها، حسستني بصحوة غريبة،  
سلختني من كينونتي ومدّتي بقوة، بطاقة، بسحر، بسعادة عارمة،  
بجلم جديد، أمسكتني وسحبّني، مثل طفل حققوا رغبته ومثل عروس  
أعطوها لفارس أحلامها بعد صراع مرير، مضيت برفقتها، لم أنتبه  
كيف لبست أسماها، ولم أنتبه أيضاً كيف تغيرت ألوان أسماها، شاغل  
ذهني كان أكبر من الأشياء المحسوسة، هبطنا سلالم البيت، توقفت  
أمام باب غرفة النوم، ومن وراء كتفيها رأيت شبح كوالاة وهي غارقة  
في شخيرها العذب، شخيرها كلمات واضحة ومفهومة، إنها لعنات  
متواصلة مشفرة، كلّها تتجه صوب تعاسة حظها، الطفلتان غارقتان في  
نومٍ غير قانع، ترتميان بلا مركزية من حولها، منفلتتان من أسرّتهن،  
أقدامهن منفتحة بحرية تامة، وأيديهن تتوزع كأنها أجنحة طيور واقفة  
في الهواء لحظات التسكين..]

لم يحدوك سؤال أو شعور مستفز، غرفة غارقة بالضوء، ضوء  
فسفوري يتبدل ما بين الأحمر الشفاف وبين الأصفر الموشح تارة  
بالزرقة وطوراً بالأخضر.

استدارت وهمست:

- أبهذه البهيمة ارتضيت شريكة حياة؟

كابوس أم حلم أم حقيقة؟ إنهن متن ودفنتهن في ذات يومين لا يريدان أن يتقدما، شاطرناك الدفن يوم سار خلفنا نصف شباب أهل البلدة ورجالها، ويوم مقتل **كولالة** لم أكن متواجداً وكنت في كل لحظة أنفحص الوجوه الهاربة بحثاً عنكما، وحين وصلني الخبر، آه.. لو تعلم يا صاحبي كم من الهموم هطلت علي، وكم من الساعات بقيت سارحاً وأنا أسترجع أيامنا وخلواتنا بعينين تحولتا إلى جدولٍ دموع.

- ما.. لك لا تتكلم؟ لا بد أنها فرضت عليك الحوار كي تخرجك

من قوقعة الحيرة.

- كانت طيبة القلب - حتماً بحت بلازمتك الأثيرة - متسامحة،

أغرقتني بإخلاصها وحبها رغم عنفها لحظات النهار.

- أما تسمعها؟ - صممت تاركة لك فرصة الاصغاء - إنها تلعنك

وتلعن حظها، وربما كنت بديلاً تعيساً عن حلمٍ آخر كان يسكنها.

فركت عينيك، تريد أن تتأكد من حلمك أو من كابوسك، لم تكن

**كولالة** كما قالت، عشت معها تجربة حياة تكلفت بالعاطفة، لا بد أنك

فكرت في تلك السانحة، أنك تعيش في لجة كابوس، وأن ما تسمعه

لسان حال شيطان الظن.

- ما.. لك ساكت؟

- أجهل لغة النساء، أ.. هنّ فرحات أم تعيسات؟ أنتِ أنثى،

تفهمين بنات جنسك أكثر مما أفهمهن أنا، كنت دائماً أشعر أن شخيرها قصائد حب تتغنى بي.

- هيء هيء هيء.. - قهقهات متقطعة مصطنعة بدرت منها - قصائد؟ ليكن في علمك، أن شخير النساء لعنات واضحة لا تحتاج إلى قواميس ولا مفسري شخير، كي تفك شفراتها المفهومة، لكننا نلعن أنصافنا شخيراً، لأن اللعن علناً حقيقة سيخرب بيوتنا. أمسكتك وأخرجتك إلى العالم.

- إلى أين؟

- أزح من بالك الخوف؟ سنسلك طرقاً غير متعسكرة.  
- يبدو أنك تعرفين أحشاء البلدة، أو أنك.. يؤلمني أن أقول.. أنت معهم.

- على ما يبدو - حسناً كما ترغب أن تقول - بل يبدو، أنك سريع النسيان، أو إن ذاكرتك تبددت من جراء فقدانها؟ أو إنك ما زلت تلملم حوادث ماضيك وحاضرِك من خارج فرن الحقيقة، بعدما فقدت كل سبل الحياة بعزلتك.

- تلك هي حقيقة لآبد منها، البلدة تخضع لحظر التجوال، المحاربون حرّموا كل شيء من الحركة، ومن حقهم أن يخافوا، خشية طائرات بلا طيار، تباغت من غير توقيات مبرمجة، ترصد تنفيسات البلدة، إنها حالة مروّعة بدأت مع رحيل أهل البلدة، ومع مجيء المحاربين بدأت البلدة توسع من مقبرتها، بل تم تخصيص مساحات جديدة لمقابر بلا شواهد تستوعب جثث القتلى يوماً إثر يوم.

- قتلى؟
- كل ليلة تقام حفلات للسليخ والذبيح والحرق.
- أنت تتكلم عن أشياء من وحي خيالك.
- ليس هذا الكلام من بنات أفكاري أو شطحة خيال، لقد رأيتهم أشباحاً يساقون وسمعت صرخاتهم أوان تسليخ جلودهم وشممت رائحة الجيف بعدما نفقوا.
- يبدو أنك دخلت منطقة الهلوسة، أما تعلم أن البلدة خالية من أناسها.
- معك أتفق، ربما اصطيدات يأتون بهم من أمكنة أخرى، من بلدات سقطت، وربما اهدتوا إلى استراتيجية عقابية غايتها التلاعب بعقول الأمم المتخالفة حولهم.
- ربما الآن أنت على حق، لم أفكر بهذا، ممكن، ولما لا؟ وكل شيء وارد، فالحرب مكر وأكاذيب، مكاسب وغايات.
- حسناً.. قد يصطادوننا ويحتفلون بنا.
- لا يعني هذا، اترك هذا الأمر جانبا! أنا لست أملك زمام أمري، ثم إنك نسيت ما قلته لك، ألم أقل إنني كائنة مُسيِّرة، جئت لأنقذك من أفكارك السقيمة، عليك أن تستثمر تواجدي معك، أم إنك نسيت صمودك الخرافي من أجل حلمك الكبير.
- حسناً.. سأتذكر هذا! نعم كدت أن أركن إلى الكسل، بعدما تعذر عليّ وحتى هذه اللحظة من لملمة حوادث بلدي أو لنقل بكلمة أدق حكاياتها التي لن تنتهي.

- لا ترتبك؟ إن من يقودني كي أقودك، يوفر لي مسارات آمنة من كل بندقية وعدسة طيار ومنظار محارب متربص.

- حسناً.. ما هي خطوتك التالية؟

- ليس من حقك أن تسأل - صاحت بنبرة شبه غاضبة أو أمره - ها أنت تعلن أنك فاقد الذاكرة، لست غيباً طبعاً، لو كنت غفلاً لما اختاروك لي محطة أولى لتحقيق المطلب العام لجماعة اللحم، وأنت تعتبرها بكل بساطة لملمة لحكايات.

- حسناً.. إن سألتك عن مطلب آخر، بوسعك أن تلقيني إلى قارعة الطرقات أو تتركيني فريسة لجوقة المحاربين، ربما هناك في المعتقل بوسعي أن أركز أكثر وأستعيد حوادث أيامي بجلاء تام من الوسواس والظنون.

- لا.. - صاحت - ليست من الخصال الحميدة ترك الحائرين وسط مستنقعات الحيرة، جئت لأنهضك من غفوتك، جئت لأعيد لك الاعتبار الإنساني، أنت قائد مؤهل لقيادة سفينة السلام المأمول للبشرية المعذبة بفوضى الرغبات وتلاطم الأحلام الكسولة، تذكر هذا؟ لأنك وسط البراكين لا تتنازل عن رغبتك في تحقيق أنبل أحلامك، وهذا هو الكائن المطلوب لتغذية المسرات بعدما جفت منابعها.

*أصرنا في الليل، ممرات نخترقها لا نحتاج إلى إنارة، ضوءها  
فيصل يسير أمامي، يشق العتمة كما لو كنت أمشي بكشاف، تضغط*

على كفي، تمدني بحرارة تستفز أغواري، تلهث وهي تمضي بسلام  
وهدوء، كأنها ملكة في لحظة عزف السلام الملكي وهي تفتتح مهرجاناً  
أو تحتفل بمرور عام آخر لعيد المملكة، أحاول أن أوقفها، أن أرتوي  
بشيء من رضاها المكهرب بالفسفور، بحرارتها الفائقة وهي تحترق  
لتحرق استفزازات دمي الضاح برغبات فحولتي، توقفت وسط ممر ضيق  
يشرف على وادي البلدة.. قالت:

- أعرف أنك جائع!

صرنا لصقاً، وذبنا برهة، ربت على وجهي بأنامل ودودة تشع  
ضوءاً، كنت غارقاً في موجٍ رخي مؤرق، وصوت شجي يضح في  
روحي، وهمساتها ظلت تهددني وتنعسني قبل أن تسقطني في بئر  
الحكاية، فجأة رأيت شبح ضوء يمشي على الشارع العام، ضوء شيخ  
هرم، كان غاضباً على ما يبدو، وجدت شرر الضوء تتناثر من لهائه،  
إنتهت زائرة ليلي لذهولي، ولحظة رمت نظراتها حيث رميت، وضعت  
كفها على فمي وكتمت صرخة كادت أن تنطلق.. [

- لا يجب أن نهدر وقتنا من أجل سفاهاة العمر، سعادتنا  
المنشودة أبدية، عندما تحقق حلمك الأثير سنتوقف كامل عذاباتك.

- من هو؟

- نجل صانع الخيم!



- لا يوجد في بلدتنا من يصنع الخيام، لدينا من يخيظ أكفان الموتى وخيام العزاء.

- ههههه.. كيف بك أن تدعي أنك تمتهن مهنة الأدب، وكيف بك تجهل نجل الخيام، ذلك الفارسي الألمعي!

- أياك تقصدين عمر ٢؟

- بل هو، ذلك ما قصدت.

- وما الذي أتى به إلى بلدة بلا حياة؟

- لا بد أنه جاء لإنجاز مهمة عظيمة، لا بد أن خلاً ما قد حصل وجاء لتصحيح الأمور.

لم تحر جواباً.. ومضيتما معاً .

لا أحد يتحرك، البيوت غارقة في شخيرها الأبدي، والليل يرصدكما بكواكب متحركة، وأخرى راسخة، تبعث أضواء تكاد تندحر في فضاء ملغوم ببقع غيوم وغبار ممزوج بدخان يتسامق من بيوت لا تريد أن تخدم نيرانها، احتجاجاً على ما جرى وما زال يجري من صمت ونفاق وخنوع أممي شامل.

- انسف ما فيك من أطماع حيوانية، وتهياً لحلمك الكبير.

- ليس الأمر بيدي، عندما يفيض الماء ينهار السد، ما زلت

أبحث عن مطرٍ عنيف كي يزداد المخزون ويفيض حلمي.

- بدأت تتكلم كما أرغب - صارت هادئة مرحة - أنت

الآن أكثر استعداداً لقيادة حفلات الأحلام النادرة، أو كما تسميها؛ الحكايات العجائبية، لم تتعبين كما قيل لي، قالوا إنك

مؤهل لاقتحام غابات الحقائق، قالوا إنك غير مُكلف المحاولات، تستجيب لصهيل خيالك، تفهم الأمور الخارقة كما يجب أن تكون، ولا يملك هذه الخصال النادرة إلا كائن حالم نادر التواجد مسكون بالحكايات، وها أنت ذا المنفلت من القاعدة، لنقل الشاذ أو الكائن المتسامي المأمول لمواصلة جريان الماء في بحر الحياة، وأنت تسميها؛ بحر الحكايات!

- طالما وصلت إلى شيء من كينونتي، سأسرد لك شيئاً من شؤوني الخاصة، منذ صغري وجدت طبيعتي ثورية، أعشق اللحظات العابرة، تلك العامرة بالرغبات فوق العادة، لذلك تعطلت عربة الحلم وظلّ فكري يشتغل بحثاً عن منفذٍ مقنع وآمن لسلوك سبيله.

- كل شيء في أوانه، فعندما تسير سفينة الحلم العام من غير مضادات، عندها يمكنك أن تغرق أبداً في عسل الروح، وتُسكب همومك بسحرٍ مستفيض، ستجد نفسك في قارب أمنياتك، يمضي بك إلى حيث نثرت صبيانيات، نسيمها أحلاماً أو أمانياً أو رغبات سوبرمانية.

*لوصلنا عمق وادي البلدة، استطلعنا بعيون متوجسة، وأنفاس مكتومة، كان شارع الوادي الرئيس هادئاً، والمصاييح نائمة، لم تعد تمتلك بقايا طاقة خلوية كي تنير المنطقة بعدما بتروا شرايينها، وحطم*



سؤال يلح، عليك أن تهتدي للجواب! أن تشغل ذهنك بفرضيات وتأويلات وتخمينات تصب في صلب الموضوع. شارع نظيف من البشر، ومنازل غاطسة في ظلام إجباري، لا بد وأن جاء الجواب سريعاً، ما أن سحبتك ودحرجتك معها لتهبط الوادي، وتخرقا ركام رماد قامات القصب والبردي التي احترقت في ليلة تصادمت فيها الأسلحة، وسهر الناس في منزويات داخل المنازل، آمنة من جحيم الرصاص المتناثر، ومضيت برفقتها صوب شارع البلدة العام وهي تجررك:

- يجب أن ننتظر حتى نتخلص من لهائنا ونعيد التنظيم لدقات قلبينا.

التصق ثغرها بوجنتك، وأرسل الليل صوت القبلة إلى أغوار الوادي. دعني أضع هنا تواجد قبلة استثنائية، طبعاً هي ليست من طبيعتك، بل لأبد للحكاية أن تمتلك بعض الشطحات الناردة، والقبلات أشبه بتزويد القارئ بالوقود كي يواصل رحلته، مثلما تحتاج المركبة إلى فترة راحة والتزود بالوقود، كي تصل إلى مبتغى راكبيها، القبلة أكثر الغايات العاطفية المأمولة في متن الحكايات عند متلقيها، تجعله مشاركاً أو متخيلاً لممارستها.

- إن ما أبهرني هو الحظ الذي حالفني لحظة سقطت في محطتك، أنت نبيه وثورى ولا أكتمك أنك ستستلم القيادة المركزية لسفينة الحلم العام للبلدة سريعاً، ذلك هو المطلب، وأما ما يخص حلمك، فهو شأن شخصي يخصك، وليس بذى تأثير على الغاية الكبرى بالنسبة لي أو لهم، أصحاب تيسير مركبات العالمين.

- قريباً سأجد جواب هذا الحلم الذي تتاضلين من أجله، بعدما يصفو ذهني وأتخلص من عبء حلمي، وأكون جاهزاً لاستيعاب غوامض الأمور.

- أنا على يقين أنك ستفتح في الكشف عن ملابسات الحلم العام، وموقنة أنك ستوسع من فضاءه التتويري، ففي مملكة خيالك متاهات تضج بالأحلام، ولديك ماضٍ محسود بالحكي.

قلت لنفسك: ” يجب أن أحترس، كل كلام قبل قوله يجب أن أمره بفلتر عقلي وأغربله “

قلت لنفسك: ” قد لا تحتل هذه الكائنة الفسفورية المزيد من متاعب لساني “

قلت لنفسك: ” كلامي يجب أن يخرج من فضاء السؤال، قد أسقط في امتحاني

الأخير، وترميني في عتمة الحياة وكواليسها، عندها سيتعذر عليّ رؤية حلمي الوحيد“

لا بد انها اصطادات حيرتك، وربما شرودك، فبادرت بالكلام:

- لا تشغل ذهنك بتوافه الأشياء! وفر كلامك لمرحلتك الحاسمة! عندما تكون القائد العام لهذه البلدة، عندها بوسعك تتويرها بأفكارك الراديكالية، بعدما يزهر حلمك ويسود.

- كما تبغين، سأنظف نفسي من وساوسها الشيطانية، سأغسلها بمياه الرحمن.



أمدت يدها وفتحت باباً من غير صرير، كان السؤال يضغط،  
وكنت ألوك الجواب، دخلت ولم أدخل وراءها، وجدت في يميني نافذة  
مضيئة، دعنتي الغرابية أو بالأحرى شعرت بشيء جاذب، حزمة نور  
سحبتني وأوقفنتني أمام نافذة متهالكة، ألقيت نظرة، وجدت كاتب البلدة  
وباحثها، ذلك الكائن العجيب، جلال زنكبادي ٣ منكباً على طاولته،  
وسط فوضى الكتب والمصادر المتراكمة من حوله، تحت ضوء فانوس  
متذبذب منهماً يكتب، انتبهت، وجدت أمامه شيخاً يبدو أنه من  
العصور التليدة، لحيته طويلة تكاد أن تلمس الأرض، بعينين غائرتين،  
كان يملئ على كاتب البلدة، وكنيت أرى كلمات ضوئية تنطلق من لسانه  
وتتجه نحو أذني الكاتب وتنسال كما الماء في أنبوب زجاجي إلى  
أصابعه لتنسكب كلمات على الورق عبر قلمه، في تلك اللحظة تذكرت  
عزلة الكتاب وهو مليء بالأصرار والتحدي لإزاحة الغبار عن رباعيات  
الخيام، وعرفت لحظتها أن زائر، شاعر زمنه عمر الخيام ٤. نقرت  
النافذة بأنامل مرتبكة، قبل أن أراجع لحظة تذكرت أن كاتب البلدة فاقد  
السمع، جراء قذيفة عائلية سقطت قربه في حرب الأخوة ٥ الشهيرة.  
ما زلت أتذكر مقولته الشهيرة، يوم طلب منه دكتور أجنبي في  
السليمانية مبلغاً خيالياً من المال للفحص وتشخيص حالته فقط، قبل

أن يقرر كلفة العلاج، قال له جلال:

” نحن في زمنٍ لا يستحق المرء أن يصغي لهذرات السياسة ونفاق العالم من حوله “

” يبدو أنك كائن مدهش يتعذر العثور على أمثاله في يومنا هذا“  
” بل كائن عادي، وعادي جداً، نزف حياته ودمه من أجل أن يعتاش الكثيرين من مطايا الثقافة ودعاسيقها وأبو جعلها على أفكاره وآراءه “  
” يبدو لي أنك فيلسوف ؟ “

” عندما تنفر من الطارئ على الثقافة من حولك، أولئك الذين يبدوون كالذباب حول العسل أو فوق المزابل، يمكنك لحظتنا أن تهتدي لفلسفة الحياة، وتجد فسحة عزلة آمنة تمنحك فرصة العيش بأمان وسلام “  
” عجيب أمرك استاذ! عالج حالتك؟ عسى ولعل أن يكتشف هذا العالم المسعور من حولك، فرصة إصغاء لحقائق الحياة، ووالإهداء إلى منافذ السعادة التي فقدوها جراء الجهل! “

” العالم من حولي لا يجب الإصغاء للحكم وما ينفعه، عالمنا عبيد الزيف والنفاق والخداع، حيثما يرفع شخص ما سلاحاً تلهث قطعان ناذرين أنفسهم للذود عن حياته الحيوانية“

فجأة؛ يد قطعت سلسلة خواتري، وجدت زائرتي تجرني وتدخلني مسكنها، سرعان ما تبدد ظني، وجدتها تستدير وتعطيني قفاها، ولم يعد



الضوء يخرج منها، شبح قاتم وغرفة مظلمة، بعد دقائق استدارت، كدت أن أصرخ، وجدت نفسي إزاء كوالاة، نعم كوالاة، هي بلحمها وشحمها، بصفاء عينيها، بوجهها المدور، وبثغرها الدقيق الصغير، وضعت كَفَّها على فمي وخنقت صرخة كادت أن تندلق وتخرج معها روحي، قبرت فَيَّ سؤال الهلع والمفاجأة، بعدما انطفأت من على وجهي نار الحيرة، سحبت كَفَّها برفق، وكان ما زال فمي فاغراً، وعيناي متحجرتان، وقلبي ينبض خارج المؤلف وكانت نبضاته كقرع طبول.. [1]

- عليك أن تطيع! أذكرك من أي سؤال! لئلا تفقد مستقبلك الباهر وحلمك الأخير!  
سحبت كَفَّها وأمرتك بالسكوت، سارت ببطء ومشيت وراءها، في غرفة منارة بفانوس يرسل ضوءاً متذبذباً، كان سريراً منفرداً يرقد عليه جسد غاطس في تعرق وشخير، تقدمت وارتمت عليه، نهض الجسد، بدا عليه أنه لم يفقد صوابه، خال نفسه في حلم أو كابوس رحيم، أغمضت عينيك:  
” ما الذي يجري؟ “

سؤال ممنوع طرحه، يد مباغثة أعادتك للحقيقة، كانت تبتسم:  
- هذا درسك الأول، أغمضت عينيك، حسناً؛ دائماً مفتتحات الأشياء العظيمة قاسية على الرؤية لكن احترس في درسك القادم!  
أيّاك أن تضيّع تراتبية خطواتك؟ فكل درس خطوة نحو الحلم العام،

ونحو حلمك النادر أيضاً.

طبعت قبلة على فمك، وجدتك بارداً تتمعن التحديق فيها.  
يتوجب عليّ أن أضع هنا مشهداً عن قبلة تتطبع على  
خدك، أجدها مناسبة ولا بأس من يريد - بناء على طبيعتك -  
أن يحذفها أو يجتاها، دون التفكير بطعمها وحرارتها وسببها،  
لكن اسمح لي أن أعيش اللحظة كما تفرض الحكاية، قبلة  
دافئة تتطبع على خدك.

عادت وتقدمت نحو الجسد الساقط، بركت ووضعت فمها في  
فمه، راحت تمص أو تدفع شيئاً لا يجب طرحه، قبل أن يهدم الجسد  
المضرج بدمه، وفي تلك اللحظة رأيتها تمسح سكيناً، تقدمت منك،  
مأخوذاً منفِعلاً كنت، تلاعب لسانك:

” من أين أنت بالسكين ؟ “ . سؤال مرفوض أسرته في  
نفسك، وطحنته بأسنانك.

أمسكتك وقادتك نحو الخارج، ولحظة خرجتما، سمعت قفل  
الباب ينغلق من الداخل:

- لا تشغل ذهنك بشوائب الحياة! العمر قدر وأنت تسميها حكايات،  
فالحالم الأخير هو من يعيد تنظيم الأمور، عليك أن تستوعب الدرس!  
وأن تفكر قبل أن تبادر بأية خطوة ستخطوها! العمر حفنة أقدار! تذكر  
هذا؟ حفنة حكايات كما تنتظر إليها، تذكر هذا؟

نظرت إليها، كانت مترعة بالفسفور، حرّكت رأسك، واحتجبت  
أغوارك، توقفت:

- أمروني أن أتركك!

صامت لا تتكلم، ماذا حصل؟ سؤال يحتج، ممنوع طرحه:

- حين تتخلص من أورامك التي لا تريد أن تتقدم، بوسعك أن تبدأ بتحقيق حلمك.

- حلمي؟

- هذه أول فتاة رمتك بوردة وسروال، ما تزال تسكنك، جئت لأكنسك من أوراها، كي تنظف وطنك من شوائب ماضيك الذي ما زال يتعلق براهن زمنك، من أجل غدك النظيف.

- يا ضلعي!..!

- لم أعد ضلعك، حين تحقق حلمك، عندها ممكن أن نلتئم من جديد!

*[ومثلما أشرقت انطفأت، بقيت وحدي نائباً في لجة كالحليب، في*

*ليل نتن خالٍ من النباح والمواء والنعيب والهواء النقي..]*

تعذر علي الذهاب إلى أربيل لألتقي زكابدي، وكنت على يقين أنه يمتلك الكثير من المعلومات الحيوية عنك، حسمت أمري؛ ليس بوسعي أن أضيف شيئاً على عجائبتك التي دونتها في الورقة أعلاه.

تجلس..

حلمك يتشظى، يكتسح فضاءات أيامك، وأنت تريد أن تعرف  
ما الذي حصل وسيحصل؟ كابوس عابر أم حقيقة ماثلة؟ مذاقك ما  
زال يحتفظ بطعمها، أنفك برائحتها، وجسدك بحرارتها؟  
ها أنت تجلس تحت شجرة المشمش. ما زال الليل لا يريد أن  
ينجلي من عتمته.

وروائح المنازل بدأت تغرد ألقانها.

تفكيرك العميق يخلخل بدنك، ويمنحك فرصاً للذوبان، ينعشك  
وينهضك ليقبلك في سريرك. في سريرك وسط هذه العتمة والصمت،  
تغزوك لتسكنك أوراكن القديمة!  
تندمج معها.. تذوب فيها.. ومعها تورق حكاياتك.

## هوامش :

١ ، ٢ : نجل صانع الخيمّ : المقصود عمر الخيام.

٣ : جلال زنكبادي: أحد أعلام الثقافة الكردية، من مواليد زنكباد جولاء ١٩٥١، شاعر وباحث ومترجم من خمس لغات عالمية، ألف عشرات المؤلفات في مختلف المجالات الأدبية، وكان عوناً وكشافاً لكل الباحثين والدارسين والمترجمين، وببته ما زال في مدينة أربيل، مزاراً للتزود بالثقافة والمصادر والمعاجم النادرة، لطلاب العلم والبحث والأدب، عرف عنه؛ أديب عصامي، يتجنب المظاهر والزيف والحضور إلى الملتقيات الأدبية، لا يهادن ولا يجامل من قول الحقائق في مواضعها. إضافة دواوينه الشعرية باللهجتين الكردية والعربية، فهو مترجم محنك، من اللهجات الكردية الخمس والفارسية والإسبانية والإنكليزية والأذرية والأوردية والتركية إضافة إلى العربية، ومن أشهر أعماله البحثية، رباعيات الخيام، عمل ضخم أزاح فيه موجات الغبار التي راكمها أقلام عابثة أو عابرة على رباعياته النفيسة. وحظي بتكريم إستثنائي في إيران جزاء عمله المذهل.

٤ : عمر الخيام : هو غياث الدين أبو الفتوح عمر بن إبراهيم

الخيام، المعروف ب- عمر الخيام، كان والده كان يصنع الخيام.

عالم رياضيات، وفلك، ولغة، وفقه، وتاريخ، وشاعر، اشتهر برباعيته الشعرية. ولد ما بين ١٠٣٨ و ١٠٤٨ في نيسابور إيران ومات فيها ما بين ١١٢٤ و ١١٣١.

٥ : حرب الأخوة: الحرب الأهلية المسلحة التي حدثت بين الفصائل الكردية في شهر مايو ١٩٩٤ ودامت لثلاث سنوات، خلفت ما يربو على الـ ٣٠٠٠ صريع من الفصائل المتناحرة والمدنيين. يومها سقطت قذيفة قرب منزل الأديب جلال زنكبادي وهو منهمك بالكتابة وفقد جراحها سمعه بشكلٍ دائم يتعذر علاجه.

الأحد ١٤ أيلول ٢٠١٤

أبحث عن تفسير منطقي لما حدث، أفتش عن وهج ينير الجوانب الغامضة من فكري وينقيها من وشوشاتها المتناقمة، ليعيد - في أقل تقدير - بعض الانتعاش لبالي، شغلت محركات ذهني ونجحت - إلى حد ما - في توجيه محفزاتها لتعمل كما كانت قبل أن تلتبس بالظنون وزحف أشباح تغزو لمواساتي، رغم ضبابية وعيي وندرة الوضوح أوان التعاسة، أفلحت خوضاً في فوضى ماضٍ لا يريد أن يضمحل، يتسلط ويطيع، ركزت على حفر الغفلة والنسيان؛ قد أجد جوانب خفية مرت خارج سلطة الوعي، هذا ما طرأ لحظتها في ذهني، تلك الجوانب التي دستها الأيام في منزويات الذاكرة أوان انشغال الذهن بالروتينيات العابرة، ولا اعتبارات متباينة ما بين لا جدواها، وبين سلطة أشياء قاهرة تعذر على الذاكرة أوان مرورها بيانها، ها هي تلح وتطفو، ها هي الذاكرة وجدت الفراغات، ووجدت الفسحة الزمنية للتقيب عنها..]

”أ.. كان حلماً أم محض كابوس؟“. سأفترض هذا السؤال.

تتصارع فيك الظنون..

لكنك.. سريعاً تحسم أمرك، وتجزم من غير أن تسمح فرصة للتراجع أو التأويل.

تقر وفق قناعتك طبعاً، وهذا خيار مطروح أيضاً، إنها حقيقة محضة، ما زال عطرها يسكنك، وغالباً ما تكون مذاق الأحلام أطيب من الواقعيات مذاقاً، في اللحم عندما تعيش لحظة عاطفية، ستعيش معك متعتها، كون مذاقها يلتصق بلسان الذاكرة، ربما لأوقات قد تمتد وتمتد إلى ما تشاء، أنه أفترض مُجرب، وليس اعتباطاً أو من باب تغليب اللحم على الواقعية التي نعيشها لكننا نبددها أو نتحاشاها، لثرائتها أوان السرد، ربما لنفور أمزجتنا منها. لا بد.. أنك وكما عهدتك بقيت تستذكر وتعيد ما عشت، مذاق شهى يسيل لعابك ورائحة زكية لا تريد أن تتركك، تسكنك وتشعر بنفاذ عبقها مع كل شهيق إلى أغوارك، ما زال ومضها فسفوراً متوهجاً، كسيف قوس قزح ساطع في يوم شبه ماطر نصف مسمس، ما زال كما شعّ ومضها لحظة باغتك، يشعّ فيك حزماً ملونةً تتعاشق وتتفك كأفاعي أوان التزاوج، تجتاحك وتزيح كريات دم الملل والتعاس والرغبة في النسيان.

بعدما فقدت المسالك المؤدية إلى بيان حقيقة أو خيال ما جرى، من المفترض أن لسانك قد تحرك في محاولة متواضعة ليضع حداً لوجومك، يريد أن يخرجك من دوامة حيرتك، فهناك أشياء تنتظرك، وهناك حكايات عليك أن تلملمها وتحكيها ليوم غدك.



*[كل بلدة تُفرغ أناسها، تغدو مرتعاً آمناً للأشباح والشياطين..]*

ها أنت تقر شاعراً ومتأكداً، أن ورماً حيويًا قد زال من فكريك  
وكوابيسك رغم قدم حدوثه، لم تعد تتذكر بعد موقعة الزائرة الفسفورية  
صاحبة الوردة والسروال، لم يعد كابوسها كلما كنت تختلي أو تسرح  
في جولة تأمل يتسلط على مركبة ذهنك، صرت من بعدها - بعدما  
زارتك تلك التي ذوّبتك في حوض الحيرة والمطاوعة - في ليلة شك  
أو ظن، قلباً وفكراً، شعوراً ورغبة، خارج مدارها التذكاري.

تجلس..

شيء فيك يسري، وميض منعش، من أسفل قدميك يبدأ، يتوغل  
بتتمل، صاعداً وعبر الأوردة والشرابين والشعيرات الدموية، مروراً  
بصدرك، ناهضاً انتعاشة وعرشة راحة، وعند حدقتيك يتحول إلى  
ضوء بارق قبل أن يذبيك في نعش تحمله نسيمات آتية من جوفك  
الذي لا يريد أن يبلى، وجوفك ينبوع لا ينضب، أينما تجد نفسك في  
محنة وحيرة، يبدأ بإروائك، تشعر لحظتها بارتواءٍ وارتفاعٍ وطيرانٍ  
وذوبانٍ في أنوار وغبرة وغيوم وتشظٍ، وتلك هي حالاتك الأثيرة أوان  
اصطياد الحكايات.

*[عندما تسرد غيوم السماء مطرها على أديم الطبيعة الجرداء. تبدأ*

*غيوم العقل البشري بسرد الأفكار على جليد الورق. مطر السماء يُورق*

أزهراً وأعشاب الربيع، كما يورق العقل الكتب قناديل الحياة. قد تكون مقاربة واقعية، وتناصاً عجبياً، فكلما اشتد المطر، تحدى العقل وتسارع في الرد الساطع بالكلمات..

لم تخطأ؛ ما زلت تحتفظ بقوة ذهنك، بذاكرتك التي تحتفظ بالمشاهد، بتواريخها، أجزم، بناء على معرفتي بك، أنه قد مضى على كابوسك أو حلمك وقتٌ يكفي لفك طلاسمه. أشلاء البلدة ما تزال تتدهور، عفونة المنازل تتخثر أكثر فأكثر، وتتدلق لتستعمر كل موجة ريح عابرة، حرائق لا تريد أن تخدم، تمشي من بيت لبيت، من دكان لدكان.

تمشي.. صمت شامل نهاراً والليل ساكن وساكت، وفي بلدات أخر، حيثما تناثرت أقوام تفرقوا على العرق والطائفة والمذهبية، ما تزال عيون الكل صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، ترف وتدمع، قلوبهم ترتعش وألسنتهم تتوسل، تصلي وتدعو وتترقب، آذان الجميع تبحث وتطارد كل خبر وارد من هناك، من حيث تركنا طفولتنا وزرعنا بذور أحلامنا، هناك حيث صلنا وجلنا شعاب مراهقتنا، هناك حيث كانت الحياة لعبة جميلة، والناس تفرش بساطة قلوبها، وحولها كواسج تتأهب للانقضاض، هناك ما زال حلمنا الأخير، الحلم المشترك، محض سراب، في زمنٍ لم تعد أحلام العمر قابلة للنقاش والتقدير العقلية، لم يعد للجميع سوى محض حلم متواضع أن

يموتوا في البلدة، هذا ما نجتمع عليه، صعب جداً يا صاحبي أن نموت خارج مرابع طفولتنا، نعم سأنتقم معك؛ الموت لا وطن له، ما أقصده بكلامي، بحلمي، بحلمك، بحلم الجميع، أن ندفن في بلدتنا، ليس مهماً أن نموت خارجها، لكن علينا أن نوارى في فردوسها، هذا ما يجمعنا، حلمنا الأخير، حلمنا المشترك، أن نللم أشلاءنا في قبر من مقبرة البلدة.

قلت لي ذات يوم:

”الدفن في تراب المولد هو الوطن الخالد للمرء“

يمكنني أن أصف كلامك بالنبوءة إن جاز لي التوصيف، أو التوقع الحدسي لحاسّة اقتنصت المستقبل في لحظة تأمل، أو كان كلاماً عابراً هبط مصادفة، كنّا نتناقش حول أحد أصدقائنا، كان قادماً من الحرب، بعدما نجا من هجوم موسمي كبير، لكنه مات في الطريق بحادث سير، عجزت الحرب أن تسلب روحه، استعان الموت بمركبة في طريق مزدحم، وقلت أيضاً عن صديق آخر كان قد كتب وصيته، البعض يقول أنه قالها لحظة احتضاره:

”أمانة عليكم أن تدفنوني في مقبرة قريتي!“

رافقنا جثمانه إلى قريته خارج مضارب البلدة لنواريه الثرى هناك

حيث ولد.

قلت:

”من يموت ويدفن خارج مقبرة بلدته، كشخص يفقد أجمل

أمنيته وهو حي، الموت في أرض الطفولة غاية لا تدرك، والدفن

فيها هو الفردوس المفقود للبشريّة،

الموت يباغت أينما يتواجد المرء، ليس هذا كلاماً جديداً، لكن؛  
إعادته هنا ستمنح سير الحكاية انسيابية وعقلانيّة، كل امرئ، أينما  
يُقلّب آخر ورقة من تقويم بشريته، هناك يسلمّ روحه ليرقد بسلام.  
كُلّنا رغبتنا أن ندفن في مقبرة البلدة. موجز ما أردت قوله.

ما زال التعب الذي جفاك والأرق الذي باغتك يسكنك، لا بد أنك  
حاولت مراراً وأتبعتها تكراراً، أن تعيد حكاية فسفور بشري شقّ ظلمة  
ليك، قريبة الشبه أو كانت تشبه إلى حدّ ما كوالاة، كما صرّحت  
في ورقة من أوراقك، لم تجد اختلافاً في تصاميم الكائنيتين، التقاطيع  
نفسها، الطول، العينان، لهن نفس الصوت، وهذا افتراض حكائي،  
لا بد أن أزجك في معمعة الحيرة والجلوس طويلاً لتخوض متاهات  
العمّة، بحثاً عن تفسير أو تأويل أو مصداقية الحكاية، تلك هي من  
الأعيينا التي افترضناها في جلساتنا العلنية والسريّة، لكتابة حكايات  
تليق بانفجار المخيلة البشريّة، لا بد أن تستجيب، وهذا ما سأجبرك  
عليه، وعليك أن تعيش الحكاية كما صغتها.

لم تجد في نفسك وازعاً أن تتحرك، شيء ما لجم وحجم طاقتك،  
فاجأتك قبل أن تضمحل وتتلاشى في الغبش الأخير لليل، هيئتها  
كانت لا بشريّة، عيناها طوليتان، شفتاها بلوريتان، زنتك رضاباً عسلياً،  
وأرعتك بوخز كهربائي، براحة أنعشتك، ومنحتك متعاً لا تريد أن  
تضمحل، ما زال يؤرّقك السؤال، رغم أنّ يمينك قد جزم الأمر بأنك  
ساكن البلدة الوحيد، إن استثنينا حفنة المسلحين المتوارين في المزاغل.

[البلدة بعدما خرج ناسها وأطيّارها، سكنها مجتمع الجن، ما يشئت

فكري سؤال:

هل كان حلماً سكن وتحقق وذاب؟ أم إنَّ عقلي تفكك وبدأت أفقد  
وهج ذاكرتي كمركب مات قائده وسط البحر؟ ومن يدري، ربما هي حكاية  
ابتكرتها كي أواسي بها وحدتي، وأقضي بها ساعات الليل؟ وأرجو من  
هذا الباب، إن حدث ومت، أن يفسروها بتمحيص ودراية، فحياتي لا  
تحتل المتناقضات، والتشعبات، والمزيدات، والمراهنات، والمزيد من  
التأويلات المجازية، مختصر نافع، حياتي حكاية مبعثرة، حياتي من  
سيلملها لو مت؟..]

من ححك أن تعرف، تعلمت هذا، ومضيت تحافظ على أشياءك  
القديمة، شيء ما، قاهر وغامض، حدث وتركك في متاهة، سؤال  
يباغت أو يروم ترويضك بغية معاودة الكرة، فالذي حصل مثل طعم  
فاكهة نادرة في اللسان، لا يضمحل أو يختفي مهما أكلت من أشياء  
حلوة أو مرّة، مثل قُبلة أولى على خد أو شفة فتاة في أولى معاركها  
العاطفية، قُبلة ستبقى أمتع وأشهى وأبقى، قُبلة ستكتسح بقية القبلات  
اللاحقة، خالدة لن تزول، افترضت أن قوة الكوابيس أحياناً تفوق  
قوة الحقيقة، صدماتها تلتصق بالذاكرة أطول فترة من التصاق وقائع  
معايشة، لا بأس إن شغلتك بما هو فوق طاقتك أو طبيعتك، لا بد

أن تمضي الحكاية في مسالك ملتوية، وتتصنع حيرة القارئ، كي لا يمضي ويتركنا متحسرين على الورق، محض كلمات خاملة لم تثر فضوله أو تمنحه برهة مؤانسة.

ينفلت ذهنك، يمخر عباب أيّامك، إنه يسقط دائماً وأبداً في أيّامك التي لا تريد أن تتقدم، أيام أحفظها كما أحفظ منازل جبرتي، لا بد أن تخضع لحكاية عشتها وسرديتها، كونها نافذة أخرى تطل على قيافتك.

كنت واقفاً ورهط مسلّح يفترسونك نظراً، حسناً فعلت، وأنت تحافظ على رباطة جأشك، لم تطرف عينك، أجبتي لحظة أردت أن أماحكك بالسؤال ومعرفة ردّ فعلك، وازنت شهيقك وزفيرك - وأكذت هذا:

” لحظتها وضعت في بالي، أن أيّ إخلال في منظومة حواسي ستلفت انتباههم، وتُبرق في مخيلتهم وميض الشك والإدانة، هم قوم لا يثقون حتى بأنفسهم، يبنون على الشك يقينهم، وعلى ردّة الفعل المباغت أدلتهم الدامغة“

وقفوا يتفحصونك بخبرات ميكانيكية مستوردة، وعيون لعبوة ترمش كمصابيح المركبات الرباعية، واستعانوا بربوطات آلية لا تخطئ أهدافها، هزّوا رؤوسهم وقبل أن ينسحبوا قالوا شيئاً تعذر عليك فهمه، ترجمه مثلث:

- سيادة النقيب تقدم أعتذارها لكم، ترى فيكم اللحم والتواضع، إنها تتوسم فيك صفات نادرة لا يحملها إلا أصحاب الأحلام الكبيرة،

تجد فيكم رغبة عارمة، تكاد أن تكون من الرغبات المرجوة بالنسبة للحياة القادمة للبلدة والبلاد والعالم والغد.

لم تجد بُدّاً، أو مأت برأسك ومدّت الرقيب يدها للمصافحة، وحين رفضت مصافحتها، رفعت يدها وراحت تداعب خصلة شعرك، قالت شيئاً آخر، فسرّه المُلثَم:

- تدعوك أن تكون أكثر حزمًا، لا تتردد في اللحظات الحرجة لاتخاذ قراراتك، هذا واجب مقدس يقومون به، وتؤكد أنهم جاؤوا ليكنسوا ظلمات الأزمنة الفاسدة من أغوار الناس.

*[يشبهون أبو الجعل، يللمون كرات روث أنفس الحالمين، ليحرجوها إلى ما لا نهاية الزمن والتأريخ، هذا هو سرّاجهم لفك عقول وقلوب الكائن الشرقي الحائر، لم أفه بشيء مما أسرته في نفسي وهم ينسحبون، مشوا بضع خطوات قبل أن يتوقفوا، استدارت حضرة النقيب، عيناها بلون البحر الغامق، عينا قط، وجهها أبيض شاحب منمش، شعرها مجذوذ من تحت قبعة تنفلت شعيرات منها، وتنحدر على رمشي عينيها القطيتين، من عينيها شع فسفور متبدل الألوان، خرقتي بحزمة ضوئية أحدثت فيّ تغييراً واضحاً في مزاجي، وبقيت لأيام وأنا أجتهد لتفسير الواقعة..]*

من أتت في ليك الحافل بالفسفور والدم وقادتك نحو الدرس  
البليغ، درس التخلص من ورم من أورامك، تكاد تشبه إلى حدٍ ما،  
النقيب الناعمة، التي تشبه بقامتها الضئيلة قرد واقف على قائمته،  
يوم أوقفوك وفتشوك وأنت تروم عبور جسر البلدة، قبل أن يهدّه  
خمبابا في ليلة سقوط كوالاة.

سأفترض هذا، بناء على سياق ما وجدت في أوراقك.

*لها ملامح تثير الشفقة، ونظراتها حائرة، كأنها فأرة تتوجس رائحة قط  
يترقبها، آه.. لها نفس جرس صوتها أيضاً، ومن يدري، ربما هي! جاءت  
بلون آخر، وبهيئة أخرى، لكن الأختلاف فقط، أنها تحمل شعاع الشكوك في  
حديقها، بينما تلك، كانت أكثر جرأة في التحديق وتحريك الكلام..*

كلما رغبت أن تصعد إلى غرفتك، قلبك يخرج من مألوفيته،  
ينبض أكثر مما هو مألوف ومحسوب ضمن سياقات الوضع  
الطبيعي للقلب الصاحي، يضرب قلبك بشدة، بعنف، تشعر بقوة  
الخفق وتسارع نفسك، إنها من علامات الشيخوخة الباكرة، لقد قلت  
ذلك ذات يوم لرفيق رهطك، رهط الخيرات، عندما كان (لازم أبو  
حازم) يلهث وهو يمشي معك بين مجاميع من الناس جاءت هاربة  
من العاصمة، هزّ رأسه وأجابك بأنه يشعر بخفقان زائد في قلبه،  
قال له طبيب القلبية بعدما أجرى له تخطيطاً، وأفلت شريطاً ورقياً



طويلاً سقط على أرضية العيادة، وراح يدور كناعور، واحتاج إلى وقت كي يلممه، عاين طويلاً، قبل أن يفلت لسانه بتواجد شخطة واحدة في تدرجات خفقانه.

يقول (أبو حازم):

”طمأنني؛ لا تقلق. شيء طبيعي وعادٍ جداً بالنسبة إلى عمرك، قلل ضرب الثريد، وخفف الشاي الذي تشربه ثخيناً، ولا تقرب فناجين القهوة في المضاييف والفواتح بتاتاً، وقلل من نشاطك - ضحك - الجسدي - ضحك - أقصد الليلي“

لم تعد تخشى من تلاحق شهيقك وزفيرك، وأنت تبغي أن تصعد درجات السلم كي تعيش بين فوضى كتبك، غرفتك التحتية، لم تجد وازعاً يفرض عليك جباية النوم فيها، تلك أيام قريبة حيث كنت معهم، تحتضن ضلعك ورثتيك، أيام كريمة، سهر وتجاوز ونوم، كل شيء رحل، وبقيت وحدك تسكن حيث مئات الكتب المتركمة بفوضوية في مدارج وأرفف مغبرة تشتبك فيها نسيج العناكب، وهياكل حشرات متييسة.

هاجس انتابك بأنك ربما ستجدها هناك ماثلة تنتظرك، تلك الزائرة الدموية، رغم شفافية جسدها وفسفورية عطائها ولذتها التي لا تريد أن تتلاشى من ذائقتك الليبرالية.

ما زلت تمتلك حججاً دامغة، وأباطيل رادعة، لإقناع من يحاول دفعك خارج حلمك، عجز الملتزمون عن تحطيم إرادتك، يئسوا وتركوك شبح البلدة، شيء متوقع أن يبدر منك، هذا ما أسمح به

لنفسى أن أحكيه، كنت لا تتردد من الإندفاع نحو مواقف جليّة،  
مهما كانت حدّة خطورتها وعواقب أمورها.

من اندفاعاتك؛ ألم ترم بنفسك وأنت بكامل أسماكك في النهر،  
يوم كنّا برفقة والدك، كان هو يصطاد السمك، وكنّا أنا وأنت نتحاور  
ونتمازح بصنارتينا، لحظة ألقى أحد الشباب بنفسه في الماء وكاد أن  
يغرق، كان يظهر ويختفي، نهضت وألقيت بنفسك في الماء وتشبث  
بك، ولولا نزول والدك لربما مضيت معه، ولربما سقط آخر أحلامك  
أن تدفن في مقبرة البلدة معنا، بعدما سكنت قبر الماء، كان من  
البدية أن لن تولد هذه الحكاية لو غرقاً مت.

من اندفاعاتك؛ يوم الفيضان، نزلت إلى الماء الغريني، أمام  
أنظار مئات الشباب على طرفي الوادي، كنت تنقذ أشياء الناس قبل  
أن أتشجع من باب الفضول والغيرة، وأهبط معك لنعيش وسط ماء  
بارد غريني متموج أمام عيون مندهشة وأفواه مادحة.

من أندفاعاتك؛ يوم حصلت كذبة رمي في الدبابة على الساتر،  
ترجل الطاقم كلّه وهول إلى مسافة نائية كما جرت التعليمات، لكنك  
اندفعت إلى الدبابة، دخلت حجرة الرمي وعالجت القضية، لم يكن  
الرامي قد أحسن الضغط على عتلة الرمي، ما أن انطلقت القذيفة  
تنفس الطاقم الصعداء وعانقوك، وصل الخبر إلى أمر الرعيل فأمر  
الكتيبة وأمر اللواء، وتم سحبك لتكون رامي دبابة أمر اللواء، وطلبت  
منه أن أرافك كجندي مخابر، ولأن مخابر أمر اللواء كان من أقاربه،  
جعلني ضمن طاقم الاحتياط، وعشنا معاً حتى إنتهاء فترة إلزاميتنا.

من أندفاعاتك؛ يوم هرب أحد الجنود مع الفجر باتجاه الجانب الآخر، خوفاً من المجلس التحقيقي الذي أخبروه بأنه سيتشكل ضده، ذلك الجندي سحق جندياً بالدبابة، كان ذلك الجندي القادم من الجبايش نائماً تحت الدبابة، لم يستيقظ ولم ينتبه هو لتواجده، عجنه بالسرفة، هرب باتجاه إيران مع انبثاق الخيط الأول للفجر خوفاً من الشنق أو الرمي بالرصاص، أرداه قنّاص قتيلاً، ومع الغروب، بعدما ظلت جثته ليومين في الأرض الحرام، وعودتنا من الإجازة الدورية، تكفلت بالمهمة، تسللت زحفاً وسحبته إلى الساتر، ومن دواعي المصادفات أن الجندي المسحوق كان قد مات بسكة قلبية وهو نائم تحت الدبابة.

فارقت غرفتك، أرجوحة المنزل، وجدتها متعة ستعطيك خلوات ذهنية، زاغ فكريك وتشتطى، ضوء شاحب بدأ، سرعان ما تكاثف. في كل بلاد تفقد شرعيتها، تحدث فوضى عارمة، وتغدو الحياة ملغومة بسياسة شيطانية، هنا في تلك الأرجوحة، من المفترض أن أجعل كوالاة تجلس لصقك، سأستغل هنا لحظة ضياعك لإرادتك، لحظة خضع عقلك لسلطة حكاية عشتها، مدّت أناملها برقة وبدأت تبعث حرارة الرغبة في أوصالك، كان يجب أن تتفاعل قبل أن تنثور وتغرقك في بحر الرغبة، تنتظر إليه، في عينيها أشعة سلام ودعوة صريحة للتلاحم، ألقت برأسها فوق كتفك، وبدأ الغزل يرتقي إلى درجات الشهوة، لم تحتمل ضجيج الرغبة، بدأت تصهل كالخيول المتعاركة حول فرس في لحظة سفاد، قمتما ودخلتما البيت والفرش،

مشهد أرجو أن توافقني عليه، تلك هي من أسرار الحكايات التي كنّا نُمنّي النفس أن نبتكرها.

بعد أربعين دقيقة، وقت ممكن أن نحتمله، وربما هناك من لا يمتلك صبراً وينهي القضية بأقل من ذلك الوقت بكثير، لنفترض أن الوقت هو قارب الرحلة، لا يشكل - سواء أ.. طال أو قصر - توليفة الحكاية، من جوهر المشهد شيئاً، سأواصل الحكاية كما تسير، عدتما من رحلة الشوق لتكملاً، أو تنزفاً ما فيكما من وساوس وظنون في أرجوحة المنزل:

- لم تفق من كابوسك؟ هل نبقى هنا؟ الناس كلّها بدأت تخرج من البلدة.

كلام دار على كل لسان وفي كل منزل، دائرة الحرب تتوسع، المدن تسقط، والجيش يرحل، والناس تعيش في دوامة، الكل يتناقش ويبحث عن حلول وملاذات مقترضة، لو سارت الأمور نحو آفاق ضيقة.

نظرت إليها، أغمضت عينيها هاربة من نظراتك، إنك ابن البلدة، عشقك لها، طفولتك، حكاياتك، اندفاعاتك، كلّها سدود مانعة، تريد أن تجعل حزنها منزلاً لكما:

- كيف عرفت أنني أسير كابوس ما يجري؟

- في الليل تهذي بحكايات غامضة، إنك تعيش عالماً قديماً.

- هذا شيء لا يسر، ربما ما يحصل في البلدة وراء فقدان

حيويتي، وربما حلمي بدأ يكتب نفسه، بعدما تعطلت مليكتي القرائية والتأمل، فما يجري للبلاد والبلدة فوق كل توقع.

- إنها ستزول، ما أن تغدو حكايات نشبع من ترديدها، لو فقط بدأت التخلص من كوابيسك، هذه نتائج متوقعة تحصل وراء كل سقوط سلطة حديدية، أو أوان انتفاضات شعبية، وثورات عرقية، وتناحرات طائفية، وصراعات مذهبية عارمة.

- حياتنا القادمة ستغدو جحيماً، قد نكتشف باكراً عجزنا عن ملاحقة الحوادث، البلاد صارت أكوام قش في مهب رياح خارجية وداخلية تتصادم بوحشية.

- لا نتشاءم لما لا يسر؟ ربما يكون مستقبلنا كالرخاء الذي يتبع زواجع مطرية.

- لكن عواصفنا الحياتية لن تنتهي!

- عواصفنا نحن نختلقها.

كدت أن تتفاعل معها مرة أخرى، سأحذف هذا، لا أريد أن أكرر ما شهده حسيّاً وشعر بلذته خيالياً القارئ، هنا سأفترض؛ وجبة فذائف بدأت تغرد وتتفلق مع بداية الغروب، حرمتك من متعة مسائية فائقة اللذة لا تريد أن تضمحل، إنه الوقت الملائم أن تستقبل الليل وأنت نازف متاعبك، ففي الليل تغزو الأفكار العظيمة، وتأتي الأحلام كما هي، جامحة، وأنت تسميها؛ ثورية! لتسكن على الأوراق حكايات معظمها بائدة وأقلها أبدية.

بدأ الغروب، تعشيت باكراً، ترددت بين الصعود لغرفتك، وبين المكوث في صالة الضيوف، شهرٌ وأنت تحاول أن تقرأ كتاباً ظلّ بين يديك، كتاب يحكي عن الأرواح الشريرة، عن خبثها وتفاعلاتها،

وكيفية التخلص من براثنها، كتاب ألفه لفكاديو هيرن عنوانه في يابان الأطفاف. كلما بدأت بالقراءة، وجدت نفسك غاطساً في دوامة شرود ذهني، قبل أن تكتشف نفسك في صفحة، سوف لن تتقلب عن صفحة تالية مطلقاً، وعذراً؛ سأستعين بهذا وفق ما كنت تشعر به خلال أيام الترشق بالقذائف، وأسررت لي بأنك مللت القراءة، ولم تجد ما يثير فضولك لينغزك شيطان الكتابة لتكتب.

ما تزال اللحظة تحضر وتندمج فيها، بيت يعج بالفرح، ما تزال، كلما جلست في أرجوحة المنزل، يتجدد الحضور، تستمتع، وأنت تسترجع لحظة أخيرة، قبل أن تباغتك الفجیعة، رجّة عنيفة زعزعت أوصال البلدة، تبعتها رجّة أدنى قوّة، لكنها أخذت نداء و رواء.

نداء و رواء، توأمان جاءتا إلى حياتكما بعد صراع طال مع الإسقاطات التي قضمت عقل كوّالاة، أخرجتها من ثوب حلمها، وأسقطتها في سطحية الحياة، جاءتا بعدما عدتما من ميناء جيهان ١، وخضتما مراجعات مكوكية إلى سادة أصحاب الكرامات، وأطباء حاروا لعدم وجود أدلّة واضحة ترسخ قناعاتهم، أن أحدكما يحمل فايروس الخلل التكاثري، كلما كان الجنين يتشكل يسقط، حدث ذلك فجأة بعدما دب اليأس فيكما، وعشتما في انتظار يائس وقلق يوغر في صدريكما، قبل أن تلقف خبراً بحصول جارة على طفل أنابيب، مباشرة بعد دخول الأميركيان إلى البلاد، تنازلت كوّالاة عن مهرها، باعت جواهرها، وذهبتما معاً إلى سوريا وعدتما بين فرح متذبذب، وقلق يستفز قبل أن يتوهج المرح في المنزل، وفي يوم لا يريد أن

يتخلى عن سيرة حياتك، كان اليوم يوم الأحد، الأحد.. الأحد..  
الأحد.. ما بال هذا الأحد يطاردك من منبت حياتك ليوم تمنيته،  
آه.. يعجز لساني عن البوح به.

في اليوم الخامس من شهر نيسان، الأحد من العام ١٩٩٨ هلّتا عليكما.  
متردداً بين المثل للرجبة، وبين المكوث لأيام آخر، خشية أن  
تسقط في حيرة أخرى، رغبة تدفعك أن تعاود نشاطك، بعدما وجدت  
في نفسك رغبة في كتابة سيرة حياتك، ورغبة موازنة تمازحك أن  
تبقى مرتعد الفرائص، كلما فكرت بالأمر، أردت أن تدوّن شيئاً من  
أجلهم، شيئاً يعيش معك، تعاود الجلوس في المكان نفسه، تبدأ بهز  
الأرجوحة، تريد أن تستحضر كل كلمة قالتها، كل همسة، وكل  
قبلة من قبالتها السريعة التي نقرتها بمنقار وجدها على خديك، أو  
شفتيك، تريد أن تسترجع حرارتها وهي لصقك، تريد أن تشم عطرها  
وأنفاسها الحزينة على فقدان ضلعيكما، نداء و رواء، شيئاً فشيئاً  
تتفاعل، تسترخي، تذوب، تسقط، وتمضي سفينة متحررة بلا ربّان  
في لجة حلم أسر.

طرقات ناعمة على باب المنزل:

”يبدو أن صاحبك بالباب، لا أحد غيره يزورك هذه الأيام!“  
سأزجك في حوار ذاتي متأرجح، تسأل، وتجد الجواب يرتد من  
جوفك، بصوتها المتوسل:

”ما الذي يبغي في هذا الليل، وكيف وصل إلى هنا؟“  
”ربما زوجته أقامت له حفلة جديدة“

ما زال صوتها لا يريد أن يخفت، تسكنك وتشاركك الكلام، تعرف مدا صبرك وتقليعتك الدائمة في التأمل، واستيعاب الأسئلة، قبل أن تبادر بطرح أجوبتك.

”مسكين.. في المرة السابقة كدت أن أفقد صوابي حتى أفنعتها  
أن تعدل عن رغبتها“

”أليس من حقها أن تطلب الطلاق؟“

”لا توجد مبررات شرعية لطلبها، الولد مؤدب ومهندس، وما  
زال شاباً متأثراً يرتع في ريعان العمر والجمال“

”لكنه يهلكها في الليل“

”وأنا ألم أهلكك من غير ضجر؟“

”لكل امرأة مزاجها الخاص، بعضهن يسأمن هذه القضية“

”حسناً.. لنعرف سبب مجيئه، قبل أن نُحمّل نفسي آثاماً؟“

*[هزرت رأسي لأنقحه من وساوس لا تتركني، كنت أحداث نفسي،  
وصوتها لا يبارحني، صوتها المبحوح، صوتها الذي ضاع مع رحيل  
والدها وأمها في يوم الكيمياوي الذي أكل أجساد أطفال ونساء وشيوخ  
خمسة آلاف قرية، صوتها ما يزال ساكناً ومائلاً معي، كلما جلست  
في أرجوحة المنزل، كلما رغبت أن أسكن الحلم، رغم أنني قررت  
أن لا أجلس من بعدها في الأرجوحة، بعد تلك الليلة، ليلة لفظت  
البلدة أناسها وأطيأرها، ولكن حينني سيل عرمرم جارف، دائماً يجرفني  
لأستنطق شبحها أو ان الرغبة..]*



طرقات على الباب، تخّصت من شرودك، قمت وفتحت الباب، وجدت صاحبك يقف بخشوع، دخل وجلستما في الصالة، لا أعرف إن كان هذا المشهد يفني بالغرض، أم إنه مُقحم من قبلي، مهما يكن بوسع القارئ أن يحذفه أن كان يطارد صلب حكايتك، مهما يكن فهو يمنحني الديمومة في الحكى، وإنه ملحق بالعجائبية التي وضعت نفسك في خضمها:

- جئت متأخراً، رفضت أن تفتح لي الباب.

- سأتصل بها!

- قفلت هاتفها بعدما عرفت أنني توجهت إليك.

- وما العمل؟ هل بوسعك أن تبقى حتى الفجر في بلدة تتأكل وتنتلم!

- لدي أعمال يجب أن أنجزها.

خرجتما..

- علينا أن نحويها ولا ندع فرصة لتضخيم القضية!

- إنها تعاني من انفصام وداء الشقيقة.

*[مشينا عبر ممرات خانقة، وأزقة متعرجة، خشية المرور بالطرقات*

*الرئيسة، كان الليل مناراً، والسماء صادقة في نقاوتها النجومية، وفي*

*الطرف القصي للبلدة حيث النهر، وبين بيوت تجاوزت على القوانين*

*مبنية بعشوائية، كان بيته يتوسط سلسلة بيوت غير متناسقة، وصلنا،*

*ولم نتكلف بطرق الباب، كانت واقفة تنتظر بكامل خضوعها، ومن غير*

ظهور بوادر عدوانية على ملامحها، احترت للأمر، لم أجد وازعاً أو  
فرصة لمدارسة اللعبة، دخلنا وراءها..]

- تأخرتما؟

- الطريق مكهربة بالخوف والموت وحظر التجوال الليلي  
المتواصل. أجاب صاحبك.

[في صالة الضيوف جلسنا، بعد دقائق جاءت تحمل قذحي عصير،  
لا أعرف، وربما سوف لم ولن أعرف، لم بالضبط سمحت لنفسي أن  
تخرج من عقاليها، وجدتها تبتسم، كان في عينيها وهج فرح كبير، كبير  
جداً، وخطير جداً، على ما يبدو، وكما سيبدو..]

- كن مستعداً؟ نهر الحكاية بدأ يجف!

خرس اللسان، لا تملك كلاماً أو شيئاً يخرجك من فلك التعجب  
والرهبة، جاء صاحبك وجلس، لم يكن كما كان، وجدته أكثر طفولية،  
استحال لونه إلى بياض متشح بحمرة يلمع كمصابيح النشرات  
الضوئية، خرجت زوجته وعادت، بدت امرأة غريبة، شكلها ولباسها  
ونظراتها، كل شيء فيها يعاكس الذوق وينفلت من المألوفية التي  
عهدتها، بقيت حائراً فاقداً الصلة بما حولك:  
”ماذا يجري؟“. تلاعب السؤال في ذهنك.

”هل من الممكن طرحه؟“ . وددت أن تعرف.  
”أنا في رحلة حلم يقظة أم صفة كابوس؟“

[ما أن كرعت قدح العصير، استرددت ما فقدت من توازن، نار  
هادئة ولذينة سرت في عروقي، تحول الكون من حولي إلى حقيقة  
مسررات، نبت لي جناحان أبيضان، شعور راسخ ما زلت أصر على  
حقيقته، بدأت أرفرف بجناحي، سعادة غامرة، ونشوة حلمية تنتشيني،  
وترفعني لأطير في فضاء أبيض كالثلج، عبر ممرات تمنح ذاكرتي مرارة  
الصدق وحرارة الحقيقة..]

حاولت أن تتناسى أو تتسلف ما جرى من ذاكرتك، وجدت نفسك  
تعبث وتهذي وما يسكنك من حلم يرفض أن يكون ضغثاً. أسمالك  
كما عليهما من أسمال تشع بالضوء وتثير الممرات الحالكة، تمشي  
أمامك كطير في لحظة فرح، أو كغزالٍ تخلص من أنياب مفترس  
وصار في مأمن، سرتم كثيراً عبر ممرات غريبة، لم يحدوك شك أنك  
ما زلت في بلدتك، عشت تفاصيلها، وخبرت مسالكها، وتعذر عليك  
أن تتذكر إن كانت ممرات واقعية مررت بها ذات خلوات عفوية، أو  
في أيام صولاتك التسكعية.

وصلتم بيتاً منفرداً، كلبان ذئبان يشبهان كلاب السيطرات  
المستوردة لتفتيش المركبات، ناما ما أن رفعت يدها، ورأيت كيف

خرج من أناملها ضوءٌ كهرب الكليين بحزمة نعاس:  
- علينا أن نسكتهما؟

*إني تلك اللحظة، وجدت زوجة صاحبي قد تحولت إلى تلك الفاتنة  
الفسفورية التي أعطتني درسها الأول في تحقيق الغايات الكبرى، وتكاد  
أيضاً، أن تشبه سيادة النقيب ذات العيون الغامقة القطية، والسحنة  
الشاحبة المنمشة، يوم بعثت فيّ شرارة الأرق، وتكاد أن تشبه أيضاً،  
إلى حدٍ مثير مثير جداً كولاية..]*

- علينا أن نرتمي قليلاً قبل أن نركب سفينة الحلم؟  
أطعما، وبقيتما تلهثان وأنتما ترتميان لصقاً على عشبٍ ندي،  
وكان الليل نبيلاً هادئاً، والنجوم لا تفضح مجريات الأحداث العجيبة:  
- لم يحصل أن خضت هذه الفقرة من قبل.  
شع من عينيها ضوء فسفوري كهربائي، وتحولت بطرفة عين  
إلى تلك التي تشبهت ب- كولاية.  
قالت:

- إن تدمرت ستفقد الكثير من فرص العمر!  
- حسناً.. يجب أن نطيع.  
- أمروني أن أنهض.  
نهضت ونهضتما وراءها.

- لا تنفضا!

توقفت يداكما عن نفض الغبار العالق بكما.

[فتحت باب منزل منزوٍ بين زقاقٍ ملتوٍ، لم أشعر بالحيرة، كنت  
فاقداً شعوري، أطيع تحت تأثير قوة منومة، منعشة ومسكرة، دخلنا  
وراءها، وفي غرفة نوم متواضعة، وعلى بساط بسيط، امرأة تتوسط  
طفلين في تعاسة النوم غارقين.

قالت:

”أمروني أن أقف!“

أطعنا. وفي تلك اللحظة، لا أعرف أكان حلمًا، أم حقيقة؟ ما زال  
ذهني منشغلاً بما جرى، تحولت هي إلى شابٍ وسيم، ما أن طرح نفسه  
لصق المرأة، نهضت وعانقته، خلعا الأسمال وعاشا ومضة حب، لم أحتمل  
المشهد، رصدني صاحبي وكظم غيظ رغبتي بإشارة ضوئية من سبابته..]

- دع ما فيك لما بعد الحقيقة.

شيء مقلق ومحير، بدأت تتمالك نفسك، وكُلّما فكرت بالقضية،  
فقدت زمام ذهنك وتسقط في نعاسٍ ثقيل يغطسك في لجة النوم،  
توقف اللهاث وشاعت رائحة عرق الأجساد ولمحت ثلاث برك حمر،  
خطوط دموية تتحدر من السرير، تمازجت لتغدو خيطاً مترجراً

وامضاً، قبل أن يمضي خارجاً من الغرفة إلى فناء الحوش والبلدة  
والليل وربما العالم.

*[قادتني من يدي، صرنا في الليل، كأنني أمشي في سدوم من  
غيوم حلبيية، تركت يدي، وحلقت كفراشة في كل لحظة تبذل لونها،  
تظير بسعادة، ونحن نلاحقها من غير الوصول إليها..]*

- درس آخر!
- آية دروس تكتب وتقرأ بالسكاكين والدماء؟
- كابوس يتعذر تأويله باغتك وسلبك لحظة تنويرية شعشت فيك  
لتأويل الموقف:
- هذه أول امرأة وطفليها يمضون إلى المقبرة الجديدة.
- مقبرة جديدة؟
- ستلتحق بأعوانها.
- أعوانها؟
- رجال الظلام، أولئك الذين تحرروا بمحض إرادتهم من أثواب  
واقعية الحياة وألبسوا أنفسهم لباس القرون المهملة.
- لا أعرفهم!
- تذكر هذا؛ إنك تقترب من حلمك، وحلمك حفنة أورام عليك أن  
تتخلص منها قبل أن تلتمسها، وهذا يتطلب منك العيش في الحكاية.

- لا أحبذ سلوك مسالك حلمي بالسكاكين وجداول الدم من أجل  
الدخول إلى مضمار الحكي!
- قدرك أن تسلكها، أنت حالم وعليك أن تمتثل لكل أمر؟  
فالذي بتر ضلعك بشظية صاروخ عابث، رب هذا البيت، وبعل هذه  
المرأة، وأب الطفلين.
- وما ذنبهم إن كان بعل البيت ذنباً؟
- ليس من حقدك أن تسأل!

*إفي طرفة جفن، في خفقة قلب، ناب كل شيء من حولي،  
استرجعت وعيي، ليل وبرد وحلم يرقل، توقفت من التأرجح، لم أعد  
أمتلك متسعاً من الوقت للدخول إلى معمعة الخيال، يا ترى؛ من هو  
صاحب القذيفة العابثة التي شرخت الصمت؟ سؤال ظل يتردد صداه في  
صدغي، تلك القذيفة التي ضربت المسجد، يوم الفرار الكبير، وحررت  
شظية لتسقط كولاية من شجرة حياتي، وتركتني - فيما بعد - حالماً  
يبحث عن حلمه الأخير! يا ترى من هو؟..]*

لم تجد دافعاً يدفعك أن تتسكع خارج البيت، وجدت الرعشة،  
رعشة الحكي، تبدأ من قيامة الرائحة.  
تهض ببطء، تتخذ مساراتها بهيئة أميبيا، تكتسح فضاء الليل

والبلدة، تقتمك وتتعثك وتذبيك في لجة الحلم.  
حلمك يدنو .. حلمك حكاية.. سوف لن تنتهي ما دمت مُعشَّشاً  
بحفنة أورام.  
ما دمت تجلس في أرجوحة البيت، عصر كل يوم، ما دمت  
تجلس في ظل شجرة المشمش كل ليلة، ستبقى حكايتك.. سيبقى  
حلمك.. ورداً ورداً يورق معك.



## هامش :

جيهان : ميناء في تركيا يُصدّر منه النفط العراقي المستخرج  
من آبار محافظة التأميم، كركوك سابقاً.

الأحد ٢١ أيلول ٢٠١٤

*لم أشعر برغبة للتسكع، وجدت مكوثي في البيت، هاجساً يلح كي يتوقف تشتت ذهني، لم أشعر بهذا التحول الديالكتيكي من قبل، حالة جديدة بدأت تفرض حضورها الافتراضي، لذا قررت أن أستجيب - كما أقررت - لمتطلبات وأوامر عقلي..*

سأفترض أنك بقيت رغم عفونة أشياء لم تتفع معها فتح نوافذ الغرف، هواء البلدة فاسد، ثقيل، متسربل بأبخرة نتنة، صعدت إلى غرفتك، وبدأت تقلب أوراق قديمة متراكمة في صناديق ومدارج مكتبك، ومن خلل النافذة، من وراء الستائر التي تبيست جزاء هجمات الغبار، وروائح فساد المنازل، ما بين لحظة وأخرى، كنت تمرر نظرات لا تستقر، لا توجد غاية، بل هي محاولات لفك اشتباك الأمور، وتحرير عقلك من الروتين الذي راح إلى حد ما يستهلكك، ويزحزحك نحو وادي الكسل، روحك قلقة، بدك مُستفز، ونبضات قلبك بدأت تتسارع، وكما هو سائد بالنسبة إليك، المدينة باتت طلاً وخرائب، منارات دخانية تتلولب صاعدة من كل زقاق، لتتعاشق في فضاء مخنوق بغبار شبه ثابت، صمت مميت مهيمن، صمت متسربل برائحة بغيضة تدلقها أحشاء منازل هجرها بشرها، حيواناتها ودواجنها وجميع حشراتنا.

عدت لتجلس على سريرك، لا رغبة تمتلك لعمل شيء، لم تعد القراءة جرثومة غاصبة، كما كانت أيام تسكعاتنا وجلساتنا، لم يعد النوم مطلب جسديك، وهذا افتراض واقعي طالما الوحدة وحشة وتحدٍ وتهياً لمجابهة خطر يرسمه العقل لإثبات وجوده، ثمة حركة غير واردة أوقفك، أغمضت عينيك وفتحتهما، تأكدت من سلامة حواسك، أنك ما زلت تمتلك كامل وعيك، رغم مناوشات الرتابة وقسوة العزلة، إنك لست غاطساً في نوم مرتبك، وإنك لم تخض نهر الحكي بعد.

**[ حاولت أن أنقي ذهني من ملابسات الظنون، لأخرج نفسي من دائرة الوهم، حالة بدأت ترافقني منذ أيام، وغالباً ما كنت أتخذ من أرجوحة المنزل وسيلة تهدئة، هناك أجد نفسي طائراً يطير ملكاً في فضاء واسع ونقي، وروحها تُحلق معي، روح كوالاة، نتجاذب أطراف الحديث، ودائماً تتصاعد فينا حمى العاطفة، ونفوز بلحظات نادرة من السعادة.. ]**

بهوثك المعتاد استدرت، وجوم لا بد أنه قد حصل، أغمضت عينيك وفتحتهما، تريد أن تتأكد من سلامة خيالك، من نقاوة نظراتك، نعم؛ ليس هناك ظن، قطً وأقف مترهل متناعس العينين، جوع مهول واضح عليه، متأهب ومحترس لاتخاذ أي إجراء فوري لو تعرض لهجوم من إنسان متواجد في مكان مقفر.

[من أين أتى؟ ليس كل جواب يقنع أوان المفاجأة، القبط حيوانات محيرة، خائنة كما هو شائع، لديها سبع أرواح كما تقول العامة، دائماً تحتفظ بإحدى أرواحها خزيناً ليوم أسود، للحظة حرجة، أو لوقت الضيق عندما تنتهي كل خياراتها الدفاعية، وتجد نفسها أمام الموت، على ما يبدو، بل يبدو أنها واهنة الجسد وخائرة المغنويات، ولكن؛ في عينيه المزجتين كالفسفور المشع، تلك الروح الاحتياطية كانت تتوهج للانقضاض على الضحية، أو على كائن مجابهه في معركة مصيرية، كان لزاماً عليّ أن أفكر، وأن أتأكد بيقين غير قابل للدحض من سلامة عقلي، ومن صحة عيني أولاً، قبل أن أفكر بكيفية اتخاذ الخطوة الواجبة لتلافي الاصطدام به، وجدت؛ أن ذلك كان يحتمني أن أبذل جهداً فكرياً، ووقتاً لا أملاؤه في تلك اللحظة الحاسمة، لقراءة المشهد قبل غلق ملف الظنون..]

مررت وشقيت متاريس البلدة ليلاً ونهاراً، لم يباغتك كلب تخلف عن رهطه، أو قط تشبث ببقايا أيام عمره، لم تجد عصفوراً تعذر عليه أن يغادر، لا حمام في سماء البلدة، لا شيء سوى الوحشة والرهبنة وأشباح شياطين وغبار وعممة وحرائق ورائحة بغیضة تقلب الأحشاء وتكتم النفس، لا أريد أن أجنب الحقيقة، هذا ما وجدته في أوراقك، وحدك وشجرة المشمش ما تزال تتشبث بالحياة، تؤنسك وتمنحك فرصاً نادرة للمؤانسة والحكي.

[لابد أنه قط أفلت من رصاص المحاربين والعاشرين، لابد أنه عاش في ببحوثة، متنقلاً من منزل لمنزل، التهم الدجاج والبط والطيور المنزلية، وربما تمكن من فتح أبواب الثلاجات والمجمدات، والتهم كل ما كان مخزوناً من لحوم بيضاء وحمراء بيتاً بيتاً، وها هو يصل به الدور للسطو على ممتلكات منزلي، يا ترى ماذا لدي لأطعمه تجنباً للعواقب الوخيمة؟ والقط أوان الحصار يغدو نمراً فتاكاً، هذا ما كنت أسمعته في جلسات الليل أيام الطفولة، والقطط تعتاش على اللحوم والفئران والطيور، وتمتلك مهارات خارقة للظفر بها، وأوان المجاعة والحصار، تلتجئ إلى تناول البراز المتيبس، والحشائش والطين كأخر المأكولات، وكل هذا غير متواجد في بيتي، تمويني المخزون بدأ يدنو من النفاد، الطحين يكاد أن ينفد، كيس الرز لم يبق منه سوى حفنات، الزيت، البقوليات، الكيروسين، الماء في الخزانات، كل شيء بدأ ينقرض وقد أجد نفسي مضطراً - وهذا ما لا أرجوه لحد هذه اللحظة - أن أستعين بما في منازل البلدة التي نجت من القنابل والنيران من ماء وتموين لو طال بي الأمد، ولكن.. هذا القط الراسخ في نظراته، بعدما قضى على كل شيء يؤكل في البلدة، حان دوره على أن ينبش كل ما في منزلي من موجودات ومهمات، قد يرتكب - وهذا افتراض - تغييراً استراتيجياً في تخصيصاته الطعمية، إذا ما حلت بينه وبين رغبته، وأظنه سيهجم

هجمة نمر جائع ليفترسني، ويحتفل بمناق لحم بشري متبل بالحكي..!]  
قط غريب واقف على عتبة النافذة، تلك النافذة التي تقف  
عندها كلما وجدت نفسك محاصراً بفكرة عابرة، وقفت لتحدق في  
النجوم، تبحث عن الحلول، ومعك وقفت لمراتٍ، وكنا نحصي  
الأنوار المتناثرة من المصابيح في المنازل، أتذكر قولك يوم قلت،  
بعدهما سحبت شهيقاً وزفرته بشيء من الحرقه:

” أتدري؟ أن عشوائية بلدتنا هي أول سلّم من سلالم الحداثة  
في سرديات المدن الوديعة، وهذا السلّم هو كسر أقفال سجون  
الماضي للهروب نحو التمدن “

لم أملك جواباً أو تعقيباً على ما قلت، وعدنا إلى طاولتك  
لنواصل كلامنا حول أحلامنا المؤجلة، وأفكارنا الراديكالية، في  
التجريب والحداثة، وكتابة حكايات خارج أدواق الحاضر لمغازلة  
عقول المستقبل.

قط ينظر إليك بريبة وفي عينيه كلام وقد لا يستسيغ القارئ هذا  
الكلام، ولكي نقرّب الفكرة أكثر، أو نعطيها إيضاحاً مقبولاً، وكما  
هو معلون إن إطالة النظر في شيء، تعبير منطقي، أو مقارنة  
واقعية، عن الكلام الصامت، أو الحوار مع الذات، يحاول كل كائن  
أن يناقش عقله، عندما يُحدق في شيء لافت، كائن ما مثلاً، أُنناد  
أو أصدقاء، قبل أن يتخذ الإجراءات المناسبة لدرء الخطر عن نفسه.  
قط واقف على حافة النافذة، يحاول أن يصل إلى قناعة قِطية،  
إلى جوابٍ مُرضٍ:

” من هو هذا المتهم المتبقي من بشر البلدة؟ “

سأفترض؛ لحياتك تدنو من صدرك، كث شعر الرأس، مخيفاً تبدو، ليس هذا ببعيد أو يجانب الحقيقة، إنه مؤكد؛ لابد أنك أهملت الاعتناء بمظهرك كما كنت، وقفت حائراً تخاطب عقلك، تطلب منه تفسيراً عن سبب تواجد قط يقف أمامك مشغولاً مثلك أيضاً بمخاطبة عقله، بحثاً عن قناعة تمنحه فرصة ترويض الصدمة، حرت، وظل القط حائراً مثلك، لابد أنك توقعت أنه سقط في نهر المفاجأة، وتعذر عليه التراجع، أو المغامرة لعبور المحنة، دنوت منه فشعر بشيء من الهلع، وتهاياً لمعركة وشيكة، أو رغبة بالفرار :

- مووونوو أنت؟ أحتاج هنا لتشكيل حوار مفهوم، تفهمه ويفهمه، ويستسيغه الآخرون، تجبرني الحكاية أن أتلصص، وأن أستببط كل ما دار في عقليكما من أسئلة وأجوبة مفترضة.

سأفترضاً حواراً مشتركاً لأكون أقرب للحقيقة، وأنت عرف أن الكثير من بشر اليوم يشبهون القطط، تراهم ينامون في مطابخ بيوتهم تاركين غرف النوم، أو عندما يمرون بالمطاعم في الأسواق والشوارع تثار شهيتهم للأكل ويسيل لعابهم، تراهم يلهثون نحو كل غداء وعشاء للعزاءات التي لا تنتهي.

- ههههه.. أأنا.. أنا حالم.. حالم..!!

- مووو.. لا يووووجد.. حالمووو في البلدة.. مووو..!!

- يوجد يوجد حالمووو.. توجد أحلام كثيرة مومومو، إنها

تعيش معي يا قوطوطووو..!!

- مووو.. أنت شبحووو.. مووو..!
- ومن أنتووو؟ ماذا تعملووو في بلدة بلا حياتووو.. يا قطووو..؟
- مووونووو.. أنا.. حالمووو..!
- هئ هئ هئ موموو.. حالمووو؟ بيدو أننا نعلم يا قطووو،  
أنا حالم بشرووو.. وأنت حالم حيوانووو ياايا ققططووو..!
- مووو.. لا أسمح لأحد أن يشاركني حلمووو.. مووو..!
- وأنا يا عزيزي، حلمي لوحدي.. موووو..!
- مووو.. ربما حلمكووو حلمي.. وحلمي حلمكووو.. مووو..!
- هههه.. هذا ما دار بخدي في التوتو.. يا.. مووو.. موووو..!
- مووو.. لنتفق على حلمنا معاً.. مووو..!
- هههه.. حلمي بشري وحلمك حيواني يا قطووو.. مووو..!
- مووو.. أنت تشبهني مووو.. أنظر إلى نفسكووو في  
المرآتووو.. مووو..!
- هاااا!؟ ما.. ما.. ماذا؟ مووو.. أنا..أ..أ..نا.. أشبهكووو..
- مستحيلووو.. لا.. لا.. أنت تمزحووو.. موووو.. يا قطوووو!
- مووو.. المرأة.. وراءكووو.. مووو..!

*لحظة استدرت نحو المرأة، كدت أن أسقط، شيء مرّوع، غشت  
العمّة عيني، فركتهما، وجدت قطاً واقفاً، قطاً عملاقاً على هيئة بشر،  
هزرت رأسي، هز القط رأسه، رفعت يدي لألتمس نفسي، تلاعب القط*



بنفسه، ارتعش بدني كله، فكرت أن أراجع نفسي، أن أتأكد أنني لست  
في لجة كابوس، وحين استدرت نحو النافذة مرة أخرى، فيما تشبه  
الصعقة ردعتني.. كان النهار مغبراً.. ولم يكن القط واقفاً هناك..]

تقدمت من النافذة ومررت عينيك، لا بد ان هذا قد حصل، تريد  
أن تتسلف من بالك الوسواس وتخرصات الظنون، صمت شامل،  
وقرص الشمس شاحب، وغبار يتكاثف، ودخان يخترق ستر الغبار،  
ورائحة بغيضة تتركم الأنوف، تراجعت عن النافذة، وجدت قط المرأة  
يُكسر عن أنيابه، وشاهراً مخالبه في لحظة انقضاض، يكاد أن  
يفترسك، دنوت ومسحت الغبار المتراكم من على وجه المرأة:

- لا تدفعني، جئت أشاطرك حلمك! بلسان فصيح واضح  
البيان تكلم.

- مووو.. منو أنت.. مووو..؟

- هههه.. أنا أنت.. لا تستغرب..!

- مووو.. لكنني بشري، وأنت شبح قط خارج عن المألوف.. مووو..!

- ههههه.. يبدو أنك متعب، أو أنك تشبعت بعفونة البلدة

وخرابها.. ههههه..!

- مووو.. سأحطمك.. إن لم تغادر وتخرج من المرأة.. موووو..!

- ههههه..!

أنفد صبري، وفقدت رشدي، رفعت قبضتي، وقبل أن أنهال على  
القط المائل إزائي، وجدت مذياًعاً قربي، رفعتَه وضربت القط الواقف  
الساخر، فتناثر الزجاج، وسقطت على قفائي، ولحظة استعدت كينونتي،  
وجدت خيط دم يتدرج من رأسي، وينحدر على خدي..!

نهضت..

وجدت قطناً مغبراً في صيدلية الغرفة، كانت ساقطة على الأرض  
محطمة الزجاج، تعرف أنها سقطت يوم الصاروخ العابث، الصاروخ  
الذي أخذ ضلعك كغولالة، وتركك تسكن لجة اللحم والحكاية، لكنك  
لم تجد رغبة في نفسك، أو دافعاً ذاتياً يجبرك أن تبادر لتعليقها ثانية  
على الجدار.

مسحت الدم وهبطت تبحث عن لقمة طعام وولعك لا يتركك،  
ودائماً تجد في طهي الطعام متعة تضاهي متعة القراءة والكتابة،  
ألم تقل لي ذات يوم:

” أتدري أن الطعام مثل الكتب؟ الكتب تغذي العقل والطعام  
يغذي البدن، العقل والمعدة قائدا البشر، العقل ينير له الدرب والمعدة  
تمنحه الطاقة، والكتابة تشبه فن الطهي، الكاتب الماهر من يطبخ  
كتبه بمهارة، والطباخ الماهر من يطبخ طعاماً دسماً يشبه الكتاب  
الدمس، هناك تشابه مدهش ما بين فن الحكي وفن الطبخ، سأكتب  
عن هذه المقارنة في يومٍ ما، لا فرق بين كتابة حكاية وبين طبخ

الطعام، تحتاج الحكاية إلى صبرٍ طويلٍ لتتضح، كذلك الطعام الجيد يحتاج إلى نار هادئة وانتظار كي ينضج، وإن مذاق الطعام يشبه مذاق الحكاية“،

أعرف أنك تطبخ أنواع أطعمة أنت تبتكرها، وطعامك لذيذ، هذا ما أشاعه (لازم أبو حازم) بين أقربائه، يوم زفّ عروساً لابنه، وكنتم ضيوفاً كراماً عنده، سرد لي تلك الواقعة، ونحن في مطعمٍ شعبي نتناول غداءنا بعد نهارٍ شاقٍ ومغبر، رؤيته كانت بمثابة هبة السماء لي لأحكي حكايتك، كنت ضمن حشد أناس في ساحة متربة لاستلام المساعدات الإنسانية، والتي كانت تعطى بطريقة حيوانية لنا، كل شيء فاسد، أو من مهملات العالم، أغذية منتهية صلاحياتها، فاقدة قيمتها الغذائية، يتقلون بها كواهلنا، وسط تدمير وتلاسن وتلاعب بأعصابنا، ولكن؛ هناك من يشيع أن العالم يستحي أن يقدم توافه الأشياء للبشرية، وأن هناك مافيا تقوم بتبديل المعونات العالمية بالمتلوفات.

رأيته واقفاً في ظل شجرة، دنوت منه، قام وعانقني، وتحدثنا عن أيّامنا الخوالي، زودني بكل ما وجدته متبلات ومقبلات وفايتامينات حكايتك.

يوم ما زال يحضر، لأنه قرر أن يبقى ماثلاً ورافضاً أن يتلاشى، أو يتقادم كبقية أيّامك الباسلة.

يقول (أبو حازم):

”كانت ليلة طويلة وصاخبة، حافلة بالرقص والغناء، قلت له:

(أبو النداء) لم نتناول عشاءنا بعد، وعصافير بطوننا بدأت تترقق  
بلا رحمة!

”معقولة..؟ أطمعتم القرية كلها ونسيتم أنفسكم؟“

”خلص عشاؤنا وبقينا بلا عشاء، لم نكن موقنين في التقديرات“

”ماذا تقصد يا (أبا الحوازم)؟ هههههه.. أتريد أن تكسر

القاعدة..؟ أم إنك ما زلت عند إصرارك الدائم؛ نحن قومٌ نخالف

أعرافكم.. هههههه..“

”هههههه.. فهمت مرامي سريعاً..؟“

”لا تهتم؟ سنحتفل بطريقتنا الخاصة، تلك التي كنا نحتفلها

ليالي الذود عن حرمة بلدتنا!“

يقول (أبو حازم):

”وجد كل شيء مهيباً، قام وطبخ لنا رزاً ولحماً واحتفلنا بالعشاء

والكلام“

كنت تحاول أن لا تسرف في إعداد الطعام، ولكنْ أفلح (أبو

حازم) في إقناعك، ومضيت تعمل طعاماً يكفي لعشيرة، كما يقول

الكلام الدارج، وباغتك برجال أتوا ليتعرفوا عليك، وعشتم ليلة حافلة

بالطعام والكلام.

*[عشقي للطبخ ولد معي، في أيام القسم الداخلي، كنت أطبخ*

*وزملائي يتناولون على غسل الصحون وجلب احتياجاتنا من السوق،*

أحتياجات لا تعدو سوى بطاطا وطماطة وبصل وبانجان وبامياء وخيار ومخضرات، في كل يوم أحد كُنّا نشترى دجاجة احتفالاً بيوم مولدي، في أيام العسكرية، وجدت نفسي أمام رغبتي اللحوحة، كنت أطبخ ورفاقي يتناوبون على جلب الأرزاق وغسل الصحون، فالطبخ يشعري أنني أحبك خيوط الحكاية، فهو فن وذوق وابتكار كما الحكاية فن ومكر وابتكار.. [

ثمّة أيّام آخر تفرض حضورها، ومن بينها يوم لا يرغب أن ينزاح من رف ذاكرتك، يوم هاج الناس وجاؤوا هاربين من دعايات خمبابا، داخل مدارس البلدة أسكنتم الجميع، ولملمتم أشياء كثيرة تبرع بها البقالون والقصابون، وأصحاب المحال التجاريّة، عملت لهم مع رهطك وليمة كبيرة للغارين من إشاعات الحرب.

ذكر لي (أبو حازم) أغلب المواقف التي خضتموها، بعدما تعذر وصول قافلات المساعدة، بسبب وجود مدهامات أمنيّة، وتم تأجيل التوزيع إلى اليوم اللاحق، ما أن أنهينا غداءنا، وبدأنا نحتمي الشاي في كورنيش على نهر الوند، بين شجيرات يانعة، وأرض معشوشبة منقوشه بتشكيلات زهور ملونة، وأقفاص فيها طيور وأرانب، استثناء الدواجن، كانت متحررة تلهو وتضطاد الحشرات بين الحشائش.

سأفترض أنك بدأت بعمل لقمة طعام لك، وخارج المنزل ومن خلال النافذة جلبة باغتك، أطفأت نار الموقد وصعدت إلى غرفتك متقدماً من النافذة، وجدت ملثمين على سطح بيت مرتقع أمام

بيتك، راقبتهما بعدما تأكدت من سلامة حواسك، وجدتهما يستطلعان الجهات وعلى كتفيهما أسلحة، شابان آخران صعدا وهما يحملان ثنائية مقاومة طائرات شبه متهالكة، كانوا يفتشون عن مكان لائق مستور لنصبها.

*[كان يتوجب عليّ أن أعيد كامل حساباتي، هجست أن أيامي القادمة وفق هذه الإجراءات الجديدة للمسلحين لم تعد رخاءً وتأملاً وأحلاماً كما ومض عقلي، قريباً ستكتشف الطائرات هذه الثنائية المتهالكة، وعندها سينهار عليّ البيت لصاروخ لا يخطئ مساره، سيزرع الزقاق، سينيم المنازل حجراً على حجر، ما العمل؟ هل من الجائز أن أنتظر؟ أم عليّ أن أفكر بطريقة تقيني الخطر القادم، لم لا أحفر خندقاً في حديقة المنزل؟ ولكن.. أليس هذا ضرباً من الجنون؟ طائراتهم أشباح تسبح خلف الغيوم، ترى النمل في الرمال، تقتنص أهدافها من غير سابق هدير، أو دليل غارة جوية، يتوجب عليّ أن أمنح نفسي خلوة تفكير. ربما سأجد الحل الأمثل عند عقلي، طالما هو دليلي ومرشدي أوان المواقف الجسماء..]*

في غمرة تأملك وانشغالك بوساوسك، تناهت لسمعك طرقات على الباب، هرعت لتقف أمام ملثمين ضئيلي البدن، يحملان بنادق

وفي نطاقيهما تتدلى رمّانات يدوية:

- ها (عمو زوراو).. هل ترغب أن نخرجك من البلدة؟ تكلم الواقف على يمينك.

- دعوني أموت هنا!

- لكننا سنحارب يا (عم زوراو)!.. قال الآخر.

- سأموت لو تركت منزلي!

- معلوماتنا دقيقة، ربما سنغير إستراتيجيتنا خلال الفترة القريبة!.. قال الأول.

- هنا دفنت ضلعي وهنا دفنت رئتيّ ولم يبق لي سوى قلبي فقررت أن أدفنه هنا أيضاً.

- وهل نفذ مخزونك؟.. واصل الأول كلامه.

- ما زلت أحتفظ بما يكفيني لوقت آخر!

تكلم الآخر:

- يا (عمو زوراو)؛ من رأينا أن تترك البلدة، ماذا لو جلبوا علينا قوّات دولية، وقد تأتينا الأوامر بإخلاء البلدة، ماذا سيكون موقفك معهم لو وجدوك هنا..؟

- سأختبئ!

- براحتك يا (عمو زوراو)، لو طلبتنا يمكنك أن تجدنا في الليل؟!.. ختم الأول كلامه.

مضياً وتركاك.

[طهوت طعامي على عجلٍ، قتيت أقراص بطاطا، وعملت شوربة  
عدس، وبللت قرص خبز يابس، جلست أتناول غدائي بارتباك، ثمة  
حالة استوقفتني بخصوص أحد الملثمين لحظة فتح لثامه وعدله،  
ذاك الذي كان على شمالي، برق في ذهني شكله، لا شك لدي أنني  
رأيته في مكان ما، ربما لمحت صورته، وكان هذا أكثر الأدلة رسوخاً،  
نعم.. رأيته؛ هتف عقلي، كانت صورته ما تزال عالقة في ذهني، كما  
كانت عالقة أمام أحد سردق العزاء، يمتلك شكلاً يتعذر نسيانه، أو أن  
أخطأه، متواجد دائماً في ذهني، أين.. أين..؟! آه.. ربما في فرن أرغفة  
الخبز، أو في محل بيع الأحذية، أو في سوق البقالين، أو صاحب  
عربة دفع ضمن جوقة الحمّالين، ملامح ضاغطة، صعب عليها أن  
تغادر ذهني..]

صعدت إلى غرفتك، استلقيت على سريرك، سحبت كتاب (في  
يابان الأطياف) ل- نفاديو هيرن. نفسك مؤترقة، أفكارك مشتتة،  
وظلّ شغلك الشاغل، ملامح ذاك الذي أزاح عن وجهه اللثام، فالذي  
رأيته، شاب أقيم له عزاءٌ إستثنائيٌّ على أنه مات في انفجار مركبة  
على رتل أميركي في العاصمة بغداد، كنت حاضراً في دفن رفاته،  
يوم جلبوا تابوتاً مغلقاً، ولم يخطر ببال أيّ شخص أنه تابوت مثقل  
بشيء ثقيل، لم ينتبه أحد إلى أنّ أموات الانفجارات غالباً ما يأتون



بهم ممزقين، أشلاء مبعثرة، ولم ينتبه أحد لم تم دفن التابوت في حفرة كبيرة تسع لخمسة أموات رتلاً، لم ينتبه أحد إلى أنّ العزاء الذي أقيم تم تهويله، وأدخل البلدة في حزن غير مسبوق، كان عزاءً وهمياً تعذر على العقول المشتتة، والأفكار المتناطحة هضمه.

فيما بعد.. بدأت الرؤوس تستعيد صحواتها، وتراجع ماضيها، لتفسر الأحداث وما رافقها من تباينات وتقاطعات، وتوصلت إلى الكثير من الأعيب السياسية، وكيفية استغلال الثغرات الأمنية والمجتمعية لتميرر الغايات الكبيرة، دائماً وأبداً، مع فقدان الأمن، وغياب القانون، وتعدد الجهات الأمنية، وتوالد الميليشيات المسلحة، تنتشر الشائعات، حاملة معها بصمات المصادقية، وتمر في وضح النهار من غير موانع، تسربت إشاعات همسيّة عن أناس اختفوا بصورة لا عقلانية، لم تجد لها أذاناً صاغية، لا أحد فكّر عن أسباب وكيفيات فقدانهم، أو اختفائهم، لم يخطر ببال أحد، أنها عمليات حاذقة لتضليل الرأي العام، وإبعاد الشبهات القانونية والشكوك الفاعلة عن ذويهم، تلك الأقاويل ها هي تثبت مصداقيتها، فكل أولئك الذين اختفوا وعملوا لهم سرادق عزاء مهولة، عادوا من موتهم بأسماء جديدة، حاملين السلاح ضمن التنظيمات المتطرفة.

نقيت ذهنك من وساوسه، لم تجد رغبة في القراءة، نحيث الكتاب جانباً، ورحت تتأمل، تريد أن يأتي الليل، وأن لا يتأخر عن مواعده، كنت تتوقع أن الليل الآتي سيغير منهجه ويبدل استراتيجيته بعدما غير المحاربون استراتيجيتهم، تريده أن يأتي في وقته المحدد.

في الليل تجد متسعاً للتأمل وصياغة الحكى.

*[الحروب تجارة مفتوحة، تُباع من خلالها الشعوب والأمكنة بأثمان  
بخسة، والبشرية سلع بائرة في أسواق الرأسمالية، تحت وهج خديعة  
الديمقراطية والحرية، تقاد كالقطيع إلى مرابع تلك الرؤوس الشيطانية..]*

يباغت النوم وأنت في لجة النقاش.  
ما زال الليل منجمك.. وما زالت أورامك صناديق تحتفظ بمواقد الحكى.  
فيه حلمك الذي يناصفك الجلوس.. ويشاطرك غزل الحكى.

الأحد ٢٨ أيلول ٢٠١٤

*لحياتي ماتزال حفنة رحلات، الطفولة نهر الوطن، وكل وطن حديقة  
طفولات تنمو وتثمر أجيالاً خادمة أو هادمة، أينما أتواجد أتخيل نفسي  
كتاباً يمشي على أرض كلها كتب ومكتبات، تنتدبني الحكاية، أسكنها  
وأمشي وهي تولد معي، ومعها يمضي مركب حياتي ككتاب مفتوح من  
مكتبة لمكتبة، وليس لي سوى أن أكتب حكاية، أو أبادر أنا لأكتبها..]*

صادق..

رحلت كثيراً، لكنك دائماً كنت تعود من جديد إلى حيث عشت،  
لا لتستقر بل لترحل من جديد، كلام منطقي يتطابق إلى حد ما مع  
نهجك الحياتي، وحياتك أسفار متشعبة مثل سفينة تشق متاهات  
بحار غريبة، من شروق اليوم لغروبه تسافر.. من فلق العمر لألقه  
تسافر.. من مهد الطفولة إلى عكاز الكهولة تسافر.. وستبقى مسافراً  
أبد الدهر يسافر.

تجلس..

الليل من حولك يحترق، عفونة الأشياء تشتد أوان الليل، عيناك  
تخترقان - كلما جلست على كرسيك البلاستيكي، كرسيك الذي صنع  
من نفاوة النايلون، لم يكن نتاج خلط أباريق محطمة، وأكياس نايلون  
المزابل، وأوانٍ تهرأت في المطابخ، وصنادل مقطعة، تم رميها في

القمامات التي راحت تنتهك حرمة الأزقة وأطراف شوارعنا، لتشكل جنباً إلى جنب مع سياسة ساستنا أزمة نفايات، قبل أن تتبكر عقول مبتكرات بديلة، دفعت مواكب أطفال ونساء لنش النفايات المتراكمة في الساحات العامة، لللمة كل شيء من أجل إعادة إنتاج أشياء منزلية لا يمكن الاستغناء عنها، طالما الدنيا غلاء، والناس مبتلية بجرثومة التبذير وسوء تقدير الأمور، والحياة تراجيديا ولهو وضحك على النفس، أو مع النفس.

تجلس..

تحت ظلال شجرة المشمش، ستارالعمتة، سأفترض هنا أنك كنت تعيش حالة غريبة، لنقل أنه إحساسٌ غير مألوف، دفعك أن تخرج لتجلس، وأن تحدد في حجاب الليل، تحاول في الجلسة التي جلستها أن تفك لغز هذا الأحساس الذي يعتريك، سأفترض، وهذا ليس بغريب عليك وعليّ وربما على كل من سيعيش حكايتك، بأنك تمتلك قناعة راسخة، وتعرف أن الأمور من حولك تجري بما يفرضه المزاج ويتوقعه العقل.

صمت البلدة يتضخم ويطول، وأنت تبحث عن نهاية نفق رَجَجْتُ فيه نفسك، هنا أيضاً سأفترض غرابة مشهد سأرسمه كما فرضه عقلي من خلال أوراقك المبعثرة، ومن خلال مشاهد سأستعين بها من أيّامك الخاصة، وأيّامنا النادرة التي عشناها، ومن ألسنة قالت فيك ما قالت، ولتكن البداية وهذا ما وجدته كمنطلق حيوي يزجنا في صلب الحكاية.

ضوء انبثق، اسمح لي أن أنهضك من جلستك ولابد أن أبدو  
غرابة الاحساس فيك، شيء أقوى وواضح، ستحتاج إلى دقائق حيرة  
قبل أن تسترد أنفاسك المتحشجة من صدمة المفاجأة.

*[وقفت.. ضوء خارق، فركت غشاوة عيني، والمسافة الفاصلة  
ما بيني وبينها تلاشت، مات الشك سريعاً، ولم أعد أمتلك زمام نفسي  
سوى المثل لما فرضه عقلي..]*

- تصورت أنني سأتعذب طويلاً!  
مؤثراً؛ لحظة قررت أن تخرج لتجلس في ظل شجرة المشمش،  
ضائق النفس وشيء ما يتلاعب في ذهنك، سأفترض أنك كنت  
بصدد أن تضع في بالك، القيام بجولة تفقدية في تشعبات البلدة،  
لتمنحك فرص مثالية للحكي، ولابد أنك فكرت أن تجوب الخرائب،  
فيها حتماً ستجد جواهر نثرتها في أوقات متفاوتة، وحدك أو برفقتنا  
وأنت كما أعرف عنك غالباً ما كنت وستبقى خاضعاً لسلطان عقلك،  
وحيثما تقترح ذاكرتك تمضي كونك رحّالاً، وحياتك حفنة رحلات  
تنتظر قريحة حاكي أو قلماً يمتلك ألعايب تجميع وغزل الحكايات.  
وميض مشع أوقف مشروع ليلة من لياليك السرمدية. أجده  
أقرب الاحتمالات المقنعة لسير الحكاية والبدء منه كنقطة انطلاق.  
- من أنتِ؟.. لنفترض تحرك لسانك.

- تحتاج لبعض الوقت لتعرف من أنا!  
- كابوس كبسني ها هو يعرقلني.  
- قد يكون كابوسك حقيقة!  
- لم أكن أتصور هذا؟ هل حقاً تخضع رغباتنا النفسية لفلسفة غيبية فوق مستوى إرادتنا؟ لنفترض أنّ قوى ميتافيزيقية خارقة تدير شؤوننا المتوارية خلف حجب أمرجتنا، قد تكون هناك ظواهر تجزئنا أن نبحث عن سبل الوصول إلى عوالمها الخفية، وهذا ما دفعني أن أكون هنا، في هذه اللحظة بالذات، رغم خطورة التواجد هنا، فالبلدة ما عادت تشكل سوى خارطة آثمة على جغرافية عقول الساسة وكثيرٍ من الناس.

*[في شاشة الليل واقفة تحديق فيّ، وضوء فسفور يشع من عينيها،  
تفتح ثغرها، عطر يندلق ويحتويني، ودهشتها دهشتي، كأنها ارتمت  
على كنز غير متوقع، وكذلك أنا على كنز أثير أنبثق من عالم الغيب،  
وعليه كالمجنون ارتميت..]*

- أيعقل أنني واقعة في حوض اليقظة؟ تائهة بين جملة شكوك متخاذلة ويقين ثابت؟ أرجو أن يكون هذا، أرجو أنني ما زلت أمتلك زمام نفسي وكامل يقظتي، ليس بوسعي أن أتحمل وزر الألم لو كان هذا كابوساً أو مجرد حلم سيتبخر بعد لحظات ما أن أفز من

لا وعيي، أرجو أن لا يكون هذا، أرجو أن يكون الأمر واقع حال، لم أعد أملك أوقاتاً فائضة كي أبذخها من أجل كوابيس تتواصل لتزيد من مساحة يآسي.

بين وعيك ولا وعيك سأجبرك على الكلام ومن غير أن تدرك تمام الإدراك أنك تحاورها، كنتما تقفان بدهشة إزاء بعضكما وفق ما افترضت، تتكلمان من غير إرادة، يكاد يكون هذياناً عاقلاً يتدفق من ثغريكما، هذياناً ينسجم ويتناغم كما لو أنكما تمتلكان إرادتيكما وتعرفان ما تقولان وما تريدان أن تقولاه.

- ما نشتهييه قد يحققه لنا لا وعينا، كيف نفسر هذا؟ كيف حصل هذا؟ سؤال لا أحتاج إلى جوابه طالما الحقيقة ماثلة، ويمكن أن أستشف من هذا الموقف جوابي، فما يحصل أو بالأحرى ما حصل يوضح أماننا الأشياء ويكشفها، أنا لا أحتاج إلى جواب يسكت فضولي! فقط.. إن ما يشغلني هو تأويل ما يحصل لي؟

*[أغمضت عينيها، كأنها راحت تبحث عن تفسيرٍ لما حصل، كذلك فعلت أنا، ولم أشعر بوهن قدمي، لم يعد الأرق يتواجد في ذهني، وصوت شهيقِي وشهيقها، صوت زفيرِي وزفيرها، يتلاحقان ويطنغان، صدرها وصدري يعلوان وينخفضان بتناسق شبه دراماتيكي، أرى ذلك من خلال العنمة، صدري أشعر به، وصدرها فسفور مشع نابض أراه بوضوح يرتفع وينخفض بإيقاعٍ منتظم وثابت..]*

عدت سريعاً من إغماض عينيك، وجدتها كما لمحتها أنها تشبه تلك الفسفورية إلى حدٍ ما، رغم أنك لم تعد تتذكرها، كونها كانت تتبدل ما بين لحظةٍ وأخرى، تلك الليلة التي عشت معها ليلتين دمويتين، ليلة الفسفور المكهرب، الليلة التي تخلّصت فيها من كوابيس صاحبة السروال والوردة، وليلة نحر زوجة وطفلي رامي القذيفة التي أدخلتك دوامة الأحلام والحكي، كما جاء على لسان زوجة صاحبك المهندس.

*[ملاحظة تشع من وجنتيها، وشعرها متهدل يتلون ما بين أصفر وأحمر، وعينان واسعتان، وخطآن ضوئيان يندلقان باستقامة، كما تندلق الحزم الضوئية من مصابيح المركبات، حاجبان مرسومان بمهارة، وفي نظراتها جراً شهوانية متحفزة، واقفة كأنها عمود ضوء متوهج كالفسفور إزائي..]*

- لا نملك وقتاً لنبش ملفات القدر! ربما سنكتشف الجواب بعد فوات الأوان.

- كيف حصل هذا؟ كيببييف؟ أرجوووووك.. لا أريد جواباً! مجرد سؤال أطره على نفسي - كرد فعل لا إرادي لمفاجأة سارة - أحاول من خلاله أن أوقف معلوماتي ولا أريد جواباً يقمع متعة مغامرتي! قد يفقدني الجواب متعة اللحظة ويسرقني وهجك، دعيني



أن أعيش لحظة خلودي! دعيني أن أسبح في هذا النور المتدفق من حولي! دعيني.. دعيني!! أخشى أن يكون الجواب خاتمة حلم أستيق منه على تراجيديا عذاب جديد، وعلى مسلسل ضياع آخر، وخراب شامل يتواصل في بلدتي وبلدات بلادي وبلدات نصف هذا العالم المأفون.

فتحت عينيها، وأشرقت ثغرها ببسمة وهي تفترسك، وأنت تسرح في أفقٍ غامض، ولم تحذوكما رغبة بتغيير وقتنكما، أو أن يتبادر إلى ذهنك، أن تطلب منها الجلوس، أو الدخول إلى المنزل لتواصلًا حكايتكما.

- رؤيتك أفقدتني السيطرة على مشاعري، وما كنت أتوقع، أو ما تمنيته، أو ما رأيته في لحظة ما، في يقظتي، أو في لحظة شرود ذهني قد يحصل، فالأماني كما تعرف صعبة المنال في يومنا هذا، ليس بوسعي أن أجد نفسي تائهة في سراب مارق، ولم تعد حياتي تحتل الأوهام والكوابيس والظنون، رغم خرائب الأزمنة، وعراقيل الأمكنة، لكنني أفلحت إلى حدٍ معقول، في اختراق الفواصل الموضوعية، وعبور الأسلحة الخاشعة، ومتاريس حكوماتنا الساخطة علينا إلى أبد الأبدنين، موجز كلامي، أنني أفلحت في تلبية، أو تحقيق رغبة عنيدة، وربما عسيرة لأزمتني.

- أخشى ما أخشاه شطط ذاكرتي، إن ما يؤرقني سؤال يلح، هل ثمة سابق نداء بيننا؟ أو اتفاق مسبق حصل في لحظة ما بيني وبينك؟ ذاكرتي ما تزال تحمل سخونة لقاء قريب حدث في لحظة ما، وما زالت اللحظة ماثلة، لا يمكن إزاحتها رغم أن القلب، ليس

كل قلب طبعاً، دائماً يهوي، عندما يحضر شيطان الظن، فقط أقول هذا، من أجل ترويض سكناتي، وتتقية ذهني من شوائب الشطط، أريد أن أستوعب ما يحصل لي، وكلي رغبة، أن أصل إلى بر يقينه السريالي، مهما كانت الموانع.

- آه.. يخالجنني ما يخاللك، لا شك في هذا! ليس بوسعي أن ألغي رسمك، أو صوتك، من ذهني، لا يمكننا معاً أن نلغي قوة الانجذاب التي جذبتنا إلى بعضنا كأننا أزلين، وليس ما يوقفنا في هذه اللحظة بالذات، محض شيء عابر، أو إعجاب محض، ولد عند محطة نظرة والهة، أو رغبة مشتركة، توالدت فينا رغم متاريس الشر من حولنا.

*[بقيت للحظات غاطساً في حيرتي، وعيناي في عينين تفترساني بنظرات تبت ألواناً من الأنوار وهي منفصلة، تكاد أن تقفز وتُحلق، عدت من بحر ظنوني لأبحث عن سر هذه الحقيقة المائلة أمامي..]*

- ألسنا ضحية وهم جاء يتلاعب بمشاعرنا جراء الذي حصل لبلدتنا؟ أليس بوسع العشق أن يرجع وطننا من مخالب خمبابا وأذنايه؟ ألسنا حكايات متناثرة لو تم تجميعنا لشكلنا كتاباً في وطن، أو وطناً في كتاب.

كتمت ضحكة أرادت أن تنفلت، وربما خشت أن تفسرها بما يفسد

عليها الواقعة، هزّت رأسها، وراحت خصلات شعرها تتناثر وتنتثر ومضات ضوئية تندس في خاصرة الليل، قبل أن ترتد خصلاتها لتستقر في مكانها مصففة، كأنها ممشطة مملّعة، كأنها مزججة بنثار الفسفور المشع.

- لا.. لا يمكن أن نفسر هذا فوق كل احتمال، أو خارج مضارب العقل، كل شيء فيك محفوظ في ذاكرتي، حتى كلماتك أحفظها كما جاءت، وليس بوسعي أن ألغي هذا، ثق أنك في المكان المتوقع، لم تخطئ التقدير، مثلما أنا في المكان الذي وجدته واقترحته أنت، وكما قلت مثلما وطنك أنا، كذلك أنت وطني، لم أخطئ التقدير أنا أيضاً، ما أن رأيتك حتى شلّت قواي، وكنت بحاجة إلى برهة وقت كي أستوعب فرحي، خشيت أن أرتكب حماقة من فرط المفاجأة، صوتك هو، شكلك ونظراتك، لا.. لم أخطئ أنا التقدير، محال، وأنت كذلك، أجزم بأنك لم تخطئ التقدير أيضاً، سأنتق معك؛ لقد جمعنا وطن مسجون، وهذا ما أحتاج، في هذه اللحظة بالذات، إلى تفسيره كواجب ملقى على عاتقي.

- لا أشك في الأمر، ولكن علينا أن نتأمل القضايا المصيرية ونتدارسها قبل الخوض في معمعانها، أرجو أنني في هذه اللحظة بالذات في الموقع الذي جنّث من أجله، وكذلك أنت وأن ما يحيرني فوق كل هذا الكلام، وما يشغلني هو كيف حصل هذا؟ فأنا متحجر في البلدة وأنتِ تحملين الحياة كلها، ودليل كلامي نضارتكِ وضوؤكِ ولمعان كل شيء فيكِ، أنا بصراحة أقولها من غير تردد، أشك أنكِ

هي..؟ نعم أنت المرأة الفسفورية.. أنت.. أنتِ هي؟.. أصدقيني القول، ربما سنتمكن من الوصول إلى حكايتنا معاً من دون مواربة وبلا لف أو دوران، أنتِ هي..؟ تلك الفاتنة التي كانت إلى درجة بالغة الدقة تشبه النقيب، وكانت أيضاً تشبه ضلعي المبتور كوالاة.

- فسفورية؟ الرقيب؟ ههههه.. كلا يا شيخ، لستُ هي.. أنا.. حقيقة.. أنا.. ربما ما تقوله يجافي الحقيقة وقد - وهذا احتمال محض أو لنقل ملاطفة لتلطيف الجو - أقول قد أشبه كوالاتك إلى حدٍ ما، وهذا محض افتراض، وربما نعم، فكلنا نتشابه أوان العشق، كل النساء، سواء بسواء، متساويات أوان الحب، لهن نفس الطعم والرائحة، كما تعرف أنّ معظم نساء البلاد مبتليات بأقدار الحياة، لون الحزن، وينسب متفاوتة هو ثوب الجميع، كلنا نسخ متشابهة في أعينكم، لأنكم تعيشون مآسي الحياة، وهذا ما جعلنا نتشابه في أعين العالم، وإنهم لا ينظرون إلينا إلا من خلال حزننا، وحزننا كما هو معلوم وشائع، شامل وساطع وموحد.

- ولم تأتين بأشكال مغايرة؟

- لا وقت لدينا لمدارسة الظنون. ربما سنفقد وهج الواقعة لو طالت بنا الأسئلة وجرفتنا أجوبة الحيرة، لا فرق بين المسميات وأشكالها، العبرة تكمن في جوهر الأشياء لا في أشكالها أو في مسمياتها المتبدلة وفق الأذواق والأطماع والمصالح الشخصية، أو بناء لمتطلبات المراحل التي تلتهم بعضها البعض.

- سيتواصل الظن معي، فقدت الكثير من عمري رغم قُصر

فترة خراب البلدة ودمارها.

- لست وحدك من يعاني هذه الفردانية! أنا انسلخت من عالمي من أجل هذه الواقعة، غامرت، رغم كهرباء الزمن وفوضى الحياة، من أجل التأكيد على أن المدن الآثمة بالضعائن والأحقاد، ممكن أن تنبتق فيها فرص حياة وارفة بالأمل، إنَّها ممكنة التحقيق، لو لملمنا حكاياتها المتناثرة، وطهرناها من هستيرية شطحاتها، وتوحشاتها اللاعقلانية.

- حقاً أنت بذرة حياة ممكن زراعتها ورعايتها، ومنها تبدأ رحلة العودة إلى الوطن.

- لا تنمو البذرة من غير فلاح ماهر وساهر وثورى وناكر للذات.  
- نعم.. إن ما تقولينه مطلب كوني، ومثلما ينتابك ينتابني، فالشك يحضر ولكن اليقين هو الغالب في نهاية التحدي، وما يُطغى على سطح ذهني، هو رباط طويل يجمعنا، إنه الوطن يا عزيزتي، وربما كما تقولين؛ الحكاية هي التي تجمعنا، والحكاية وطن لا يفهمه الكثير، ولا شيء أمتع من الحكايات، ولا شيء أقوى من وطن المرء، والوطن مفتاح سعادة المرء، أو تعاسته، كما الحكاية تعطي السعادة أو تثير الشجن، شيء ما يحسني أننا نتاج زمن طويل من التلاقي، وأننا نعرف بعضنا بشكل جلي وواضح، وليس هناك ما يجعلنا أن نحوم في دائرة الشك والتأويل، بالنسبة لي، كل شيء فيك متواجد في ذهني، والشك عندي يصطدم بصخرة يقيني، ها هي نطحاته تتناثر رمالاً مضيئةً من حولي.



- ما حصل لك لي حصل. نعم اتفقنا على هذا اللقاء في مكان ما، أنت كنتِ صاحبة الرغبة لا أنا، وهذا ما يضح في ذهني ويقرّه عقلي، نعم كل شيء سار وفق رغبتينا، اتفقنا على أن نلتقي في هذا المكان على ما أعتقد، ولو لم نلتقِ ونتفق على اللقاء لما حصل هذا اللقاء بيننا وهنا بالضبط، كما أبرمنا الاتفاق عليه.

- نعم.. ومن أجل ذلك الاتفاق، تركتُ كل شيء ورائي، وجئتُ لألتقي بك، عبرت أشراك المستحيل من أجل رؤيتك، نداء صارخ، ورغبة جارفة، ولم أتردد إلا لحظة استهلاكَ كي أسترد أنفاسي وأتهدأ للحوار الذي أجريناه في مكان ما، في لحظة زمنية ماثلة في ذهني، نعم.. جئنا لنُكمل حواراً أجريناه في حكاية ما، في وطنٍ ما.

- أرجو أن لا يكون هذا اللقاء محض كابوس آخر؟ وأرجو أننا الآن في حوض الواقع، على الرغم من أن واقعنا لا واقعي، وأرجو أننا في مركب اللحم الذي طال مثوله علينا.

هزّت رأسها، فتناثرت من شعرها دفقة شظايا أنوار مزججة، كأنها حلوى انطلقت من يد ماهرة، لتلحق فوق هامتي عروسين.

- ربما الشعور نفسه يستفزني، حقيقة أقولها؛ دفعتني حزمة ظنون أن أتحرى عن صدق هذا الذي حصل، خشيت أن يكون كابوساً، لا أكتمك الحقيقة، رغبة مفاجئة دفعتني أن أسلك كل هذه المسافات، أن أجتاز مسالك مكهربة بالخوف، وعراقيل السيطرات، وملفات ضغائن متربصة في كل منعطف وزقاق وشارع، جاوزت أحجاراً كانت تنطق وتشي بمروري، وجدت الأمر، يتطلب شجاعة

وإرادة وتضحية لذلك غامرت، فقط أردت أن أتسلى بما حصل لي، وأن أثبت أن الظنون البشرية حجب قاتمة تحجبنا وتجمم رغباتنا من الوصول إلى أنفس نقيّة، أنفس تتلاعب بها ضغائن بشرية جاهلة، ولكن؛ الحقائق دائماً مفاجآت فوق العادة، ذهولي وتفروسي فيك، نتاج صدمة حقائق لا مجال لتوقعها في هكذا مناخ، وفي هكذا بلدة مفككة الأواصر ومتضاربة الآمال، وفاقدة مسالك الرشد، كما في أغلب حكايات ما بعد الحداثة.

- لندفع الظنون جانباً، لنزح هذه الغيوم المترسبة من أغوارنا، لتنفّرغ أنا وأنت لما أراد القدر أن يرسمه لنا، في أقل تقدير، أن لا نخسر وقتنا المحدود، لنتيه في عوالم الظنون والكوابيس، لنبعد عن كاهلينا أوزار الظنون، والأعيب الألسنة، وشطط المنقولين، وهذرات النقد الحدائث العقيم، لنزح فكرة أن هذا الذي يحصل، نتاج ضغائن عرقينا المتشاحنين! ما حصل من مشاجرات، ونزف متواصل للحياة والأحلام، نتاج جهل متفشٍ، وتدخل أجندة تُفَعَلُ عربية الانحلال من أجل مقاصدها، دعينا أن نكن في بؤرة الرحلة! ويمكننا القول على أعتاب عتبة الحكاية! ومنها سننطلق صوب الأعماق الزاخرة بالجواهر، لنعبر إلى شاطئ آخر يسترد لنا ما فقدنا، وسيتبعنا الآخرون، بعد أن يتجردوا من معطف البغض والكراهية، ولمعان الظاهراتية. عندها سينتقض الوطن، ويخرج من طينة الضياع ليحتضننا، كما تفعل الحكاية الناجحة عملها في نفسيّة المتلقي، ولحظتها سيشهد العالم على هروب خمبابا متبوعاً بأذنايه، أمام سطوع مرآة الحقيقة الحارقة.



- كنت بصدد أن أفه بمثل هذا الكلام، لكنك سبقتني إليه.

[رفعت كفي وضممته، تاركاً سبابتي شاهرة باتجاه الفضاء الملبد  
بحرائق بيوت تحترق، وغبار يعلو من جراء حرق منازل، يقال أنها كانت  
متلبسة بالإثم، وأنها بيوت عائدة لشياطين الأانس، وأغلب الظن أنه كان  
شعوراً لا واعياً، لا أرغب أن أغور عميقاً للبحث عن سبب موقفي ذلك،  
ليس لي سوى، أو أقول أنني؛ رفعت كفي وضممته، تاركاً سبابتي شاهرة  
باتجاه الفضاء الملوث بنيران ودخان حرائق بيوت البلدة..]

- المهم أنك رميتِ دلوك في بئر ما، حتى لو كانت مُعطلة بحثاً  
عن الماء، إن ما حيرني، أو دفعتني إلى جادة الذهول والتأويل، هو  
أكبر من كل الاحتمالات المتوقعة، أنا صريح الكلام، لن أجامل،  
ولن أجادل أوان التحاور، أقول ما يقره عقلي، وأبوح بما لا يجرح،  
أو يخدش وجهات نظر الآخرين، ولا أكتمك الحقيقة، أنا أبحث عن  
الخيوط الأولى، الخيوط التي نسجت هذا النسيج الذي اقتنصنا في  
وقت مُفلت من سكة الزمن، وهذا ما سيدفعني برغبة أكبر، واندفاع  
أسمى، من أجل تشكيل أغصان العلاقة التي دفعتنا معاً، وفي وقت  
متزامن، إلى هذا الاحتفال الغريب الجاري وسط حرائق جبلباء، كما  
أرغب أن أسميها، وخارج أنظار ناسها المشتتين في مزالق التهلكة،  
وفي هياكل مبانٍ مؤجلة الحياة، في خيام الانقراض والتشرد إلى

أوطان مزيفة، لا تُقدم خدماتها الضحلة، ما لم تضع في مخاطية مستقبلها، مكاسب كونية مرسومة بحذقة وشيطنة، وأنت تعرفين، أن الحروب عبر تاريخ البشرية، هي حروب اقتصادية بحتة، من أجل الاستحواذ على ممتلكات المهزومين، بغية توزيعها سابقاً على الفقراء والمقاتلين، ولاحقاً تدخل حصاراً، في جيوب الحكومات، لا بد أن القائمين على تلك الأوطان التي تستقبل الفارين من نار الحروب، قد وضعت في مستقبلها، خارطة طريق محسوبة بدقة متناهية، محكمة ومضمونة التحقيق.

سأبتكر هنا مشهداً افتراضياً، إنها بدأت تبحث عن مسلكٍ من غير حواجز للولوج إلى قلبك، في محاولة كنس غيوم الظنون من عينيك، سأجعلها تنظر إليك برغبة عاطفية من خلال نبرة حوارها، سأجعلها - وربما هذا سيجانب الحقيقة، ولكن؛ أجدها وفق قناعتي أقرب إلى روح عاشقة في أول مجابهة عاطفية، أو لنقل مكاشفة قلبية - في كل لحظة تهز رأسها، وتحقق فيك بعينين لامعتين، كأنهما تشعان بوميض فسفوري، وأنت سأجعلك، كما كنت في حياتك، جاداً فيما تقول، وقلبك يحتفظ، كما كان بنبضه النزيه، غير الملتبس بأثام الرغبات العاطفية العابرة.

- ربما قراءاتي المتواصلة لكتب الغيبيات والميتافيزيقيا أنتجت فيّ نوعاً ما من الفراسة، أو أنهضت فيّ، قدرات ذهنية تتحكم بأحلامي وتطلعاتي، وربما انسراحتي الليلية المتكررة، وانفلات ذهني، وركوبه سهوات الخيال، وعبور الواقع إلى عوالم لا متوقعة،

جعلت أحلامي ورغباتي أن تسقط في عوالمك، فحصل ما حصل، هذا ما أجده الآن، من تفسيرٍ يقنعني وربما، وهذا ما أرجوه، أن يقنعك أيضاً، ولو بعد طويل تأمل، ومراجعة ذهنية من جانبك.

[عقلي استرد صحوته، انتبهت؛ أنها كانت فتاة عصرية لا تنتمي للبلدة كما ظننت، شكلها ولباسها وشعرها المجدول، كما اتضح في وهج عينيّ، وكل تلك المقبلات الأثوية توارت من واجهة الحياة، بعدما هيمنت جرثومة العنف، وسُعرت نار المبادئ المزاجية، وشهرت خناجر الجهل، ورفرفت رايات الكهوف، فتاة جزمت أنها خرجت من رماد البلدة، خرجت من ركام البيوت المحترقة، وانها لا شك، نتاج قنابل أخطأت أهدافها، وجذور أشجار أبت أن تغادر الحياة، فتاة ألمعية جاءت تحمل نار الحياة لبلدة خاملة، أو سلّمت مقدراتها إلى غول المجهول، انتبهت؛ وجدتها تربت باناملها على حفنة كتب، وفي عينيها ترسم خارطة وطن مذبوح، وجدت رغبة لحوحة متوهجة تُوقّقها لتقديم خدماتها، من أجل إحياء الحياة، في مكان فقد الحياء والحياة، إحياء حياة متخاذلة، غدت مكتبة فارمة، ولكن بلا كتب..]

- إنها مصادر تحرياتي - كأنها قرأت سؤال عينيك - نجت من الحرب والحرق، جئت لأنتشلها قبل أن تجرفها جرافات الضغائن،

كي أتمكن في أقل التقدير، أن أنطلق من جديد، أن سمحت لنا الأيام القادمة، قلت انطلق من وراء الرماد، إن جاز لي الكلام، فأنا طالبة في القسم المنتهي من كلية الفلسفة، وعنوان بحث تخرجي هو: "الكشف عن ملابسات القوى الخفية لدى بعض البشر في بلاد ما بين.. هههههه.. أخشى أن أقولها، أو ههههههه.. بصراحة أنا أخجل أن أقولها في حضرة الحكاية، عفواً.. أعني في حضرتك! حررت هههههههات ملائكية أغرقتك في لجة فرح عارم، وبدأت تسترد نشاطك وتندمج معها ناسياً أنك في الليل، وفي بلدة بلا شيء، وأنت مسكون بجمر الحكي.

- هل نكمل حكايتنا ووقفاً؟

- هذا ما حضر على لساني أيضاً!

- لنجد لنا مكاناً نلتقط فيه أنفاسنا، بعيداً عن عرقله المحاربين، وريثاة استفساراتهم المتكررة كلازمة أغنية بالية أدمنتها الأسماع وملتها الألسن؟

- ربما يتعذر علينا أن نهدي لمكانٍ سلم من الحروب الداخلية.

- حقاً.. في كل شبر أرض من وطننا توجد دنان دماء، كما

في كل سطر من حكايات اليوم توجد جمل خواء.

- و.. ملاحم حب أيضاً بلا حرارة.. هههههه.

- ههههههه.. حقاً.. نسيت هذا.. لنقل حب بلا شغف.

- ههههههه يعني حب بلا..... ههههههه.. آه.. لا يجوز هذا

الكلام.. ههههههه، وطننا مذبح لا يجوز التقوه في ربوعه بما يثير

الشجون، ويدغدغ أوتار العاطفة وينهض نار ال-.. ههههه.. لا..  
لا.. آه؛ لا أستطيع قوله إكراماً لك.  
- قلها؟ أكاد أن ألتمس ما الذي دار بخلدك، ووددت أن تقوله..  
ههههه.

- دعيها؟ طالما توصلتِ إلى الغاية!  
- وربما أخطأت الظن؟  
- ههههه.. يعني.. لنقل من باب التشبيه، لقاء بلا مصافحة.  
- نعم.. فهمت.. فهمت كلامك.. ههههه!  
- أردت أن أقول بأن الحب والحرب هما روحا هذا الشرق،  
لذلك لا نموت، لأننا نعيش النقيضين بشكل متوازٍ ومتوازن، وفق  
نسق حياتي مستقر، حين نفقد الحب نعيش الحرب، وحين ينجلي  
غبار الحرب، سنبحث عن البديل المعاكس، أقصد نار الحب.  
- حقاً إننا لا نموت! لأن نسب الحب فينا أكثر من نسب  
الحرب أو العكس بالعكس.

- أقترح أن نجلس على أنقاض بلدتنا! قد نجد برعم أمل، أو  
قبس غيرة ومغامرة من أجل إعادة بنائها، لا كما بُنيت، بل يمكننا  
أن نبنيها بأجر العشق، ونسقيها بماء المودة، ونُسقفها بالقبلات  
والعناق، ونرفعها بلمسات التوله.. ههههه.. ونحرسها بال-....!  
حسناً؛ سأحتفظ بالكلمة لنفسِي.

- أنا معك، ذوقك وطني عالي المواصفات، وهذا ما أتفق معك  
عليه، لنجد لنا أنقاضاً تروي ظمأ عذابات التهجير! مكان يمكننا أن

وجد فيه تفسيراً لما يسكننا وما حصل بيننا، وربما سنجد وقتاً أليماً  
لنبحث عن بذور حياة جديدة لنزرعها على أديم البلدة، بعدما نقتلع  
جذور الأحقاد ودمامل الضغائن وقبح القبلية وفساد التربة العشوائية.  
- لا أعتقد أن القادم من الأيام سيوفر لنا أوقاتاً مثالية للبناء  
والنهوض!

صمت.

مشيئاً معاً..

مركبات معطوبة، أو منقلبة متباعدة ومنفردة، متروكة عبر  
جوانب الطرقات، مررتهم بأماكن جلسات أناس مكسوري خاطر،  
قبل هروبهم كانوا يتجمعون فيها، كانوا يذرفون آخر ما لديهم من  
كلام، وينزفون توالي حسراتهم، بعدما خلصت دموعهم، وكتاً نرى  
علامات اليأس والحزن تهيمن على سحناتهم، دموعهم مترققة لا  
تريد أن تجف، أو تهبط من أعماق مآقيهم، وكنت تغالب دموعك،  
ووددت أن تكون صاحب الأمر الواقع، صاحب الكلمة المسموعة،  
والرأي المتبع، كما كنت أيام خمبابا في تسعينيات القرن المنصرم،  
يوم قدت رهطاً من فاعلي الخير، وناذري أنفسهم لحماية البلدة،  
بعدها نقشت اشاعات بين الناس تهوّل معلومة بوجود (غوغائيين)،  
ولصوص منازل، تكاثروا بسبب الحصار، وانتهزوا فرصة هروب  
الناس من البلدة للعبث، وسرقة ممتلكات المنازل المهجورة، ها هو  
المشهد يتكرر، أناس تخرج ليلاً وتعود نهاراً، وأغلبهم كان يصطدم  
بفراغ منزله من مستهلك ممتلكاته، وجزء تفشي ظاهرة السرقات من

قبل فئات فقدت صلتها بوطنها، وتجردت من الأخلاق والمواطنة، بدأت تنتهك حرمة منازل الجيران لتسرق ممتلكاتها، وقيل أيضاً؛ الطابور الخامس بدأ يعمل على إثارة الفتنة، سراً وعلناً، لم يعد النفاق في أوج شبوبه، فالأجواء غامضة، والناس سكارى.

حاورنا الكثير منهم وشاطرناهم همومهم ومنغصات حيواتهم، وكنا ننتظر نهاية النفاق، كي تسترد البلدة حياتها، كما كانت عليها في أزمنة ليست بعيدة.

- على ما يبدو؛ أن البلدة تعرضت لسرقة معلنة! ودمار قنابل كاذبة، وحرائق عقائدية مستوردة، وتجريف مزاجي شوفيني، وكل ما يشاع هو عين الحقيقة، فهل بوسعنا أن نقول بأن حروب اليوم موجهة ضد الداخل؟ وبمعنى عام، أن حروب اليوم كلها مفبركة، مقصدها هدر إرادة الشعوب، خرسها، تكميم صوتها، غسل عقولها، قتل أحلامها، وليس آخراً؛ تغيير خارطة عيشها، خدمة لأجندات تفرض واقع حالها وخططها، فحيثما تجد أراضي خصبة صالحة لتحقيق أحلامها تفتعل الأزمات الكبرى.

- نعم بوسعنا قول هذا! حروب اليوم هذيانية، وإنها ضد الحياة، الشيطان استحوذ على البشر وأوصل جنده إلى كراسي الحكم، ها هم يعيثون في كل مناحي الحياة الخراب، وكما جاء ضمن الشرائع بأن الأسواق هي مساجد إبليس والشعر قرآنه، سأضيف أنا معلومة من عندياتي، سأقول بأن السياسة هي دين الشيطان عليه اللعنة، وحروب اليوم - كلاوات - كما نقول بلهجتنا الدارجة.

- ههههه.. حقاً كلام بليغ، السياسة دين إبليس عليه اللعنة، وكل سياسي حتماً عضو بارز في هذا الطين.. هههههه.. أقصد؛ هذا الدين.

*لوقفنا.. وجدت بقايا حديقة ملعب السكك مكاناً يمكن أن يمنحنا شبه راحة، كانت أغلب الأشجار يابسة، وجدنا مقعداً مقلوباً أنهضناه، ومن حقيبتها أخرجت ورقاً نشافاً وأزاحت الغبار وجلسنا، في وعيي أو في فضاء عيني حط بوم مرتبك مستغرب، وجاء سرب خفافيش تلبية لنعيه، ربما وجدت أن هذا أشبه بجلم يقظة وليس بحقيقة، فالبلدة بعد رحيل أهلها تداعت فيها الحياة، هجرتها الحيوانات والطيور والحشرات مع هجرة بشرها، لم أجد رغبة للتحقق من ذلك، كنت في عالم آخر مقيداً بقيود ضوئية توجهنني، وكنت مسكوناً بهاجس الحكيم، وفروضات عقلي، ومنشغلاً بزائرة ليست غريبة علي..]*

- كيف تفسر هذا الأمر؟
- تفسير ما حصل؟
- لم أقصد ما حصل للبلدة، ذلك أمر معلوم!
- ما حصل لنا؟
- هذا ما عنيته؟
- الحياة لعبة مأكرة، تتشكل من مجموعة أسرار متشابكة.



- أسرار مقصودة تقصد؟

- البشر يمتلك قدرات عجيبة، مهما تقدمت الحياة وتشظى العلم، فما زالت قوى الغيب هي التي تُسيّر الأمور، وتدير عقول الكثير منّا، أو لنقل انها تتحكم بمفاصل كل شيء فينا.

- لو اعترف العلم بالغيبيات، أو تصالحا وتعاوننا لربما توصلنا إلى حقائق أكثر وضوحاً، ربما تمكنا من تيسير حياتنا على سكة أكثر أماناً، ولما خربنا بيوتنا بأيدينا، ولما قتلنا أنفسنا بأسلحتنا أيضاً.

- ولكن قوى الشرّ هي التي تُحدث هذا الشرخ، إنها لا تسمح بذلك، لعدم عملية تلاقح العلم بالغيب ليكون أمراً ممكناً، لأن ذلك سيقصبيها من الواجهة، إنها تسهر من أجل مواصلة الحروب، ما أن تنتهي حرب حتى تُسيّر قافلة الشرّ عجلة حربٍ جديدة، حروب يدرسونها، ويخططون لها طويلاً، ويشعلون فتيلها وفق خارطة أطماع وتوقيات حيويّة، وأنا على يقين بأن يأس البشر هو سبب تعاسته، حياتنا تحتاج إلى شجاعة وتضحية من أجل الكشف عن مسالكها الآمنة، ونبذ صحاريها المهلكة، وتصهير القلوب في دورق الحقيقة لتنبض معاً.

- نعم؛ ما تقوله عين الحقيقة، إننا غارقون بذاتياتنا فقط، ولو تنازلنا عن ذاتياتنا لربما وجدنا مسالك أكثر نفعاً لنا من تلك التي نلهث عبرها للوصول إلى شيء هو فينا ونراه في نهاية الأفق، أو نراه وراء الحجب.

- أجزم أن هذا كله نتاج الجهل المتفشي فينا، وهيمنة اليأس

على إراداتنا، وعدم منح أنفسنا الرغبة في المغامرة للخروج من الدوائر المغلقة من حولنا.

- معك أتفق! ها نحن تشجعنا وضحيننا، رغم أن الحياة من حولنا نار وحرائق وفساد أذواق، وخناجر ما تزال تطعن من الظهر، ومناجل ما تزال متهيئة لبتير الورود الجديدة من حدائق الزمن، إنك صمدت في بلدتك، وأنا اخترقت مسالك المستحيل من أجل إعادة الروح ل- جلبلاء كما تود تسميتها، نحن ضحيننا وغامرنا، وعلى الجميع أن يسلكوا مسلكنا، عندها سنجد أنفسنا في رياض الأبدية وليس هناك مستحيل.

- آه.. لو تظافرت الجهود، لربما وجدنا أنفسنا بحق وحقيقة، ولما سمحنا للضغائن أن تطفح وتأكلنا كما تأكل العقارب أبناءها.  
- لو تظافرت الجهود..؟ لو...؟

*أتوقف الكلام برهته، وجدت نفسي مرة أخرى أمام شبح قط يائس يحاول أن يتسلق الشجرة، قط يشبه القط الذي باغتني عبر نافذة غربتي، أو في مرآة غرفتي، ربما هو نفسه، لولا ظلال الشجرة، لربما تأكدت من ذلك، لا بد أنه هو؟ ظل يتنقل من مكان لمكان، ومن بيت لبيت، رفعت عيني لأفتش بنظراتي الأفنان المتهدلة، تراءى لي عش يتوضح - كفضة شعر خفافس - ومن خلال أشعة قمر خجول الضوء، تتسلل كخيوط متمائلة، كان العش يتكور على غصن غير متين، لمحت القط باحتراس*

شديد يتسلق جذع الشجرة، واضعاً في ذهنه عدم إشعار الساكن في  
العش بوجود خطر مقرب، بينما الخفافيش كانت في تلك اللحظة، عيونها  
تنوهج مزججة ومرتبكة، وهي تراقب تقدم القط نحو هدفه..]

- الحرب سلبته عافيته، وربما سيجد حياة حافلة بالطعام بعد  
عودة الناس والبدء من جديد بحملات التبذير وعزائم الرياء.  
- عافية من؟

لم تعر بالاً بما قالت، بدأت بتقليب صفحات الكتب بين يديها،  
راقبت أناملها وهي تقلب الأوراق بعجالة قبل أن ترصها على فخذها  
الآخر، وضوء القمر ما زال يخجل أن يضيء بلدة نائمة رغم يقظة  
حرائق أحشائها.  
- أشتقت للقراءة!

- ربما لا نجد وقتاً لذلك! وراءنا عمل شاق، البلدة صارت  
خرية، والقلوب ما تزال تتدفق فيها دماء الغيرة والحسد، ربما نحتاج  
لجهد كبير، كبير جداً كي نزيح أوراننا المتفاعلة حتى أوان نومنا،  
قبل أن ننتهي للحكاية.. ههههه.. أقصد الحياة الجديدة.  
- ربما!

- قل لي: كيف حصل هذا؟ ما زال السؤال يلح، وخيالي يقر  
بأن ما حصل ليس نتاج مصادفة في مكان خرب، كيف تحقق حلماً  
خيالياً؟ ومئات الأحلام البسيطة للناس الفقراء والمبتهلين منذ فجر

الخليقة لم تتحقق، ولن تتحقق حتى قيام الساعة.

- هذا ما يؤرقني.. أيضاً.

- ماذا تسمّيه؟

- قد أسمّيه توارد خواطر، علامة معروفة من علامات النفس البشرية الصادقة، أو الظامئة للحقيقة، عندما تُحزَّبُ البلدات بأيدي حُماتها وتُشرَّدُ ناسها إلى العراء، تتوسع معارك الكوايبس وتجتاح الظنون وتتوسع مدارات الخيال، عندها كل شيء ممكن أن يحدث، وحتى المستحيل بوسعه أن يجد لنفسه فرصة تحقيق، لوقف الحيف الذي يلاحقه عبر كل الأجيال.

- يأخذنا الحوار شرقاً وغرباً، لكنني أجد نفسي في قلب المحنة، فهي ليست محنة تحديداً! بل هاجساً نعيشه معاً، سأعيد ما بدأت به، حقيقة؛ مع احترامي لكل كلام تقوله وأقوله، ما زلت عند يقيني أنني رأيته وأتفقت معك على أن نلتقي، وربما كما تقول أن روحينا قد التقتا في لحظتي انفلات ساميتين، واتفقتا على أن يكون هذا الاحتفال الغريب بين خرائب البلدة، من أجل بعث جذوة عافيتها ولو بالنزر اليسير كما كانت.

*[وافقتها بإيماءة رأس، لم أرغب أن أعقب على كلامها، فوجدت فرصة لتكملة كلامها، كان مشهد القط والخفافيش والعش يأكل فكري، ويسلبني بعض تركيزي، أو فرصة إصغاء أعمق لما حصل، ولما*

سيحصل بيني وبين كائنة متسامية لا تشبه كائنات بلدي، تمتلك روح المغامرة، وهذا ما كان يخالف أرواح كائنات بلدي، في أقل تقدير، في هذا الجانب الحيوي من طبائع البشر القاطنين في رقعة جغرافية واحدة، لها أطلاع واسع بمجريات ما حصل، وتمتلك، على ما أظن، وجهات نظر شبه حاسمة، تصب في نهر المستقبل، وتتشاطر مع توجهاتي ورؤاي ووجهات نظري، وما كنت أعتقد به.. [.

- لا أجد اختلافاً بيننا! قوة ما دفعتني - على خلاف الليالي المنصرمة - أن أخرج إلى صمت البلدة، أن أتجول بين خرائبها وتلك طبيعتي ونيران حكاياتي، قبل أن أجدك ماثلة أمامي.  
- شعرت بمثل ما شعرت به، ولم أمهل نفسي وقتاً للتفكير، وربما للتأخير، أو إلغاء الهاجس اللوح، ووجدتها فرصة مناسبة للمغامرة، ووجدتها فرصة نادرة ومثالية أيضاً أن أنتشل ما عندي من بقايا مصادر علمية يستحيل الحصول عليها في وقتنا هذا.  
سحبت شهيقاً ممزوجاً بعطرها، وشعرت براحة تستوطن عروقتك، مُغمِضاً عينيك، والليل من حواليكما، أوقف إكراماً لكما عبثه وجنونه، أوقف مرور النتانة، ودخان الحرائق، بل ساهم في كنس من فوقكما ومن حولكما كل ذرة غبار، وأنت تعرف في حضرة الحب تغدو السماء ضاحكة، والأجواء نقية، والهواء يسكر، ومن فوقكما السماء كانت واضحة، والنجوم زادت ألقاً، مما فاضت فيكما

دورقي الرغبة لمواصلة الحوار .

- عطر التفاح!

ضحكت.. ومن خلل الضوء الشاحب بانث أسنانها شبه ناصعة، صفًا أسنان منتظمة، كرفي كتب راقية التجليد على رف مكتبة أبنوسية الخشب لامعة، نثرت شعرها بهزة مباغثة ومغناجة إلى حدٍ ما، ورأيت كيف تناثرت رفوف أوراق ملونة كما تتناثر الحلوى على هامات العرسان.

- عطري المفضّل!

- التفاحة لا تحتاج إلى تزويقات ومساحيق ماكياج خدّاعة..

ههههه..!

- هذه من سخف حياتنا، إنها تبعدنا عن جذورنا، وتلقينا في مستنقعات الضياع، لا أعرف لم نخضع لفلسفات الحياة المزيفة من حولنا؟ لم لا نملك وقتاً للابتكار؟ وقتنا مخصص للحروب كثيراً.. ووووو.. هههههه.. للحب قليلاً.. هههههه..

- الناس تمشي على مدماك الواقع، وواقعنا حقاً كما تقولين

حرب وحب.

صمت..

أطرقت برأسها إلى الأرض، وكنت ناحتاً عينيك فيها، رغم انشغال عقلك بفكرة القط والبوم والخفافيش والعش، بدت كأنها تبحث عن وسيلة لتغيير مجرى الحديث، إنها لعبة ماهرة لعاشقة مثالية تجيد فن صياغة شباك اصطياد طرائدها بدقّة ودراية..

- قل لي.. هل كنت تتوقع هذا؟

- خرجت لأتحرى، ورغم عدم عقلانية الفرصة، سهرت طويلاً،  
ولحظة غفيت وجدت هذا الحاصل قد حصل، ظل يفرض حضوره  
فنهضت مستفزاً، عشت لحظات حرجة متأرجحاً ما بين الشك واليقين،  
رغبت أن أتحقق من تضاعيف الكابوس، قوى ضوئية أجبرتني أن  
أندفع، أن أتلاشى، وأن أركب موج التحدي، ولم يخب ظنّي.

*[هزّت رأسها ، شعرت بهبوب نسمة هواء جرّاء تناثر شعرها، لفحت  
وجهي وأعادت لي تمام اليقظة، كنت أركز عيني في تلك اللحظة على  
شفتيها، تفتحان وتتحركان ودفق كلمات ضوئية ينطلق، كلمات تشيع  
الدفء والانبساط، كانت تنسكب من بين شفتيها، وتنساب إلى أذني  
كأنها موسيقى هادئة، كما تنساب كلمات حكاية نادرة إلى الأعماق  
الظامئة، لتطرب البدن، وترقص العروق الثملانة، وتنعش الذهن،  
لكنس الهموم المتركمة، وتهيئة مستلزمات الرغبة في التحليق..]*

- ما زالت الحيرة تحيرني، كيف حصل هذا؟

- ربما بحثت كثيراً للوصول إليّ.

- أظنك هذه المرّة ذهبت بعيداً؛ إن من يقودني هو الحلم، والحلم

حكاية غير مدوّنة، لا توجد في حساباته ظنون ونسب أخطاء، مع

وصولي إلى مشارف البلدة، بحثت عن الوجوه كي أجدك بينهم، وجوه شبحية متزاحمة، كلها متوارية خلف غبار الحرب، وغطاسة في دخان الحرائق، وجوه أتعبتها الوعود الكاذبة، ومزقتها الغيرة والخوف من الآتي. ما إن وصلت المكان، رفرق قلبي وخفق عالياً، وجدت نفسي حائرة، قوة تقودني وتجبرني أن أطيع أوامرها، قبل أن أصطدم بك، تقف تحت شجرة المشمش، وعلى ما يبدو أنها تحدت ورفضت أن تموت تضامناً معك.

- ما حصل لك حصل لي.

- دائماً يخالجنى الشعور ذاته، أكتشف نفسي فاقدة وعيي، ومنقادة بيد مجهولة، أنعم وأذوب في وجوه تبدو لي أليفة أعرفها، وأعرف جرس أصواتها، أعرف ما يدور في جمجماتها، حتى أنني ألهج بأسمائها، ودائماً أصطدم بعواقب وخيمة، أجدهم يوقفونني ويستنزوني بأسئلة لا طاقة لي لبيان مراميها، أقف خجولة، لا أملك وسائل دفاع، بعدما يثبتون لي أنني ناديتهم بأسمائهم، رغم أنهم غرباء، وأنا عابرة سرير ١.. ههههه.. عفواً؛ عابرة سبيل.

- ههههه.. إنك تمتلكين فوضى الحواس ٢.. ههههه!

- ههههه.. لا.. قد أملك إلى حدٍ ما ذاكرة جسد ٣.. ههههه!

- حقيقة؛ هذا الشعور بدأ يتملكني، ودائماً أشعر بأنني أقع في مستنقع محنة، وأني أتوسل كي أتخلص من كل مزلق أقع فيه، حقاً.. بخراب الوطن تخرب عقول المواطنين.

- كنت أعزو ذلك جزأً قراءة كتب الغيبيات والفلسفات القديمة،



مما أسقطت نفسي في هوس وظنون، تتفاعل لتغدو كوابيس تقض مضجعي، في مرات كثيرة قد فكرت أن أترك تخصصي الدراسي بعدما اتهموني بفقدان الرشد والخيال والسرمنة وووو.

- لدي قناعة بأن لحظات السمو والتسامي والاندماج واستشراق الغد متواجدة في مخيال العقل البشري، فعندما ينغمر المرء في عمل ما، نراه تتصب جوارحه وأحلامه كلها في نهر عمله، في يقظته وفي منامه، وأنا أيضاً أواجه المصير نفسه، ولي اهتماماتي الأدبية ومولع بقراءة كتب الأحلام والباروسايكولوجي، ومولع لحد الوله بالبحث عن ظاهرة السحر عند البابليين والفرعنة، وأكتب الحكايات العجائبية التي تتوغل في حيوات مفتعلة للجن، خضت كثيراً في متاهات الكوابيس والظنون، وما زلت أخوض في احتفالات شرود الذهن، ها أنا هنا تحت سطوة واحدة منها، سطوة إعادة الوطن لسيرته، ورغم فداحة الخراب، أجدني صابراً وصامداً في بلدة تسكن جوف حوت الظلام، ومن وجهة نظري؛ إن ركوبي حصان المستحيل، هو غاية غاياتي، وهو سبيلي الوحيد لإدراك حلمي الكبير.

- هل من الممكن أن أطرح فكرة ولو من باب المزاح؟

- ولم لا نقول من باب الجد.. ههههه.. الج-د.. اح؟

- ههههه.. لا فرق. هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- قد أتفظ عن الجواب!

- أتشعر بالحساسية تجاه الغيبيات؟

- ليست حساسية! بل ثابته الحياة، يتعذر المساس بها حسب



- آه.. أنتِ فيلسوفة حقاً! إنه اكتشاف مدهش، على الفلاسفة أن يميزوا ما هذروا به والبدء من جديد، انطلاقاً من فكرتك لإعادة صياغة أفكارهم عن الوجود، وقد تتوالد أجيال بشرية مثالية متعافية من التباغض والتشاحن والحروب العبيثية.

- لا تجامل، مجرد فكرة خطرت.

- بل فلسفة حضرت.

- أنها فكرة للمناقشة.. أرجوك.

- بل فلسفه للمدارسة ويجب تعميم هذه الفكرة للبدء بمرحلة حديثة للفلسفة.. ههههه.. لنقل الربيع الفلسفي.. هههههه.. أعدك بأنني سأتعهد بذلك لو عاد الوطن لسابق عافيته، يمكننا أن نقيم أول تجمع بشري للبلدة، لنتحدث عن أسباب سقوطها، وسبل الارتقاء بها من جديد، ارتقاء يليق بمكانتها.. هههههه.. مكانتها ال-تروبيكالية.

*[أدرت وجهي بصورة لا شعورية ومرتبكة لصدى ارتطام مباحث،*

*تلامح لي القط ساقطاً وهو يحتضن الكرة العشبية المنفوشة، والخفافيش*

*تضح بالضحك..]*

- أخطأ التقدير؛ ربما القط لا تمتلك حواساً توروبيكالية فوق العادة.

- هل تتكلم معي؟

انتبهت لنفسك، وتداركت الموضوع:

- ها.. كلا.. ما زلت أشعر بالشroud وسحر كلمة ال- تروبيكالية .

[كان القمر يختفي ويظهر من خلال مروق غيوم حلبيية، كأنها في  
خضم لعبة الاختفاء والظهور، ونسمات الخريف بدأت تفرض لسعاتها  
وهي تهب من جهة النهر، فتشت عن القط، لم يكن هناك قط، ولا كومة  
قش، ولا خفافيش ضاحكة كما ظننت..]

- لم يحصل لي هذا من قبل!

- كوني مطمئنة من هذا الجانب!

- هذا ما يجعلنا أكثر صراحة، وتقارباً في وجهات النظر،

طالما هناك قوة تشدنا لبعضنا .

- ثمة أمور حصلت لي وألقتني في دوامات من الحيرة والمزلق،

هي كثيرة، وأرجو أن لا تكون هذه واحدة من تلك الأحابيل القدرية،

رغم أنني لا أشعر بما كنت أشعر به في تلك الشطحات الذهنية

التي خلقت في الكثير من السليبات .

- حبذا لو أسمعني الأكثر غرابة منها، لأرج حدثاً طريفاً في بحثي

القادم، إنني بحاجة ماسة للمزيد من تلك الفلتات الذهنية الخارقة، لأنها

ستعطي بحثي حرارةً وغرابةً وتقدراً تروبيكالياً.. هههههه.

صمت..

رحت تنظر إلى الأرض، كأنك في محاولة لملمة شتات الحكاية،

وكانت هي تنظر إليك بشيء من الغرابة والرغبة، تستيقظ فيها مشاعر تدفعها لترحف نحوك، وكان صوت شهيقها مرتفعاً جزاءً ضغط رغبتها، رفعت رأسك واصطدمت عيناك بفسفور عينها، سمح لسانك أن يتحرر من وجومه، ويسكب ورماً من أورامه.

- ذات أصيل ولجت محل **جواهرجي** ه - تكلمت بهدوء، كأنك تستدرج الحادثة باحتراس - ولحظة لمحني تشبث بي، ادّعى أنني نسيت نقده ثمن قلادة اقتنيتها منه ذات مساء مزدحم، حاولت أن أقنعه، أو أتخلص منه، ولابد أنك تتذكرين في تلك الأيام، كيف تكاثرت الادعاءات الكيدية، أيام الجوع المركزي العام، والحصار الكوني المحكم على البلاد والعباد، كان ال- بعض يخلق تمثيلات غاية في الغرابة من أجل الحصول على مالٍ سهل، أو تحقيق فصل عشائري مُفبرك، وضعت هذا في بالي وأنا أتلاسن معه، تدخل البعض لفض النزاع والاحتكام فيما بيننا إلى العقل، عرضت هويتي، فاحتكموا لي بعدما عرفوا أنني من بلدة الحكايات، بلدة **جلبلاء** كما أحب تسميتها، وأنها بعيدة عن بلدة **الجواهرجي** بمسافة تربو على أكثر من عشرة فراسخ، بطبيعة الحال، لم يقتنع بكلامي، ولم تنفثي بالونات غضبه من على وجنتيه المحمرتين، وفي حدقتي عينيه الجمريتين، مضت توسلاتي أدراج الرياح، كأنني كنت أتلاسن مع صخرة جرداء، أو أتكلم مع حمار جائع، تمكن من انتزاع بطاقتي الشخصية كرهينة، وعدت مقهوراً متدمراً ولحظة لمحتتي **كوالاة** ٧ ، أردت منها أن تخرجني من شرقة حالتي،

حكيت لها ما جرى فانهاالت كمطرقة على رأسي، أجابت: ’نعم، لم يخطئ الجواهرجي.. أتتذكر؟ أم تريد أن أذكرك! أنت دائماً تقعد رشذك، ولا بد أن هذه الكتب والحكايات ستأكل رأسك قريباً، ذات يوم ستسيك، ذات يوم قريب جداً، ستسيك اسمك، وأخشى ذات يوم أيضاً، أنك ستساني وستقعد بيتك، ألم تكن القلادة من اختيارك؟ أنت اخترتها لي حسب ذوقك، ولم أكن أبغيها، لكنك اخترتها على أنها تليق بربقتي، وتمنحك رغبة في التقبيل والعناق، هل نسيت هذا أم أذكرك؟ ألم تطلب منه قدح ماء وأعطاك زجاجة ببسي هل نسيت؟ ألم تطوق بها عنقي في تلك الليلة؟ قبلتني كثيراً، وراقصتني برهة زمنيّة قبل أن تلقيني في سلّة رغبتك، نعم.. يا زوجي العزيز؛ كان ذلك في اللحم، وأنت تسمي اللحم حكاية، نعم في اللحم، أو في الحكاية لا فرق، في اللحم دخلنا المحل، وعند الصباح بكيت، وقررت أن تقنتيها لي حتى لو كان محل الجواهرجي في نهاية العالم، ألم تذهب من أجلها؟ هل جلبتها لي..؟“

أرعبتني زوجتي بكلامها، قررت أن أعود إليه، لفك أشتباك الموضوع وملابساته، لأسترد بطاقتي الشخصيّة، ما أن لمحتني حتى ابتدرني برحابة صدر، معذراً ومعانقاً، أجلسني وأشربني زجاجة ببسي، وأعطاني البطاقة الشخصيّة، أخرج من قاصته الحديدية قلادة، ما إن رأيتها حتى خارت قواي، حقاً إنها قلادة لمستها في لحظة ما، وطوّقت بها عنق زوجتي في ليلة لا تُنسى، وما زال طعم قبلاتها لا يريد أن يفارق لساني، وحرارة بدنها ما تزال تسكنني، قال الجواهرجي:

”إنها عادت لي“

وطرح عليّ فكرة شرائها، وقرر أن يمنحني خصماً مغرياً  
تعويضاً على ما فعل معي.

*[توقفت عن الكلام لحظة وجدتها دامعة العينين، ودمعها متفرق  
يلمع بضوء القمر، مدّت يدها وأخرجت من حقيبتها ورقاً نشافاً وبدأت  
تزيح دموعها، حاولت أن أواسيها، أشارت بيدها لي، تطلب مني عدم  
إعطاء - ما اجتاحتها من لحظة محزنة - أي اهتمام، وأن القضية لا  
تعنو سوى هاجس عابر مسّ شغاف قلبها، واستدر بضع قطرات دموع  
من عينيها..]*

- لا عليك! أشعر برغبة للبكاء، وإنما حالة طبيعية تعتريني  
بصورة مفاجئة حتى على مقاعد الدراسة، كلما اندمجت بحكاية  
تشكل هاجساً معي، لا تهتم للموضوع! مجرد قطرات دموع باردة،  
لا تتشغل بهذا أرجوك.

- ربما أيقظت فيك شعوراً مؤلماً؟

- كلا.. سأكون صريحة معك، أتعرف أن الجواهرجي هو..

هو.. أبي وحكى لي الحكاية!

- ماااااذا؟ أبوووووك؟

- نعم.. إنه أبي، وكان نادماً على ما فعله معك.

- يا للهول.. حياتنا ملحمة متراكبة، ربما هو من تسبب في هذا الاحتفال الغريب.

- نعم.. ربما كانت حكاية العقد منقذاً لهذا اللقاء.

- أنا أيضاً بوسعي أن أقول هذا.

- أخشى أن أستيقظ من هذا الحلم، رغم أن يقيني راسخ بأننا في بلدتنا، ونحن في الواقعية التي لا تندحر رغم حداثة الحياة وسورياليتها وخبطات أجنحة الحداثة وما بعدها.

- وهذا ما أرجوه أيضاً! ليس بوسعي أن أعيش الكوابيس، وأخوض أحلام اليقظة إلى أجلٍ غير معلوم!

- إن ما توصلت إليه، وهذا ما مُدَوِّن في مسودات بحثي، أننا دائماً نلحم بأشياء فوق العادة، فمثلاً الفتاة تحلم بفتى يمتلك مواصفات يقترحها مزاجها على حلمها، وفي ذات اللحظة فتى ما في مكان ما من العالم، يرسم في ذهنه ملامح فتاة أحلامه، وحين تتفق الرغبات، حين تتشابه وتتناغم، فلا بد للقدر أن يتدخل تدخلاً صريحاً، ويقود الكائنين ليلتقيا في الحلم قبل أن يجمعهما في الواقع.

- ربما أنتِ على حق! وهذا ما يجعلك تحملين بذور فلسفة جديدة، أنتِ تمزجين ما بين الغيب والحقيقة، وما بين العلم والخيال، وأرجو أن أجد بحثك ذات يوم قريب مفتاحاً لحياتنا القادمة، فحياتنا ما تزال مُعطلة، كونها غاطسة في فساد الماضي، وورثاة العقول المتحجرة، إننا نحتاج إلى عقول قابلة للتغيير، وتبديل الأحلام التي ظلت مُعلَّقة بسبب عدم توفر رؤوس باسلة تمنحها جواز المرور إلى



ممكّنات التّحقّيق .

- شكراً لمشاعرك؛ إنك منحتني فرصة طيبة لأكون في مستوى حياتنا القادمة.
- حياتنا! أه حياتنا.. سواء المنقرضة منها، أو القادمة؛ محض عربة ونحن من يسيرها.
- صمت ..

[ توغل الليل، النجوم تواصل خرق الفضاء بضفائر ضوئية ليست خجولة كما في الليالي المنصرمة، والنسمات بدأت تأتي من جهة النهر وهي تكافح لإزاحة ما تبقى من روائح المنازل المتعفنة، توقفنا عن الكلام، عيناها تلمعان، وهي تلتقي بعيني، لم يعد لدي كلام جديد، وجدت هي الفرصة الملائمة للكلام، بعدما ضغطت على زر هاتفها  
وقرأت الوقت.. ]

- حان الوقت لأعود.
- قد تتوقف أحلامي؟
- دع أحلامك تنمو حكايات نادرة، لتجمعنا كأشجار مثمرة تطعمنا.
- ولكن..؟!
- المهم.. أنا الآن تأكدت أننا في الواقع، ولسنا في لحظة تسامٍ، أو تخاطر، إننا في قلب الحكاية بالذات.

- وكيف عرفت؟

- تدفق نسيمات الخريف بطريقة مثالية، وتوقف تدريجي للحرائق، وهزيمة القط في خيالك، ها أنا بدأت أسمع رفرقة أجنحة الوطاويط وهي تكنس الليل من ديدانها، ها أنا بدأت أسمع نباح كلاب أضحت تقترب، ها أنا بدأت أسمع نعيب بوم يقتل وحشة الخرائب، ها أنا بدأت أسمع زقزقات عصافير وهي تنهياً للعودة، انظر إلى الهواء كيف بدأ يعلن عن جاهزيته لكنس آلام النفوس وخراب العقول! أليست هذه التراجيديات المتلاحمة، قبس ضوء قادم لكنس أوساخ الماضي وإعادة الأمل إلى مستقبل الحكاية!

- هذا ما أرجوه؟ أرجو أن يبدأ بكنس، القلوب من ضغائنها أولاً، والرؤوس من عجرتها، والعيون من سهام أحقادها، كي تتشكل أرضية خصبة، قبل أن تبدأ عجلة الحكاية الجديدة بالدوران وفق مسارات جديدة آمنة من خبطات التشتت، فالطريق إلى جوهر المعنى تبدأ من القلب، القلب الصافي، القلب الخالي من الأحقاد. نَهَضَتْ ونهضت معها، سرتما نحو الشارع الرئيس خلاف طريق مجيئكما، كانت المنازل وادعة وخالدة للصمت، محطة الأبواب، المحال التجارية مقلوعة الأبواب، مدلوقة الأشياء ومنهوبة، وكانت هناك حفر كبيرة تأكل لحم الشارع أحدثتها الغدائف المارقة.

- لا يدخل البوم بلدة ما لم تعشش فيها العصافير!

- العصافير أحلام المدن الجميلة متى تعود لترسم هالات الفرحة!

- أنا على يقين أن بلدتنا ستغدو جميلة في القريب العاجل.

- يحصل هذا عندما نتحد!

- ما زلت أشك في ذلك!

أطرقت برأسي، وجدت نفسي في حقل ألغام تعذر عليّ أن أفك  
اشتباكات القضية، سمعت صوتاً يهتف في:

”لا تبتئس! أنت بحاجة لبعض الوقت، كي تنال كفلين من  
الراحة، عليك أن تراجع طبيباً نفسانياً ليخرجك من أوهامك! سنتخذ  
الإجراءات اللازمة بحقك، ولكن ليس قبل أن نطالع تقريرك الطبي،  
وبيان صحة عقلك من غيبوبته“

”وما جنحتي؟“

”كل هذه الاعترافات، وما زلت تتراجع، وتتردد، وتجاهر ببراءتك!“  
”ما يحصل لي ليس بمحض إرادتي، إنّه يحصل لي بشكل  
متواصل، وأنا آمل أن أجد صدراً يستوعبني، لا أريد أن أضيع، أشعر  
أن الحياة ماتزال تحتاجني، وضياعي تعطيل للحكاية، وقتل فرصتي  
لخدمة بلدي، كي تسترد عافية أوضاعها“

.. فجأة اختفى الصوت.. وبقيت حائراً أبحث عن حقيقة ما جرى..  
ها أنت بمفردك، تجلس على كرسي تحت شجرة المشمش،  
والليل ينشر مواجيد المنازل، فضاء غامض يحجب من فوقك ألق  
النجوم بدخان وغبار وصمت شامل، ونبض قلبك يتسارع، شيء ما

جميل وهادئ يسكنك، تشعر بصوت توغل وسكن صدغيك، تريد أن تتأكد، أو تستدرج المشهد لتعيشه من جديد، هناك أشياء نسيته، نسيته أن تسأل عن اسمها، أين تسكن؟ نسيته أن تأخذ رقم هاتفها، رغم علمك أن البلدة توقفت فيها كل الخدمات، وهاتفك نام بعدما ماتت بطاريته، فما حصل قد ذاب، وليس أمامك سوى أن تعيش في لعبة الحكي، بوسعك أن تحكي ما عشت بكل حرارته، وبكل ما حدث من غير مراوغة في التلاعب بمشاعر السامعين.

*يا ترى من هي؟ ومن أين أتت؟ وإلى أين ذهبت؟ وأين يا ترى*

*سأجدها..؟*

*صوت تردد من أتون الليل، وتسلسل إلى سواقي أعماقي:*

*”قد تجدها في خربة ما! في زقاق خائق، في بيت يحترق، أو*

*تحت كومة أنقاض، أو.. أو.. في زاوية من زوايا خيالك، ستجدها*

*حتماً، ولكن؛ ليس قبل أن تتخلص من أوراك، ستجدها.. أو.. هي*

*من ستجدها، لتعيش معها حلاً جديداً.. أو.. حكاية نادرة لا تنتهي..“*

*اختفى الصوت..*

*وجدت الوجوم يُضَيِّع علي التفاصيل، قمت واستدرت ومضيت*

*متناقلاً إلى منامي، لأستكمل بقية الحكاية..]*

نهضت من كرسيك..

حاولت أن تخرق الظلام بنظرة واغلة إلى ما وراء الأشباح، كان الليل ننتاً كما هو، والهواء عفناً كما كان، وشجرة المشمش خالدة في وقفته، تراقص أغصانها، كأنها مروحة هوائية عملاقة تطربك بهواء خالٍ من الرطوبة، ومن أوضار البلدة.

استدرت ودخلت إلى البيت.

في غرفتك.. وعلى سريرك ستستلقي كما تفعل دبر كل حكاية، أو أوان اصطيادها.

ستلصق عينيك، رغم الظلام، بسقف الغرفة..

هناك تكتب نفسك.. هناك حيث البياض الشاحب تنسج

حكاياتك.

## هوامش :

١ ، ٢ ، ٣ ، عابر سرير و فوضى الحواس وذاكرة جسد : روايات للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي .

٤ تروبيكالية : مفردة عجائبية تتوارد في الأدب الأميركي اللاتيني وكان يتغنى بها الكاتب الكولومبي غابرييل غارثيا ماركيثا عندما يريد أن يعبر عن حالة مثالية تعجز الكلمات التعبير عنها. ووردت في سيرة حياة ماركيثا ل- جيرالد مارتن ص ٣٢٥ - وكالة تروبيكال كيبل - وهي وكالة غواتيمالية تابعة لوكالة أول اميركان كيبل. كما وردت كلمة تروبيكال في رواية - هكذا كانت الوحدة - ص ٦٥ ل- خوان خوسيه مياس ، بأنها اسم فندق في إسبانيا . وكذلك وردت الكلمة في رواية - انقطاعات الموت - لخوزيه ساراماغو .

٥ جواهرجي : الرجل الذي يتاجر بالمصوغات والمجوهرات الذهبية .

٦ إشارة إلى الحصار الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق

جزء غزو دولة الكويت .

٧ كوالاة : من الأسماء الكردية ، سميت مدينة جلولاء ب-

كوالاة بسبب كثرة الورود الطبيعية الملونة التي تنبت فيها في مواسم

الربيع ، وكلمة كوالاة بتفخيم حرف الكاف مأخوذة من مفردة - كُـل

- أي ورد أو وردة

## الأحد ٥ تشرين الأول ٢٠١٤

[بدأت أضيئُ ذرعاً بالمكان، بدأ جلدي يستفزني، كلما أحكته تزداد الحاحاته كي أزيد من ضغط وسرعة تمرير أظفاري على كل بقعة مستفزة من بدني، أشعر بتشققات حارقة تغريني أن أوصل الحك حتى خروج الدم، لحظتها أشعر براحة منعشة رغم تزايد البثور في مناطق الحك، عزيمتي؛ أشعر إلى حدٍ ما بدأت تفتر ولم أعد قادراً على أن أرفأ بنفسي، وأن أرحمها كي أخفف، أو؛ في أقل تقدير، أن أتجاهل ذلك، كي أتجنب إلى حدٍ ما ظهور بثور القيح والطفح على جلدي، جزاء تهرؤ أسمالي، بسبب عدم خروجي بشكل منتظم لتعريض بدني إلى أشعة شعة الشمس، كي تطهرني وأسمالي من جرب الانتظار. ماء ثلاثة خزانات نفذ، يتوجب علي أن أكون محترساً، وقد ينفد ماء الخزان الرابع، الخزان الأخير، قلق بدأ يساورني، عندها سأخرج من كينونتي، وأجدني مجبراً على سطو منازل جيرتي، لحظتها؛ سأتحول مُرغماً إلى سارق متاع منازل بلدي، وهذا آخر الاحتمالات، لذا؛ يتوجب علي أن أحترس، كي لا يحصل هذا لي، مهما تفاقمت بي الأمور، واشتدت..]

\*\*\*

مسلح أخبرك أن نقل من تسكعاتك نهارةً، وأن تُرجى تصريف  
ضجرك إلى أتون الليل، بدأت الحكّة تهرشك وتلهيك، تحك وتحك  
وتحك. آلامك تدربت على متعة الحك، وكلما تحك مكاناً ما من بدنك  
شعرت أن الحك يمنحك سكرة خبر سعيد أو نشوى حكاية نادرة.  
جلوسك يؤرقك أكثر وأنت منفردٌ في بلدة ولى زمنها وناسها،  
ونام تاريخها، نهارك يغدو دهرًا من الترقب وصراف الضجر، ولم  
يعد النوم علاجاً للهروب من عزلتك.

خرجت إلى شجرة المشمش، وقفت تبحث عن متنفس ما، لم  
تجد وازعاً للجلوس في بلدة هاجعة للصمت، ورائحة عفنة تدلقها  
المنازل ليلاً وما زلت - وهذا ما أتوقعه - تسأل نفسك عن سبب  
اندلاق رائحة الأشياء ليلاً، في الليل تحديداً، وفي النهار تغدو البلدة  
كسولة خاشعة نظيفة من أورام الحرب والهجران، ككلب تعب من  
حراسته الليلية، وسقط عند حافة الطريق العام في نوم شبه أبدي  
من غير أن يفكر، أو غير أبه بالزعيق والضجيج ومروق المركبات  
من قربه، لم تعد طائرات التحالف الدولي تستطلع في الليل، ولم يعد  
المحاربون يظهرون كما كانوا بأسمالهم الليلية.

ضوء برق من جهة النهر، اقترح عقلك فرصة مزاورة، هذا ما  
سأفترضه، وفي أوراقك وجدت مؤشرات ومعطيات حول واقعة تراجيكوميديا  
عشناها معاً، ولكي أمنحك فرصة الحكى، وأكون شاهداً إلى حد ما على  
ما حدث. سأفترض أنك ستبدأ حكايتك كما رغبت أن تبدأ.



اشوق مباحث ولحوح اجتاحني، كيف نسيته؟ ألم يكن عشقي  
الساحر؟ هذا ما يُفترض عليّ أن أطرحه، وسبق أن توّهت عن ذلك،  
وأنا رهن نقاء عقلي وبقظة إرادتي، أعلنت منذ اتخذت قراري التشبث  
بجواهر بلدي، وأعلنت الولاء التام لعقلي، هو من سيقترح مصائري  
ويقودني، لذا؛ ليس من العقلانية أن أعاتب نفسي، طالما عقلي هو  
مرشدي، وهو من يختار مسارات مركبتي، ها هو يقترح لي مسالكي،  
بدقة محسوبة يرسمها، وعليّ أن أطيع، طالما يعرف متى وكيف يعرض  
مقات وجواهر الحكمي، ليس لي خيار سوى أن أحكي كما يريد، أو ما  
يفرضه عليّ عقلي الذي يقودني وأطيع..]

كان إلى وقتٍ لا يريد أن يتباعد، خير ملجأ يمنحك خلوات  
وسعادة برفقة السيد الوالد، عشت أياماً حافلة بصيد السمك، كنت  
تُرافقه صباحاً ومساءً في أيام إجازته الدورية، ويندر أن عدتما من  
غير كيس أو كيسين من السمك، وشهدت معكما على أيام صيد  
وفير، كم تصابينا ولهونا معاً، كنّا نرمي بالطعم إلى الأسماك  
الصغيرة وهي تتزاحم وتتقاتل أمامنا، ويوم انتبه السيد الوالد على نفاذ  
الطعم ضحك بوجهنا، وأتذكر أنه قال لنا:  
”راح أقطع من آذانكما طعم صيدي“

ضحكنا.. قبل أن يبتكر طريقة لإيجاد طُعمٍ للصيد، نزع قميصه وانتزع فانيلته المشبكية وعمل منها شبكة ربطها بمقدمة عصا صنارته ومدّها إلى الجرف، أخرج حفنة أسماك صغيرة تتقاذف وبها اصطاد الكثير من الأسماك ذات الشبر والشبرين.

لم يثنِ رحيل والدك رغبتك في مواصلتك رياضتك الممتعة، رافقتك في أوقات متباعدة، قبل أن يباغتنا **عبسكة** ويشاطرك الصيد بشكلٍ شبه متواصل، تبدلت أوضاع البلاد والعباد، انحس الماء وانحسر، وغادرت الأسماك، وغدا النهر ترعةً لتصريف مياه مجاري منازل البلدة، ومأوى آمن للضفادع والحشرات الضارة.

مات النهر، أو جف، ولم يعد صاحباً كما كان، لم يعد السمك يتواجد بوفرة، و**عبسون** أحد فرسان رهطك أيام حرب الخليج قد اختفى من البلدة، قيل إنه غادرها إلى مكان ما خشية القصاص جزاء التهديدات التي لاحقته حتى في منامه، ناس تؤكّد:

”أنه تكلم، ولكنه لم يتوضح كلامه، وفهمنا منه ما أكده، أنه لا بد أن يخنفي بعدما جرى ما جرى، وأكد بصريح اللسان، أنه سيهاجر البلدة سريعاً، وربما البلاد أيضاً، إن توفرت له الفرصة المتاحة“  
وجد بلدته، لم توفر له حياة آمنة بعدما أراد القدر أن يجعله صلوك هزأة، رغم أنه أعطاه روحه وشبابه أيام محنة **خمبابا**.  
وقيل أيضاً على لسانه:

”كل بنات البلدة رفضن الاقتران بي، فلا داعي أن أبقى هنا بعدما رمانى قدري علكةً في أفواه الجميع، بعدما وجدت أمام باب بيتي ورقة تهديد بتصفيتي“

غادر عيسبس من غير أن يترك خبراً، متخفياً هارباً مقتولاً، وتضاربت حول مصيره توقعات وظنون وأقاويل، وصار من يومها محط تندر ومضرب أمثال إلى وقتنا هذا.

النهر ناداك من جديد في ليل متأزم بالصمت، هذا ما أتصوره، وأنا أرمم شظايا حكايتك، لا بد أنه أغراك، وكنت تؤجل زيارته بناء لمتطلبات عقلك، وربما لفرضيات الحكى وتناسق تسلسل أوراك أو لنقل حكاياتك، كونك لا تمضي من غير قيادة وأوامر عقلك. كلما خرجت لتجلس تحت شجرة المشمش، شعرت بهباب نديّة قادمة من جهته، سأفترض أنك سحبت باب البيت ومضيت نحوه، تجررك أحلامٌ قديمة، وذكريات تريد أن تجددها.

وقفت على الجرف:

”يااااااه“ . لا بد أن لسانك تأوه.

”يا لتلك الأيام التي تدرجت سراعاً“ . سؤال مفترض أنك طرحته.

ها أنت تقف حيث وقفت ذات ليلة مجنونة، ليلة احتشدت الناس لنتهي معركة غير متكافئة مع مارد سكن ماء البلدة وألقفها، وفق حسابات عقول أبت أن تغادر قديمها.

في تلك الليلة.. كنّا نتجول كعادتنا بحثاً عن حلول لضجيج يسكننا لحظة وقف عبوسي أحد رجال رهط الخير أيام خمبابا، يوم تكالبت الأمم على البلاد حصاراً وحراباً، وانتدبت نفسك لوقاية البلدة من الطاريين ونهّازي الفرص، أو أن تعكير المناخ السياسي، والهذيان المجتمعي، ووعكات البلاد الحربية.

لتعذر عليه استرداد أنفاسه، وظل يرتعش وهو يجتهد لضبط كلامه، ومن حوله، حاولت الأفواه جاهدة وهي فاقدة لتوازناتها، أن تمنحه فرصة إخماد هلعه، حاولوا أن يجهضوه من طغيان الصدمة، ربتوا على وجهه، رشقوه بالماء، وطببوا على ظهره، كي يستردوا له بعض الهدوء، ليقول ما يقوله بشكل مسموع ومفهوم..[

(أبو العبس) بقي يتأرجح بين أمواج بشرية تتزاحم وتتدافع من حوله، وما أتى به ليس بغريب حكاية على الناس، فأى خبر جديد، جاد أو هازل، عن مارد النهر، كان بإمكانه أن يدخل الناس في هذيان عارم، ويقحمهم في معمعة جدال عقيم، فالقضية باتت مركزية وشغلت أحوال الجميع، حرمتنا من فرص الراحة، فكلما أتى فصل الصيف طفت قضية المارد على مسرح الليالي والنهارات، لتغدو الشغل الشاغل للجميع، وما كان يعني الناس أي خبر مهما كان مصدره، يخص، كابوس كتم الأنفاس وبتش العقول، فهو خبر يذني الناس أكثر من ساعة الحقيقة لوقف نزيف أحلام تعطلت، وظلّت تُطعم خوف كثيرٍ من أناس ما تزال تؤمن أن الفجر خدّاع، ولابد أن يمسك الواحد خيطاً أبيض، كي يتأكد من مصداقيته، ساعة بساعة كانت الناس تنتظر أي خبر يريح البال ويخمد، أو يخفف ضربات القلب، وينيم في الرؤوس هاجس النهر ومارده العجيب.

إجلبلاء.. بلدة عشوائية البناء، ترتمي على نهر كان صحاباً حتى وقتٍ قريب، قبل أن يغدو مجرى لتصريف مياه المجاري، من جرف النهر، تحديداً من جهة البلدة، وبأدق أحداثية خلف مركز الشباب، وتحت شجرة منقوسة عملاقة، يمتد لسان صخري مدبب كلسان سحلية خرافية انطلق لقنص حشرة، وتحجر لسان تلك السحلية لقوة سحرية مجهولة، وبقي ممدوداً إلى أبد الأبد، هذا ما أراه ويراه الآخرون، لسان حجري ممتد لمسافة أكثر من مترين فوق النهر، عليه يجلس شباب عصر كل يوم وهم يحتضنون كتبهم، لا رغبة لديهم للقراءة، طلاب يهربون إلى هذا المكان الساحر، حيث الماء يمر مروراً موسيقياً من تحت اللسان، يدخل متدفقاً، كأن الماء يتزاحم من أجل المرور من تحت الصخرة لغاية ما، طلاب يجلسون ليدخنوا السجائر، بعيداً عن أعين ذويهم، يجلسون لصقاً، ويدلون بأقدامهم إلى برودة الماء، فتنتابهم مشاعر راحة مشتركة، ويتحسسون بانتعاش مشترك نغزات أفواه أسماك صغيرة تدغدغ أقدامهم، دخان سجائرهم يعبث ويُنتن الفضاء، وأسنانهم تقذف ب- قشور حب عباد الشمس إلى الأمواج الصغيرة المتصادمة، فتتعارك عليها الأسماك الصغيرة، وسط ضحكاتهم وصياحهم. ابتكر أبي فكرة التكبير لإشغال المكان، بغية حرمانهم من الجلوس للعبث والمجون، وفي باله غاية أخرى، قتل جرثومة تمتمين أواصر الكسل فيهم.. [

على صخرة شاكر ١، كل ليلة، كان عيسون يجلس مرسلأً خيظ  
حظه إلى الظلمة المترججة تحت النجوم الكالحة، وظلال أشجار  
تعلمقت جراء شيخوختها، يجلس بشيء من الخوف، تحدوه رغبة  
اصطياد إحدى سمكتي بز ٢، قيل إنهما تسرحان وتمرحان كل ليلة على  
ظهر الماء، وفي فجر النهارات تتبخران على طريقتيهما الخاصة،  
كائنان مائيان، ولكل كائن غروره وجنونه، يتمازحان ويتسابقان، أو  
يتحديان بعضهما على بساط الأمواج المتلاطمة، وربما ينتشيان  
للملاطفات الغزلية بينهما، سمكتان قيل إنهما قدما من سد دربند ٣  
بعدهما فتحوا الماء جزاء زيادة المنسوب بعد موسم شديد المطر، مضافاً  
إليه ذوبان ثلوج الجبال، فصعد المنسوب إلى حد لا يطاق، وبدأ  
يضغط ويلطم أبواب السد، وخوفاً على السد من الهد، حرروا الكثير  
من المياه المخزونة، ففلتت أسماك كثيرة وكبيرة، منحدره نحو الجنوب،  
لتستقر في نهر البلدة، لوجود مقومات العيش والمنعة لها.

*لفي تلك الليلة، ليلة القلق الجماعي، أو الأرق الأزلي كما شاع  
فيما بعد، عباس شعر كما أسر لي بشيء غير طبيعي، وأنفاسه بدأت  
تتحسرج لرجفة مباحته استفزت عروقه، هذا ما حكاه بالضبط، وظل  
متمسكاً بهذا الكلام:*

- تمكنت من الهيمنة على حواسي الخمس، واستغنت بخيالي،  
وتهيأت لمعركة باتت وشيكة! فالنترات التي كهريت أنامله، كما صرّح،

عبر خيط الصيد المنغرز في ظلمة الماء، ما هي كما تصور، إلا جوع  
أحد البزّين، والبدء بابتلاع الطّعم..]

عند الساعة العاشرة والنصف من يوم الأحد من شهر آب من  
العام ٢٠١٤، وما أن وصلنا أمام قاعة آكو على مرتفع أرضي  
يطل على شارع المحكمة لتسليم ملفاتنا من أجل الحصول إلى منحة  
المليون، وإذا بشخص مهندم يلبس نظّارة وقف أمامي، كنت مشغول  
الفكر، معذباً، بعدما دخنا من الملاحظات واستساخ المستمسكات  
والتزاحمات البشرية لغرض تسليمنا مليون دينار كئمن فقداننا الحياة،  
وممتلكات منازلنا، لحظة نزع نظّارته، وإذا بي أصطدم به، لم  
يُمهّني فرصة لاسترداد ريقِي، وأن أفه بشيء كالترحيب به مثلاً،  
صاح بوجهي:

- أنت؟ أكاد لا أصدق نفسي؟ قبل أن تحدثني عن أخبارك،  
أرجوك، خبرني عن قائد حملتنا زوراب أفندي؟
- بين مصدق وشاكٍ جرّني من يدي، ومضينا إلى ظل شجرة  
استغله صبي ليسترزق، شربنا الشاي.. قلت له:
- أ..أنت بلحمك ودمك؟
- منذ مدّة وأنا أتردد إلى هذه المأساة بحثاً عنكم!
- ضاع كل شيء يا عبّاس! ضاعت أحلام بلاد كاملة!
- خبرني عن زوراب أولاً؟

شرحت له ما أعرف، تأسف لمجهولية مصيرك وأنت تخلفت  
عنا، أخذني إلى مطعم داوا في سرجنار بمركبته الحديثة، تكلم لي  
عن حظوظه الدنيوية، بعدما هجر جيلباء وهو الآن يملك نصف  
فندق بعدما تزوج من امرأة ثرية بمصادفة خرافية، كان واقفاً في  
يوم تعذر عليه أن يجد عملاً، وجد شاباً مرتبكاً، وكان كلما حاور  
مجاميع متجمهرة غادرهم داعم العينين، تقدم منه ولبى دعوته، تبرع  
بقنينة دم +O لأمه مجاناً، وفيما بعد وهبت أمه نفسها له بعدما  
أكدت له: أنه أنقذ حياتها من الموت، وكما شرح لي حيثيات انقلاب  
حياته من الأعمال اليومية إلى مالك نصف فندق، وزوجاً لامرأة  
مات زوجها بجادث سير، أغمي على عباس وبقي في المشفى،  
وحين عرفت تلك المرأة بذلك، أرسلت إليه شقيقتها، وتطورت الحكاية  
سريعاً إلى زواج سعيد.

طال بنا الحوار، أعطاني رقم هاتفه، لكن هاتفي سُرق في زحمة  
تنقلتنا وملاحقاتنا الدوائر والمنظمات الوهمية، وتعذر علينا إيجاد  
مدارس محترمة لأطفالنا.

قال لي بعدما استذكرنا ليلة الزحف بعد ضحكة طويلة ضحكها:  
- في لحظة هيجان الموج وشد الخيط من بين أناملي المتوترة،  
شعرت بأن معركتنا قد بدأت، تراجعت إلى الوراء كي أعطي نفسي  
فرصةً مثلى للمقاومة، خشية رد فعل مباغت منه.

- ههههه.. إن كنت حقاً كما تقول، وتوقعت بأن أحد البرزين  
قد تحرش بطعم صنارتك، كان حرياً بك أن تتأكد أولاً، أنّ موج الماء



هو من حرَّك الجثة وأسقطك في سلَّة الوهم؟  
- ثق يا بن بلدتي نترات الخيط كانت غير مألوفة، كانت تتسارع  
وتقوى فشعرت بشيء عملاق مخادع يحاول سحبي نحو الماء.  
- هههههه.. ربما من فرط خوفك يا (أبا العباس).  
- حقيقة؛ البز استعمر عقلي ليل نهار، لذلك انصبَّت مشاعري  
كلها في تلك اللحظة عليه.

- خبرني؟ هل تود زيارة بلدتنا لو عادت؟  
- سأقيم أحفالا نادراً هناك، وعلى صخرة شاكر.. هههههه.  
عباس اختفى.. وتناثرت حوله أقاويل بين فراره من البلدة،  
وتصفية الحساب معه.

من هذا المكان حيث تقف ، وقفنا نستطلع بدء احتباس الماء،  
كان معنا، وحكى لنا كيف لهث، وهو يبدأ بسحب صيده المزعوم،  
كنت أنا غارقاً في الضحك، وأنت تمازحه وتشاطره الكلام:  
”كدت أن أفقد توازني لولا بروز كتلة قاتمة بدأت ترتكن إلى  
الجرف المتمازج مع العتمة، وطغيان لون الماء الداكن، لم أستوعب  
القضية، تركت الخيط ولدت بالفرار مخترقاً الأحراش، غير مهتم  
بسكاكين القصب المتمايل وهي تشرط وجهي ويدي“  
” أخشى ذات يوم - هذا ما قلته أنا في تلك اللحظة - أن  
تلقي بصنارتك وتصطاد نفسك.. هههههه.. لتخبرنا أنك اصطدت  
حوري ماء.. لا حورية يا عبوسي“

ما زلت أتذكر كيف سقط عباس بيننا. كُنَّا ضمن حشد شبابي

نتناقش مستويات الفرق الصاعدة إلى كأس العالم في أميركا ١٩٩٤. كنا نتراهن على منح الفرق حظوظها للظفر بالكأس، نعم.. أشهد على تلك الواقعة عزيزي زوراب، لقد رأيت كيف عسكة جاء لاهتأ من جهة النهر، وكيف سقط بيننا، وأعدنا له بعض هدوئه قبل أن يصدمننا بالخبر، كل ما جاء في قصاصات كشكولك جاء مطابقاً لما شهدت وسمعت في تلك الليلة الأبدية من حياة بلدتنا، أعدنا له تنظيم أنفاسه، وأتذكر أنني سكبت طاسة ماء بارد في فيه، قبل أن يجلس ويقص علينا الحكاية.

نعم عزيزي (أبو النداء) لم نركن للهدوء، أولينا.. بسبب فداحة القضية كلامه آذاناً واعية، وما هذى به من كلام مشتبك وملتبس وجمل متداخلة، لم يكن محض خيال صرعه، أو هاجس ظنون راوده، نعرفه حق المعرفة، متواضعاً خدوماً سباقاً لكل عمل مجاني، لولا زلته التي لا تغتفر، الأمر الذي دعا إلى تدخل القدر، ليسوقه إلى مكان آخر، حيث الحظر ربض في انتظاره، ليصير ما صار إليه.

وحكاية كابوس النهر كانت رائجة ومتغلغلة في أعماقنا، كُننا نقتنا وبال أمره، وما رواه عباس لنا، أنهض ساعة الحزن لتدق دقة الهلع، وتقدف بالسامعين هارعين نحو المنازل، ناقلين الخبر الأكيد والنهائية الحتمية للكابوس.

دخلت البلدة - من غير سابق وعد أو اتفاق - في دوامة من الهذيان، وفي ظرف ساعة بدأت الناس تتدلق إلى الأزقة والساحات وهي تهذي، تجتمع وتتفرق لتنتشر الحكاية وتتوسع لشهر البلدة

حتى منبلج الفجر، محترقة على جمر الانتظار، وتصاعد منسوب الانتقام في أبدان المفجوعين.

وقبل بيان الخيط الأول للفجر، تدافعت الجموع البشرية، وربما رأيت كما رأيت كم نفرٍ كان يرفع سكيناً، أو هراوة، أو منجلاً، أكتاف تضرب أكتافاً، والغبار بدأ يلف البلدة، تناهقت الحمير، وتتابحت الكلاب، وتصايحت الديكة، في قيامة غير مسبوقة، كأنها أعلنت بيعتها، أو نفخت أبواق النفير لإدامة زخم الغيرة في الأبدان العاطلة من الخطوط الخفية.

*لم تكن صولتهم الجماعية وليدة تخطيط مسبق أو مبرمج، بل كانت في غاية العفوية، تشكلت على نيران القلق، مذ غادر شاكر فتى البلدة الوسيم في تلك الظهيرة الأليمة، يوم كان يعرض بهلوانياته كدأبه دائماً أمام جمع غفير من الشباب والصبيان، كانوا يحتشدون من أجله على حافة النهر، وكان هو يستعرض مهاراته في فن الغطس، يرتقي الجذع الأعلى للشجرة المقوسة نحو وجه النهر، قبل أن يطلق صرخة كصرخة طرزان؛ وهو يُحلق في الفضاء، مشفوعاً بعيون تلاحقه، وأفواه فاعرة، وأيدي تصفق له، قبل أن يشق وجه الماء بيديه قبل رأسه وبدنه..*

سأفترض أنك تحركت نحو الشجرة المقوسة، ما تزال صامدة رغم شيخوختها، تحاول أن تلاحق الأغصان المنقرعة، لم يكن شبح شاكر

يتشكل في عينيك، ربما كنت تراه كما كنا نراه نحن، كيف يعتليها بلا تشبيه كقرد، ليقذف بنفسه إلى الماء، إنها شائخة الآن، رأيتك كما رأيناها وهو يطير في الهواء، وهو يفعل حركات أوكروباتيكية، يتلاعب بجسده في دوران متواصل قبل أن يشق الماء بيديه، ربما كنت تروم أن تفعل ما يفعل، كما كنا نتمنى أيضاً أن نفعل ما كان يفعل، لكن حضرة السيد الوالد، ربما حسم أمر رغبتك، كما حسم أولياء أمورنا رغباتنا، تاركاً فيك، كما تركوا فينا حسرة لا تبلى:

”حين تكبر سوف لن تفعلها؟“

”بابا.. لم لا أفعلها عندما أكبر؟“

”حين تكبر لن يعود ماء النهر متواجداً كما هو الآن يا بني!“

لا بد أنك بقيت مستغرباً كما بقينا مستغربين، تريد جواباً كما أردنا

جواباً، وحين لمح حيرتك كما لمحوا حيرتنا، وأفهمك كما أفهمونا:

”حين تكبر كل أنهر البلاد ستجف!“

بقيت كما بقينا حائرين، تحاول كما حاولنا، أن ن فك لغزاً يتعذر علينا فك مغاليقه، قبل أن تتحقق نبوءة آبائنا، لنقاء قلوبهم وفطرة آرائهم، تقاوم التعقيد، وتشابكت لديك الأمور كما تشابكت لدينا، تشتت فكري، وبقيت تفسر كلامه كما حصل لنا من تشتت وحيرة ووجوم، فالسيد الوالد ربما لم يُعقب أكثر مما قال، وبقي الجواب عالقاً حتى كبرت كما كبرنا، وعرفنا الجواب، ها أنت ترى كما رأينا، كيف أن أنهر البلاد فقدت ماءها جزاء احتباس المطر، وسدود دول الجوار وحروبهم المائية، وبلادة عقول ساسة البارحة واليوم والغد.

ها هو شاكر يرتسم أمامك، كما كان يرتسم لنا بنحافته ومهارته وشبوطية ه بدنه، أكف تصفق وشاكر يشتعل عناداً وغروراً وشجاعة، ليواصل بهلوانياته، يعتلي أغصان الشجرة، يبرز صدره، يلطمه بكفيه، مطلقاً صرخات مثل صرخات طرزان القردة، قبل أن ينطلق إلى الفضاء مكوراً بدنه، وقبل أن يوجه نفسه إلى الماء، كطائر صقر ينقض على طريدة من عل.

يوم ضرب شاكر الصخرة برأسه، وهبط إلى الماء ليختفي إلى الأبد. خرجت الناس لهرج شاع كأسطوانة غبار تتلاعب بها ريح مباغته، هرعت مع الهارعين إلى جهة النهر ووجدت البلدة واقفة بخشوع، لا أعرف إن كنت واقفاً معنا تشهد ما نشهد وما حصل في ذلك اليوم المرعب، كيف كانت الألسن تهدر، والريح تُضخم الكلمات، والقلوب تسارعت وانتظمت في نبضات مرتفعة الصوت: ” غرق شاكر.. مات شاكر.. مات طرزان ديالى!“

*الليل رسم ملامح الفوضى، وصار من المتعذر أن تميز الرجال من النساء، كل شيء تداخل واختلط لقوة الألم المدفون فيهم، فعل الانتقام تناسل وجمعهم ودفعهم من غير سابق نداء، تصاعدت زغاريد النسوة، وكانوا على بعد خطوات من الحافة المطلّة على النهر، كان الفضاء محجوباً بالطيور والعصافير التي خرجت في فرع من أوكارها، وراحت تلطم بكل شيء، كانت الخفافيش تحلق مجنونة، نباح رهيب*

لكلاب أسطورية، وصياح ديكة فولاذية، ونهيق حمير عملاقة، مواء  
قطط خرافية، تتداخل لتشكّل موسيقى جنائزية لعرض مسرحي كوني..!

رأيت بوضوح، وكما نتقشنا القضية في جلسات متواصلة،  
كيف تزام الجميغ، نساءً ورجالاً، سواء بسواء، وصوت صريخ  
توضح بعدما ران الصمت:

”هذا يومكم يا رجال! هذا يومكم يا نساء! هذا يومكم يا فلذات  
أكبادنا! أخرجوا كامل ضغائنكم وأحشروها في جسد الغول سالب  
راحتنا وسارق فلذات أكبادنا“

زگرد النساء، ارتفع واختلط الزعيق والنهيق والنباح والصياح  
والرصاصات من المسدسات اليدوية.

النهر يعاشر البلدة بالتواء أفعواني، وكل عام يبتلع طفلاً، أو  
شاباً، فتحول إلى كابوسٍ أفضّ مضاجع الناس، كثر الحديث وقنعت  
الناس أن في النهر غولاً خرافياً يخرج في العام مرة، تحديداً في  
الصيف، ليأخذ طعام عام كامل، تحركت الأمخاخ ووجدت الألسن  
فكرة قد تنفعهم، رشّوا الماء بالمبيدات الفتّاقة، وجدوا أنفسهم في عطش  
قاتل قبل أن يلتجئوا إلى وادي العوسج ٦ للاستعانة بمائه المالح،  
المزارعون تفاجؤوا بموت مزروعاتهم ونفوق الكثير من ماشيتهم، بل  
زاد الأمر سوءاً عندما اكتشفوا أن الأسماك مصدر رزقهم شبه الثابت  
تطفح متفسخة ننتة على سطح الماء، هوت طيور غريبة وهي تتقاتل

من أجلها، ونفقت القطط والكلاب، وكادت أوبئة فتاكة أن تجتاح البلدة، لولا تدخل عناية السماء في الوقت المناسب بريح عاتية كنست كل ضرر، وأعدت العافية، ولو بشكل مترجح، إلى الوجوه.

*[لعنوا أصحاب تلك البدع غير المسنودة بأدلة واقعية، راحت الرؤوس تدور في أفلاك الخيال بحثاً عن حلٍ يوقف انتقامات نهر الحزن. تدخلاتي لم تنفعهم، وأفكاري فشلت الرؤوس في هضمها، رؤوس رجال ونساء تينع وتدلي بدلائها، وكل واحد، وكل واحدة، يريد أو تريد، أن يفرض أو تفرض، رأيه أو رأيها، على الجميع. الأمر الذي دعا إلى تيهان الأمور، وازدياد رقعة الضياع، ودخول الجميع إلى أفران الفوضى خالي الوفاض..]*

### عزيزي زوراب..

رؤوس كثيرة اعتبرت نفسها عاقلة، راحت تتطح بأفكار غامضة، وعبقريات عسيرة الهضم، وتوصلت إلى قناعة جماعية، وجدت فكرة الاستعانة بمشعوذين يمتلكون قدرات خارقة هي طلاقة الرحمة الأخيرة لرأس المصيبة، طابت الفكرة تحت ضغط الخوف على الأطفال، ولم تنفع تدخلات ملاً البلدة وهو يصيح في خطبه المتواصلة، وضعوا الدين جانباً، وفلذة الكبد لديهم فتنة كبرى، لا بد

من عمل شيء من أجلها، جلب أصحاب تلك الرؤوس العاقلة لنا مشعوذين، ضربوا خيامهم، وأقاموا لنا قداديس شيطانية صاخبة، أشجروا نيراناً، وضربوا الطبول، وابتكروا لنا رقصات حدث ولا حرج، أجبروا أصحاب الفجيعة أن يلقوا بعظام حيوانات نافقة مهروسة في النهر قبل الغروب وقبل الشروق، طلبوا منهم أن يصطادوا القطط و- شلع - رؤوسها، وعند الغروب مع التكبيرات الأولى للمساجد أن يلقوها في النهر، أجبروهم أن يسكبوا دماء كلاب ضالة ينحروها تحت أناشيد وتعازيم شيطانية، أجبروا النساء الحائضات أن يلقين بدماء طمثهن ليلاً في النهر، أوقفوا من رغب أن يشارك بسهم تضامني ضمن الجوقة عند الغروب صفوفاً خاشعة متراسة كاتمة النفس، طلبوا منهم أن يتقدموا صفاً صفاً، وأن يبصقوا جماعياً في النهر، وأن يبولوا معاً، لكن موج النهر ظل يتحول في أدمغة الجميع قبل أعينهم إلى أشباح ترقص ساخرة منهم وعليهم.

*[فاجأ البلدة رهط معممين، أتوا لنصرة الناس، بعدما شاع أمرهم، وتلاست البلدات بقضيتهم، وأفهموا الناس، أن القضية هي قضيتهم المركزية.. قالوا: "أطيعونا واركعوا هذه الخرافات والشعوذات الشيطانية، فعقاب الله لا يوقفه إلا طلب المغفرة بتضرع جماعي، وخشوع استثنائي، وأقصى درجات التذلل"]*

*[خضع الجميع لأوامرهم، وأستكانوا متذللين..]*



كادت معركة وشيكة أن تبدأ ما بينهم وبين أصحاب الهذر والسحر، لكنك عزيزي زوراب تدخلت في الوقت المحدد، هذا ما سمعته، لم أكن حاضراً في تلك اللحظة بل أكده الجميع، فقدان الرشد أجبر الكثير من أهالي البلدة أن يحتكموا لحكمتك، رغم أنك لم تؤيد ما يقومون به، لكنك تدخلت في الوقت المناسب من أجل حقن الدماء وجر البلدة إلى كارثة جديدة، قرر بعض منهم أن يمهلوا أصحاب العمامات فرصهم الدينية لتدلي بدلائها، كما اقترحت من باب تحقيق فرص العدالة والتكافؤ بتقرير المصير المشترك.

*[توجب تدخلني في لحظة متفاقمة، وصلت إلى مناقشات كلامية، وتدافع بالأيدي، داخل المقاهي، أردت أن يحتكموا للعقل، لا للشيطان المزاج، وجدت فكرة أن نمنح فرص متكافئة للمعسكرين المتضادين، معسكر الكفر، ومعسكر اليقين، لإنقاذ بلدتنا من جنونها الموسمي، رغم يقيني، أنهم جميعاً كانوا، وما زالوا، يتبرزون من الفم..]*

رُصوا الرجال أولاً، ورائهم الصبيان، ثم النساء، وبدأت المعركة الهذيانية مع المجهول الساكن في عمق الماء، تمتمات وأدعية وقنوتات طويلة، بدأت العيون تدرف دموعها، والألسن تُدلق خطاياها، والأجساد تنزف الحرام المنقطر مع عرق الأجساد. انتهت المنازلة ما بين رهط الدين ورهط السحرة، ورحلوا حاملين

هداياهم، والناس ما بين شك راسخ، ويقين متذبذب، تنتظر قدوم الصيف ووقف هزيم الحيف.

*[/الصيف والنهر عاشق ومعشوقة، يغريان ويرسلان لحن الحب،  
فتندفع الأجساد ناسية الأمس وقبلها، وكل شيء آيل للتجديد، تتقاطر  
الناس، لتنهك بنهل السعادة، وهي تنغمر بالماء، ومن بين الفرح يعلو  
لحن، إنه جنائزي الوقع، فتنتطق الألسن بصراخ جديد، بفقدان جديد،  
وتدخل البلدة في قيامة حزن آخر..]*

فكرة جديدة داعبت خيالك، لم تحتمل هذا الهبوط العام إلى درك الضياع، وجدت فرصة مشاركة الناس عملاً يُشعرك أنك ما زلت تحمل صفاتك الوراثية، وما زلت تمتلك روح الهيجان نحو الأعمال الجماعية، وكما كنت، أشهد أنني لم أكن حاضراً، ولكن الخبر جاء سريعاً عبر ألسن تتناقل كل صغيرة وكبيرة، وأنت تعرف أن أخبار الهلع، غالباً ما تكون أسرع شيوعاً من البروق.

قلت في تجمع رجالي:

”يا أهالي جلبلاء! في الصيف القادم امنعوا أولادكم من

السباحة، لتتأكد من مصداقية الخرافة التي تأكل رؤوسنا؟“

عاجزة هي الألسن، وكل فكرة جديدة هي سفينة إنقاذ، على الجميع الصعود والبحث عن شاطئ نجاة، بعدما طفح الكيل وبلغ

الموت الحلقوم.

دعني هنا أن أقترح مشهداً متخيلاً رغم طرافته، أجده وفق قناعتي، أو من متطلبات فن الحكيم، أنه يمنح فرصة مثالية للدهشة والتأمل.

ملوث العقل، مجنون، مخرف، توصيفات تلاحقك، وأنت تجوب الليالي بحثاً عن أجوبة لأسئلة تقترحها على نفسك، تبحث عن كائنات ودودة تسكنك، عن ذكريات لا تريد أن تتركك، لم يقر بك قرار، وأنت تجوب الأزقة لتحكي حكايات خرافية، تتهمك الناس بالجنون، ولا أحد يعلم، أنك كائن حالم محكوم بفعل الحكيم، اجتمعت الناس لتطبيق الفكرة في ساحة المحطة، بعدما وجدوا السدود تحول دون إيجاد مخرج جديد، طفل يصيح بعدما يُطبق الصمت وهو يشير بسبابته نحو حشد أطفال حائرة:

”مين أجيب أبو زربة ٧ حتى ينصحكم“

كلام غير لائق تسمعه من طفل يخاصم ويجادل أطفالاً. يفقد الأطفال كلام الآباء إزاء النهر، فالصيف عروس تبحث عن عريس، والرحيل أمر قذري مقرون، والصراخ موسيقى جنائزية، ضريبة ملقاة على عاتق أهالي بلدتنا.

سأجعل رفوف الناس تتدافع نحوك، وأنت تخطب، تقول لهم حكايات غريبة، وجدوك، بعدما افترضت، أنني وضعتك واقعاً على نصف جدار لمنزل متروك، وحشد صبيان وصبايا واجمين من تحتك بهلع يصغون:

## ”عبد الشط ٨“

تشرح للحضور عن أقوام فرعونية، كانوا يقفون بغتيات إلى النهر جلباً للرزق، وخوفاً من غضب الماء أوان الثورة، طرحت على الناس فكرة إلقاء حيوانات نافقة لإطعام العبد الساكن في النهر، سأجعل الناس تنفر من حولك، وهم في دوامة من الحيرة والقلق، فكرتك لم تكن عن قناعة تامة، بل افتراض كملح يضاف إلى الطعام، فكرة مجنونة لمشاركة الناس هذياناتهم، وفرصة نادرة لتخفيف معاناتهم، من باب الغرائبية والعجائبية التي تشد الناس أكثر من الواقعيات البالية، وأي اختلاف مع أمزجة الناس، لا بد أنهم سيتهمونك بوصمة الجنون :

”لم نسمع من قبل أنّ النهر يمتلكه عبد، هذا كلام جديد علينا يا عالم!“

ربما كنت في لحظة حكي، والحكي ضرب من التلفيق والأكاذيب، كونه بيت التسلية، فالنهر ليس ملك أحد، وإنه يجتاز البلدان من غير جوازات سفر، وعرقلة سيطرات، ونقاط تفتيشية، سيسخر بعضهم ويضحك بعضهم، ويعلو التصفيق والصفير والاستهجان من بعضهم .. يصيح أحدهم:

”نحن نعرف أن العبيد هم مملوكون، وهم خدم يرضون بذلك العيش، وفضلات الأطعمة، ورداءة الملابس، لا بد أن يكون هذا العبد الذي زعمته، هو ملك العبيد يا زوربان“

يتجرأ شخص آخر من بين الحشد ويصيح:

”ههههه.. هذا سوبر عبد يا (عمي زوربه)“

ها أنت تقف الآن بعد سنوات من وقوفك كما الآن، في نفس النقطة تحديداً، ملتصقاً بجذع الشجرة المقوّسة، لابد أنها شاخت كثيراً من هول العمر، أو من قسوة المناخ، أو حزناً على شاكر واحتباس ماء النهر، تقف والليل يراقبك، النجوم من فوقك كالحبة، والنهر نزرًا نزرًا بالكاد يسير، تفرعات الشجرة تتهدل شائخة، تريد أن تلامس ما تبقى من الماء، ورائحة قاسية تنهض من المنازل، لصق الشجرة تقف، من ههنا رأيت كيف تراجعت رفوف بشرية هلعة في تلك الليلة، ليلة عبسكة كما وصفها أخرس البلدة، وهو يكتبها على دفتره الصغير، لحظة سحبت القلم من يده وكتبت:

”ليلة تستحق أن تغدو حكاية نادرة، أمل أن أحكيها ذات يوم ليس ببعيد“

الناس.. لابد أنها تراءت لك، وكما فعلت لحظة اندفعت بجنون في تلك الفجريّة الملحمية المغبرة، وكيف توقفت ألسنتهم عن النطق، لحظة تراحموا على الجرف.

*[من خلل الظلمة المتحللة، رأيت قوسين يبرزان من جسد عملاق منتفخ مهاب، ساكن لم يتحرك، وهاجس واحد داعب الرؤوس، وأنطق ألسنة الجميع:*

”كيف تمكن عبسكة أفندي من إخراج هذا الغول الخرافي؟ كيف انتصر عليه بهيكله العظمي بلبل باميا ٩، كما تصفه ألسنة صبياننا لنحافة بدنه“

تصافحت الوجوه، وتلاعبت أغوارهم، وتشكلت بوادر المعركة التي انتظروها، برز من بين الحشد رجل متحمس، بدا أنه منتفخ الأوداج، شاهراً حربته أعلى من رأسه، أطلق صرخة وهو يهوي بنفسه من علٍ على المساحة المفروشة بالعشب لحافة النهر، في المكان الذي زرعنا فيه شطراً من مراهقتنا، وسط ذهول شامل، قافزاً بما أوتي من قدرة وتحمل، وحشر حربته في الجسد المنتفخ، فتناثر رشاش دم فاسد، وتدفق ماء صديد، فتدافعت غاضبة متحمسة الأجساد، بعدما تشجعت، ووجدت أن المعركة سلمية، وأنها تُدار من جانب واحد، وكلهم يبغون فرصة مشاركة فعالة لكنس أحزانهم، انهالت العصي والسكاكين تضرب تحت زغاريد النساء، ومسدسات ألهمت الفضاء المغبر بالرصاص، وقيامه الكلاب، والحمير، والقطط، والديكة، ما تزال قائمة، ظلّت تبايع المعركة القدرية من زرائبها، كأنها مدافع ثقيلة سائدة، ترمي حممها من الخطوط الخلفية للجبهة.

من علٍ صرخت بصوت غير مسموع:

‘جاموس نافق يا عالم!’

*لم تكن هناك آذان تسمع، أوقدوا ناراً، وألقوا قديد اللحم الممزق إلى ألسنة اللهب، وبدأت الأجساد، وهي فاقدة صبرها، تنسحب، وقبل أن ييارحوا صاح صوت، وكان صوت الرجل المربوع غارز الطعنة الأولى في جسد الظلمة المنتفخة:*

”يا ناس.. انتهى زمن الحداد، أن الأوان أن نمنح أولادنا جوازات  
الفرح، لقد مات أخيراً سارق فلذات أكبادنا، مات، وليس مهماً أن نعرف كيف  
مات! المهم أنه مات، سواء بدعوات رجال الدين، أو بأحابيل وخزعبلات  
السحرة، المهم يا ناس، مات عدونا، وشكراً ل- (أبو فاضل) عباس، إنه  
أخرجه لنا كي نرتاح ونطمئن، ونُخرج من عقولنا بعد اليوم كابوسه، قبل  
أن يغدو فرعوناً آخر، تقام له فيما بعد، طقوس الولاء والعبادة“  
تصارخت الأفواه، شهقت وندت بكاءات وهلاهل، وصفير، ورشق  
مسدسات، وهي تنسحب..]

آهة كونية خرجت من الأفواه، كنست الغبار من فوق الرؤوس  
المتدافعة، عاد الجميع يجرجرون أقدامهم تحت إرهاب شديد ونعاس  
أزلي، كأنهم تقهقروا من معركة تاريخية أستنزفتهم ثلثي أعمارهم،  
أو عادوا من حصاد إجباري لحقول لا نهائية من القمح تحت قسوة  
شمس آب، بعضهم ترك أطفاله ليستمتعوا بمشهد النار وهي تتناثر  
شظايا في نهايات ليل البلدة، لتسد الأفق بخيوط دخانية داكنة، كأنها  
أفاعي تشتبك في تعارك عجيب.

[معارك القدر لا تنتهي أبداً ..

بعد أسبوع، وفي ذروة انشغال الناس بالفرح، تناغم صوت، وتوضح

أكثر، كان صوت الفجيعة، صوت من لا يخسر الحرب، لم يكن هناك داعٍ للتقصي ومعرفة المصدر والحقيقة، ظلت الأفواه فاعرة، والعيون تكاد أن تطفر من محاجرها، كانت مصادفة غير حكيمة هذه المرة، سقط الغصن الذهبي الأخير، كما شاع فيما بعد، لغارز الطعنة الأبدية في خاصرة الألم، الرجل المربع الذي أولم وليمة استثنائية لأهالي البلدة..]

دوننا منه، عانقنا وبكى، بصوت باكٍ متحشرج تكلم:  
”نحرت ما أملك من خراف وأبقار ودجاج لإطعام وجهاء البلدة وصعاليكها، ابتهاجاً بالمناسبة، لكن تقديراتي لم تكن في محلها؟“  
”استعجلت الأمر يا (أبا عبدان)“  
”تصورت أننا دفناً كل ضغائننا فيه، ولم يعد الألم يتواجد بيننا كما توقعت بعد اليوم يا كاكه زوراب، كانت الغاية أكبر مما تتصور الناس، كنت أعد القضية أكبر، وكنت أعد الواقعة نقطة انطلاق لدفن الضغائن التي تتهشنا، ولو في جسد ثور نافق“  
”نحتاج إلى زمن آخر كي نصل إلى جوهر قضيتنا الكبرى، نحتاج إلى واقعة أكثر مأساوية كي نتمكن أن ننصهر ونذوب في ساحة المحبة والمغامرة، لكي نعيش بقلب واحد، وننظر بعينين فقط، نحو حياتنا القادمة، نحتاج إلى حرب ضروس تكنسنا، تمرغلنا في أوحال أنفسنا، ولا تقبلنا أن نجتمع من جديد، ما لم نكنس دواخلنا من جراثيم البلادة والعتة وخرافة ماضينا“



بقينا برفقته ثلاثة أيام، قبل أن يجدوا جثة **عبدان** راسية قرب جرف  
النهر الصغير المنشرح من نهر البلدة، وهو يمر نحو أحشاء الجنوب.  
أفقت..

لا بد أنك وجدت دموعك تخضب لحيتك، سأفترض هذا، ولم  
تجد رغبة بالبقاء أكثر مما بقيت.

يضغط الليل، وعمرك يضغط، والحكاية تضغط..

لا بد أنك أنتزعت نفسك انتزاعاً، تركت الشجرة والجرف، وبدأت  
تخترق ظلمة الأزقة وموجودات المنازل المندلقة، مخترقاً صمت  
البلدة، غبارها، دخانها، نتانتها، متوجهاً نحو منزلك.  
في المنزل، دائماً وأبداً، تتوهج ذاكرتك، كلما غادرك ورمّ من  
أورامك.

في غرفتك.. هناك حيث الشطر الحيوي من البلدة، ومن  
النافذة، سترى الكوابيس والأشباح ما تزال تعمل، المنازل تحترق.  
أشباح تصول وتجول بين الأزقة، تسرق.. تحرق..  
تتراجع بخطواتٍ متعثرة، وعلى سريرك تستلقي.. وقيل أن تغط  
في النوم، ترى، نمال سود تتحرك على بياض السقف.. تعرفها..  
هي نبضات أيامك القديمة، جاءت متسارعة لتورق في ذاكرتك  
نفائس الحكايات.

## هوامش :

١ صخرة شاكر: سن صخري على نهر ديالى خلف مركز شباب بلدة جلولاء سابقاً ، يمتد كلسان صخري طويل فوق الماء ، وهو مكان مظلل بالأشجار وساحر أوان الأصيل يرتاده الشباب للجلوس وصيادوا السمك للصيد أثناء الصباعات الباكرة وفي الليل أيضاً .

٢ البز: نوع من الأسماك الكبيرة قد يصل طوله إلى أكثر من متر ويعيش في أنهر العراق الشمالية .

٣ دربند : سد مائي معروف يقع شمال العراق في الطريق الممتد إلى محافظة السليمانية .

٤ طرزان : الشخصية الخيالية الشهيرة في الثقافة السينمائية العالمية وكتب الأطفال مبتكرها الكاتب الأمريكي (إدغار رايس بورو) ١٨٧٥ - ١٩٥٠ في رواية ( طرزان القردة ) عام ١٩١٢ .

٥ الشبوطية : نسبة إلى مفردة - الشبوط - وهو نوع من الأسماء العراقيّة المرغوبة تعيش في أنهر المنطقة الشمالية للعراق .

٦ وادي العوسج : وادٍ يعد ممراً لسيول الأمطار ، تكثر فيه أشواك العوسج يقع شرق بلدة جلولاء .

- ٧ أبو زربة : كلمة تهكمية تطلق ضد بعضهم للتخسيس والتذليل وتعني التبرز على النفس .
- ٨ عبد الشط : في المعتقدات الشعبية ، أن لكل شط أو نهر عبداً يخرج كل عام مرةً ليسحب شخصاً ما إلى الماء طعاماً له .
- ٩ بلبل باميا : نوع من الطيور الصغيرة جداً أو ما يسمى طائر الذعر لكثرة حركته وتحريك ذيله ، يعيش بين الأحرش المتشابكة حول الجداول والأنهر مقتاتاً على الحشرات.

الأحد ١٩ تشرين الأول ٢٠١٤

لبصري لم يحد عن قماش الأفق، ولم يعد أفق طفولتي يُرطب  
ذهني بعسل الأمل وحلاوة الأحلام، هذا ما وضعته في بالي وأنا  
أجلس، قبل أن ينفتح بالون ذهني وتندلق منه الخردوات العتيقة، ولم  
تعد ترهات الماضي تنفع بعدما تغير مزاج الناس، لم يعد من يفكر  
بأجياله الزاحفة، الكل مشغول ببيومه فقط، لا غد يلح أو يلوح في أفق  
مخيال بشر يومنا هذا، بعدما صارت أمزجة الأغلبية خانة مهملات  
تتراكم فيها خردوات الأيام المتسارعة ومجرياتها غير المنتظمة، لم  
يعد هناك من يبحث عن الذهب الصافي، الكل بدا راضياً بلمعان  
البرونز، بعدما وجدوا الذهب الخالص والفضة النقية بحاجة إلى  
تضحيات فوق العادة، ومغامرات فوق طاقة الحاضر، موجز العبارة،  
أبدان اليوم متكاسلة، متمردة..]

تجلس..

ما زال الأفق مذ تكوّن شاحب الوجه، يبدأ زجاجياً مع الفجر،  
وينتهي دموياً مع الغروب. هذا ما أفررتة في جلسة نقاشية مع  
أخرس البلدة، يوم كتب في كشكوله:

”أفق حياتي كوكب عجول“ . سحبت كشكوله وقلمه وكتبت:

”أفقنا راسخ! مزاجنا هو المتقلب يا صاح“

زوراب رجل خدوم - خطيئة - ما عنده حظ. كلام يتواصل وينادونك بتشظييات اسمك: ”زوراو“ و ”زورا“ . لكن زميل فتان روج اسماً جديداً لك، بدا أكثر تحضراً، وأكثر لائقية بك، يوم التفاك مصادفة، كما ذكرت لي في المحطة:

”زوربا الجبلاني“

كنت تطارد طيور خيالك في ساحة محطة القطارات الراحلة، نطق كما أسررت لي باسمك الجديد دون أن يُعرفك بنفسه، أو تطلب ذلك منه، رأيناه داخل زحمة السوق، أشرت لي حين لمحته واقفاً قرب عربة لبيع الكماليات النسائية الرخيصة برفقة زوجته، ناديته وتعارفتما. قال وهو يضحك، وتلك عادة تلازمه كلما تحاور مع شخصٍ ما:

”لكل بلاد زوربا ١، أنت زوربانانا يا زوراب.. ههههه..“

”زوربا.. سمعت بهذا الاسم!“

”شخصية متفردة، عالمية متسامية، واعية لا يحزن ولا يتألم، لا يحتر ولا يبدر، لا يخسر ولا ينتصر، بكاؤه ضحك، وضحكه شروق أحلام، كائن نصفه بشري ونصفه الآخر ملائكي، يحتسي ولا يسكر، ويسكر من غير أن يحتسي، يسافر وهو حاضر، وحاضر وهو مسافر، شخصية نصفه ولد من رحم التناقضات، ونصفه الآخر ولد من فواكه السعادة، إن جاز لي القول.. هههههه..“

”ومن هو هذا ال- زوربا الذي يحتل كل بلدان العالم؟“  
”زوربا.. هو شخصيتنا المفقودة، أو لنقل النائمة فينا..  
ههههه..“

”شوقتني لمعرفته.“

”ولم تتشوق له؟ أنت لست بحاجة إليه! إنك شبيهه! تملك ما  
يملك من مواصفات عجيبة غريبة.. ههههه..“  
”وأين أجدّه؟.. ههههه..!“

”لن تهتدي إليه؟ ربما زوربا أكذوبة، وربما هو أمل ضج  
في مخيال كاتب وأراد أن يتسلى بالكلمات، ليمنح نفسه بعض  
الخلود، ويمنحنا رقصة خالدة تناسقت الكلمات مع هوس الشخصية  
المحورية، يا عزيزي.. زوربا قصيدة، أو أغنية، وكل من يقرأها فهو  
المطرب.. ههههه..“  
”لم أفهم كلامك؟“

”عليك أن تقرأها؟.. ههههه..! إنها حكاية، تذكر هذا يا (زوربا  
الجلبلائي)، اقرأ زوربا اليوناني ٢ وأكمل قراءتك ب- زوربا  
البرازيلي ٣؟ عندها ستكتشف أنك أحد الأربعة شبه.. هههههه..  
الذين يجب أن يولدوا في أربعين مكان وفي زمن واحد، أو بالأحرى  
في أربعين قرن، وهذا أبعد الاحتمالات.. هههههه..“  
تركنا وانطلق، بعدما نادته امرأته.

وأذكر أننا يوم ذهبنا إلى بغداد، لم نعثر على الروائيتين في  
شارع المتنبى.

تدفع عجلة الحياة، تغربل وتطحن، تلغي وترزع، وجدت نفسك مغرماً بمهملات حياة إلى وقت لا يريد أن يضمحل متعافية كانت، مضت ولن تتكرر، بعدما وسعت البلدة حضورك الدائم، وأعمالك الاندفاعية نحو كل ما هو إنساني ونبيل.

*[ديانا محض خرابات، وأيامنا خرابات متكررة، نولد في الخراب،  
ونعيش في الخراب، ويوم نموت سندفن في الخراب..]*

بهدوئك المعتاد، لم تصغ لقول الذات، لم تعر بالاً لخرابات الحياة من حولك، وجدت صوتاً عالي الموج يأتي من أعماقك، صوت ضمير مغامر يلح ويغوي، ودائماً تركد صرخته على صخرة عند شاطئ المغامرة قرب عقلك الذي هو دليلك.

*[اقتحم الصعاب يا زوراب، من أجل نلك خلقت! ومن يتواجد داخل  
حوض المرض ليس مريضاً، وليس كل حيوانات الغابات كواسر..]*

نهجك لا يتغير، ولا توجد دوافع تحديث في ثوابت صفاتك، عشت في أبدية ستتواصل في أعشاش رؤوس لن يردعها الخراب، وكل أيامك كانت جميلة، لا تتنازل عن وهجها مهما قلت، وصفتها: "ترهات". لا تتنازل عن حضورها، وأحلامك ليست كبيرة، لكنها

أثيرة ومُقاسة وفق مقاسات تواضعك، وفق متطلبات واقعك تولد باستراتيجية متوازنة، ومزاجك فلت من المألوف السائد، أيّامك تكمن فرادتها وغزابتها بشخصيتك، بمرحك، باندفاعاتك الدونكيشوتية٤. تبقى وستبقى أيّامك مورقة، حاضرة تأتي لتشاطرك كضيف كريم يزورك أوان الأرق، ودائماً تستقبله كما هو شاب لن يشيخ، تلك هي مفردات أيّامك، هي.. هي.. تتجدد لا تتقدم، تحضر كما توهجت وتركب قواربها لتبحر إلى أُنونها.

*[قدمت ليس بمحض رغبتني، بل مصير، ليس مصيري وحدي، بل مصير وطني. كثر أموالهم أوطانهم الشخصية، وآخرون أوطانهم نسأؤهم، كثر منهم أوطانهم مضارب لهوهم، آخرون أوطانهم مشروباتهم الروحية، وكثر منهم أوطانهم مقاعد مراحيضهم..]*

قرأت عبارة في دورة مياه في كراج النهضة ٥ في العاصمة بغداد :  
”مقاعد المراحيض تمنح الراحة ومقاعد السياسة تمنح التعاسة“  
سطر آخر يحاذيه مكتوب:  
”إذا لم تعجبك المقولة فمُد يدك إلى دبرك وأمسح العبارة ببقايا برازك!“

وجدت القضية تلويثاً ينافي أخلاقيتك، والوطن من العار أن تمحيه أينما كتب.



”ربما كائن ما تعيس الحظ أو عابث من خط تلك العبارة“  
احتفظت برد فعلك ولم تعقب ولكنني واصلت كلامي:  
”لكل مواطن وجهة نظر، والوطن لا يحتاج للجميع إلا أوان الحروب“  
”الوطن جنّة ونار“. توقفت للحظة كأنك في محاولة استذكار  
عبارة قبل أن تضيف:

”كثّر من الناس أواطنهم محضياتهم!“  
ما زلت أحتفظ بعبارة كتبها زميلنا أحرص البلدة:  
”كل شيء يمنحنا الراحة هو وطننا المفقود“  
لم نعقب، ولم ننقاش ما كتبه في كشكوله، كانت الظهيرة ناجزة،  
وكان علينا أن نغادر المقهى، ما أن ارتفع صوت المؤذن عند الظهيرة.  
ظل شجرة، أو مهبل امرأة، أو قرص رغيغ، فم مزّاح، مقعد  
تفريغ الأمعاء، قدح ماء بارد في يوم قائف، هذه أوطان عابرة تمنح  
الراحة وتُسكت سهيل الأجواف، ووطنك أنت هذا ما تشدد عليه،  
وما زلت حتى لحظة موتك:

”شعب مصادر تأريخه، مفقودة هويته، ومسجون حلمه،  
والأرض ليست وطناً، الوطن قلب المرء النابض“  
في نفسك وجدت قدرة خارقة، رغبت رغم عسر الأمور  
ومحدودية طاقتك، أن تعيد جهد مسعاك هيبية وطن مكتوب لكنه  
ضائع، مسموع لكنه غير مكتشف في قلوب من عقّ، أو شطّ عن  
الطريق، وجدته صخرة عملاقة وانتدبت نفسك للمغامرة:  
”سأحمل صخرة آلامك يا بلدتي على كتفي“

يفقد كل امرئ إرادته أو ان اصطدامه بمفاجآت فوق الاحتمال،  
لكنك رزيناً جابتههم، باسماً وقفت لحظة تكالبت حولك البنادق،  
وقفت ببسمتك، بحلمك، بحضارة بلدك، ولسانك خير حصان ركبته،  
لم يذرف كلاماً بوجه قاتلي سلامك، سكوتك أذاقهم وبال الأمر،  
فضاقوا وذاقوا ذرعاً ووبالاً، تداعوا ولم يحتملوا جبلاً مصنوعاً من  
لحم ودم يعترضهم، تهاوت معاولهم، وتحطمت إراداتهم، وانتفضت  
فيهم أفاعي الغيرة، هذا ما حكيتَه أمام (أبو حازم)، وما زال يحتفظ  
بحرارة كلامك، وكما حكيتَه له حكاه لي:

- أي بشر هذا؟

- هذا زوراب أم زوربا جديد ولد في بلاد ما بين الرافدين؟

قالوا أيضاً:

- حفيد كلكامش!٦

في عيونهم تلامعت جمل خلود ثورية، وتعذر عليهم انتزاع  
عشب السعادة فيك، سكوتك كان ذهباً خالصاً، وكلامهم رمال ذرتها  
صلابتك ال- الجبلانية، ومثل برج أزلي بقيت تواري زنابير ظلام  
فقدت غيرتها وغريزتها:

- أنت من أركان غريمنا! لم يعد لديك أي مبرر للبقاء على

أرضنا!

قالوا كلامهم وذابوا في النسيان، وكنت تعرف، وهذا ما أثلج  
صدرك ورطب لسانك.

[الطريق إلى الوطن أقصر الدروب، أقصر من المستقيم الذي يربط  
بين نقطتين لا قيمة لهما على الورق، الوطن قلب، الوطن قوت، الوطن  
قدر، الوطن إرادة ورحيل، الوطن ولادة بلا موت، الوطن حقيبة قهر،  
الوطن.. الوطن.. في الوطن تموت الأجساد وتتوارى، وتبقى الأرواح  
هائمة في فضاء الوطن، ترعاه وتحرسه من دسائس القرون، وطن بلا  
إرادة شعبه بلا قيادة..]

ترى الناس سكارى من غير الولوج إلى البارات، أو اللجوء إلى  
منافذ تعيسة لأمكنة خائسة تتخذ المنزويات المهملة لبيع أتعس  
أنواع المسكرات، ناس تهيم، وكل فرد يمتلك مهارة في تبديل رأيه،  
أو التناقش من غير حكمة، أو حتى دراية، شعب فقد نفسه، لكنك  
مصمم على مواصلة صبرك، وخوض معركتك الخرافية، طالما  
حلمك شجرة وارفة الثقافة في بلدة متصحرة، والكلام منقول على  
ذمة ( أبو حازم ):

”شيء كبير فيّ يجبرني أن أوصل حربي ضد الرتابة في هذه  
البلدة المتناعسة“

كلامك وقودك، تبحث عن أفكك الذي ظلّ ينأى وأنت تتبعه  
كلاهث خلف بقعة سراب، ومع كل خطوة، ضلعك الأمين، نصفك  
اللاهث حيث تلهث، ضلعك شريكة عمرك **كوالاة**، زفيراً زفيراً تتخلص  
من ركام جليدها، **كوالاة**.. شهيقاً شهيقاً تؤسس وتحاول استعادة

الرؤية لعينيها، كل شيء يبدو مزججاً يتشظى عسلياً، ويضمحل قبل أن يتشكل من جديد، دموع تهطل ويدها تواصل معركتها مع مياه ضميرها، تريد أن تنتهياً لوطنٍ مذبوح، تريد أن تحتضن بقايا حياتها مرتع صباحها، مثلما تنتهياً كل عروس لليلة عرسها، لا تريد جسداً ملبداً بالندم على ما ضاع، ما الذي حصل؟ لم أنتِ مركبات الظلام وأحاطتكما بالبنادق؟ لا يحتاج المرء الحصيف إلى توضيح كلمات تنطقه العيون، ولغة العيون ما تزال غامضة على أبناء هذا الجيل أيضاً.

*[عينا المظلوم لسان لاهج صريح، إلى زمن ما كانت العيون هي لسان حال العاشقين، كانت مفهومة، والقلوب الصادقة الخالية من الضغائن هي من تمنح العيون رسالة فهم الشفرات السريّة للنظرات، وربما نحتاج إلى أجيالٍ أخرى، كي يوقفوا ألسنتهم عن التعبير، ويكتفوا بالنظرات كحوارات أزلية ما تزال كل الكائنات تستخدمها استثناء البشر..]*

لم تحتمل الكلام المُندلق من عينيها:  
”ثوب الوطن أجمل حين نرتديه، وحين نلبسه نلتمس أحلامنا البعيدة“  
وجدت الصمت في عينيها أسئلة واضحة، كثيرة هي كلمات التهذئة، كلمات الترويض، كلمات تطيب علل القلوب، وتخدم هذيانات الذهن أو ان التعاسة، أو أوان الأخفاقات الحياتية.

*[الكلمات عقاقير، والعقل البشري صيدلية تطيب، يا ترى من هو*

*الطبيب القادر على حل مشكلات البشرية بالكلمات؟..]*

حفنة كلمات منمقة بوسعها أن تخدم براكين النفوس الفائرة،  
كلمات تغدو فواكه أوان جوع الذاكرة، كلمات تخرج ضغائن النفوس،  
كلمات تमित نيران الأحقاد - تردد هذا - وكلما رمت فرض الهدوء،  
أو إخماد نبرة تلاس عقيم بين كائنين متباغضين، وهذا ما أفسره  
لمن يروم أن يسأل عنك، أو يرغب أن يتعرف على شخصك، ولم  
يُدّر على كل لسان هذا الجدل المتناقض والاهتمام الفائض لفقدانك.

*[ليس كل لسان قادر على صناعة تلك الأناشيد التي أعطت*

*الحياة رونقها، اللسان أفلح في توسيع الهوات بين الأمم، وتمكن من  
تسعير نار الضغائن والفتن وإشعال الحروب، ولسان المرء سيفه، لكن  
كم واحد بوسعه القتال بهذا السيف البتار، وتحقيق الانتصارات من  
غير سفك دماء..]*

لسانك حصانك في كل آن، لسانك لا يصهل إلا أوان المحنة، دائماً  
صهيله بمقدار، لا يجابه الظلام إلا عندما يتأكد من رجحان فكرته.

قالت كَوَلالة:

”ليس كل ما نفقده بذات أهمية أمام يقيننا، المهم أن نحافظ

على ذكرياتنا المتواصلة، وذكريات المرء هي وطنه الدائم“  
”وطننا هو ذكرياتنا نعم كما اتفقنا، أننا نعرف قيمة الوطن،  
وحين يمرض الوطن تجف فينا روابي الأحلام ونغدو بلا ذكريات،  
وحين يتعافى الوطن يهدر صوت قبلاتنا، وتثبت في ربوعه ورود  
العشق، وتتفجر ينباع العناق، ويطول ربيع الشهوات“

[باسماً كنت أهدق فيهم، لم أرتجف، وقلبي حافظ على نسق  
نبضاته، اكتفيت بالإصغاء، ولم أمنح نفسي رغبة أن أعقب على كل  
سؤال طرحوه علي، أدرك أنهم جاؤوا ليقتلعونا من حيث نسكن، لذا  
قررت أن أشردهم إلى النسيان بصمتي في تلك اللحظة، تذكرت مواقف  
المؤمنين والمؤمنات أوان امتحان قلوبهم، بسمه آسيا بنت عمران ٧  
مشرفة في ذاكرتي وهي تستقبل الموت، صبر آل ياسر ٨ سراج متوهج  
في أفق آمالي، قلت في نفسي: لا تمنح الغريم نظرة ولا كلاماً، وأتركه  
ينبح ككلب جبان حتى يتفجر غيظاً! توقفت دموع كوالاة عن الجريان،  
لحظتها صوّبت نظري كذلك فعلت نظراتنا، اتحدت وتوجهت كسهم خارق  
باتجاه أفق مغرب يسكنه الوطن.

عبرنا مسالك ومعايير وأرضاً حراماً:

”المشي على تراب الوطن لا يرهق البدن“

قالت كوالاة:

”ما أبعد الوطن حين يتعرض لوعكة زمن“ [

كَوْلالة لاهثة تتبعك.. تمشيان والوطن ساكت.  
الجبال.. السهول.. الوديان.. لا طيور تصطخب في الأفق.  
تمشون.. تمشون.. وأيامك كلّها مشي.  
ها أنت تمشي وخيالك حصانك يقودك قبل أن تقف مع جمهرة  
أناس، وجدت شاباً يصرخ بوجه رجال الشرطة، يريد أن ينقذ أخاً  
له ضُبط متلبساً بجريمة روتينية حولها بوشاية نفاق سياسي إلى  
خيانة عظمى، لا تعدو جريرته من الكبائر في المعايير التفسيرية  
للقانون الوضعي، أخرج كاميرا ورقية وليس كما يحصل الآن، لم تعد  
الكاميرات الورقية نافعة بعدما تحولت الحياة إلى رقميّة، وبات المرء  
يعيش تحت رقابة الكترونية شبه صارمة أينما يكون، كلام قلته في  
جلسة حوار مع رهطك، يقول أبو حازم:

”بعد صمت رفع رأسه وتكلم: سيأتي يوم يتعذر علينا أن  
نجامع زوجاتنا، إلّا بعد استحصال موافقات روتينية مملّة، لوقف  
عدسة الكاميرات الحكومية المزروعة في رؤوسنا لْبضع دقائق“  
قال أيضاً:

”ضحكنا قبل أن يتقدم مراسل غربي طلب تحقيقاً صحافياً،  
قدّمنا له معلومات وفق أسئلة كانت تنتشظى، ذهب المراسل ولم نعد  
نعرف هل حقاً نشر ذلك في صحيفة أم في مجلة؟ أم كان جاسوساً  
كما رُوّجت وسائل الإعلام يومها: كل أجنبي يحمل كاميرا في البلاد

جاسوس يستحق الموت“

ذلك الشاب المأسور تبين سريعاً أنه التقط صوراً عابرة للذكرى، فالمنطقة محرّمة، وكل منطقة محرّمة مقدّسة في منهاج السلطة لا يجوز المرور بها، أو الوقوف فيها للتأمل، لا يجوز أن تعطس في المناطق الحكومية المغمومة بالغموض. عطستك تدينك، لا يجوز الضحك فيها ضحكك تدينك، وضحكك تهكم وسخرية من جناب الحكومة، لا يجوز التلفت يميناً وشمالاً، لفتاتك تدينك، لا يجوز أن تحرر غازات بطنك فيها لأنك تهين الكرامة والسيادة الوطنية، البصقة والجشأة والتمخيط والعطسة وووو..!، كلها في أدبيات السلطة قنابل نووية، أو شتائم انقلابية بحق جناب الحزب الحاكم. لا يجوز.. لا يجوز.. الخ.

ممنوع.. ممنوع.. الخ.

وقفت وسمعت أن ذلك الشاب رغب أرشفة المكان عبر لقطات صوريّة، وكل منطقة محرّمة هي فتاة السلطة العذراء، يمنع مُناكحتها، وكل نظرة موقعة علنيّة، وكل بسمّة اغتصاب صريح، مختصر القضية؛ شاب عابر - مشخوط ٩ - العقل التقط صوراً في منطقة خاضعة لممنوعات لا تنتهي. يعرف الجميع أنّ التقاط الصوّر بالقرب من المؤسسات والمصانع والمرافق الحيوية من أشد أنواع الممنوعات إجراماً في أدبيات السلطة وأمنها القومي، إنها تزعزع عافيتها الداخلية، وتصيب سيادة الحكومة بالزكام. ولا تشفى من الوعكة إلاّ اللجوء إلى وسائل الإعدام، الشاب المعتهو وقف



من غير أن يدرك خطورة وقفته، وقف وألتقط صوراً عابرة لترضية مزاجه، والحكومات الثورية دائماً وأبداً تعيش بذعرٍ متواصل كالفران أمام القطط، فهي ترى الناس من حولها أفاعي جائعة، لذلك تحيط نفسها بأسلاك مكهربة، والكثير من التحذيرات تثبتها في أماكن خاصة وعامة عبر لوحات واضحة مكتوبة بلغتين عربية وإنكليزية، لمن تسوّل له نفسه أن يقتنص لقطات للذكرى، والبلاد كما يتهامس الجميع سراً وعلناً لا تمتلك أسراراً، الحكومة تقول كل شيء في جلسات البرلمان المغلقة والمعلنة، أو عبر الهواتف السلكية، قبل أن تغرق البلاد بالخلويات النقالة، أو أوان مضاجعة نساءهم أو عشيقاتهم، كل شيء بثمنه، أسرار السياسة أهم من المال عند العاهرات أوان المضاجعة، وسياسة الشرق الأدنى علكة متواضعة سهلة المضغ، ليست لها ماركة في بورصات اليوم، تلوكها أفواه سواء امتلكت أسناناً طبيعية أو اصطناعية أو أفواهاً درداء.

ذلك الشاب الصارخ كان يحاول أن يفهم جناب الحكومة، وعبر بوليسها الصارم، أن أخاه معتوه، رافعاً حزمة أوراق ثبوتية تؤكد عته أخيه وعدم عاقليته، يصرخ في محاولة يائسة لأفهامهم أنه أخذ آلة تصويره وخرج يمارس جنونه المعتاد، وهو دائم اللهو بالتقاط لقطات وهمية لكل شيء يثير ظنونه ويفعل هلوساته.

ناس تتقاطر والفضول وباء مجتمع الشرق أوسطى:

”أفتحوها كي تزوا صدق كلامي! الكاميرا بلا فلم، كامرتي

عاطلة يا عالم!“



الوطن لا يملك سيقان، إنه أزلي، قدر يتكهرب كلما يجيء طيف  
ضار، الوطن باقٍ لأنه بلا ساق، نحن الماضون بسيقاننا نحو أقدارنا،  
والقدر لا يصيب الوطن بمكروه، إنه يكنس البشر كلما ضاق بهم  
الوطن، أو ضجر منهم، الوطن مكنسة بشرية، آلة ترم الأحمال، الوطن  
كالقمر ينخسف ويتعافى، إنه كالبحر يغضب ويخمد، وجوه تتقاطع،  
ليس ثمة ألم مزمن، والآلام أغنيات فاسدة تعج وتضج وترحل، وقد  
تُحار على أنها تبحث عن رداءٍ واقٍ، تبحث عن وقاءٍ واقٍ، من جائحة  
لهيب هبّ يبحث عن الطعام.. [

غريم واضح الجوع، وطن يفتح ذراعيه كما تفتح عاهرة ساقها  
للرياح الصاهلة، وعذراً لهذا التشبيه، أعرف أنك تتجنب الكلمات  
الخادشة للذوق والحياء، أستمحك عذراً؛ إنني أكتب تحت وهج  
الثورية التي قررنا أن ننتهجها في كتابة حكاياتنا:  
يقول (أبو حازم): طرحت عليه سؤالاً: "لِمَ الوطن يعيل أو  
يأوي كل باحث عن لقمة ثقافة أو مضغة طعام أو ملاذ آمن؟"  
نظر إلي نظرة والهة قبل أن يتكلم:

"لِمَ يعد الوطن - كما تروّج السنة الشعراء - يمد أجنحة  
ورافة الظلال ليظل الأجيال اللاحقة، ويوزع لسعات البرد ونسمات  
السلام لكل وافد، أو حالم، أو من يرغب أن يتسكع بين خرائب أزمنة  
الوطن، وهذا ما يحصل اليوم، لقد كنّا نُسيّر حياتنا بضمائرنا، واليوم

نسيرها بمعداتها، خاوية أو متخمة، سواء بسواء“

قوافل تمر.. تتأمل هذا البشر الهارب:

”أين الدعاية المضادة؟“

تعرف أن وطنك لفظ أشواك العبودية، لذلك أهمل الجانب  
الوقائي ونسى أن يغلق باب صد لذعات زنابير الظلام، ناس بسطاء  
العقل والرغبة، متواضعون في الطلب والأمل، تربوا على سماحة  
خلفياتهم الوراثة، ألم تصف الناس بكلام أصاب كبد الحقيقة:

”قتلهم حب الخير وعمل المعروف، صاروا واحات مغرية

تستقطب الزنابير البشرية وعقاربها لتعتاش عليها“

كان ذلك على ما أتذكر جواباً لسؤال كتبه أحرص البلدة في كشكوله.

ما زال الروح يسكن الأحداق، وما زالت تغرد على السحنات

قنابل هطلت ونيران استفاقت وجمعت الناس ودحرجتهم قوافل هاربة

تبحث عن بقية حياة في وطن لم يمتلك مذ تأسس ذرة أمل، أو لحظة

ثبات، الكل مشغول بعمره، بأشياءه الجميلة والحميمة.

*[من حق المرء أن يخضع لسلطة التمرد ويستسلم لوخر الحزن*

*عندما يُجرد من خصوصياته ومن أشياءه، أفكر بوسيلة إنقاذ الوطن من*

*خلال إنقاذ بلدي، أفكر بما هو قادم، أحاول أن أحصي حجم القسوة*

*الزاحفة على جسد الوطن، رغم أنني كائن بسيط ومواطن خارج نطاق*

*الخدمة، لا أملك سوى عقلي وعقلي دليلي وقارب مغامراتي..]*

هرج ولغظ وتصادم مركبات وفوضى جديدة تتجه العيون إلى  
السمت فتصطدم بنقاط سود تحوم، يرتجف الوطن، نيران تهطل  
على الرؤوس، خاشع هو الوطن، يخضع ويركع ليطعم خمبابا  
وجبة منازل وأجساداً وحدائقَ وطيوراً ومستقبلاً غير منظور عبر  
كل الدهور.

*أقصى ما في الحياة انتزاع الطفل من هودج أمه، وانتزاع البنت  
من سوسنة الحب، وإخراج المرء من أرخبيل بيته، منع الأديب من  
القراءة والكتابة، منع السجين من المواجهات الدورية، منع الزوج من  
ملاصقة زوجته، منع الطيور من التحليق والتغريد، منع الكلاب من  
النباح، الققط من المواء، والمياه من الجريان..*

على جانبي الطريق، أشجار تهوي تحت ضربات وحشية لفؤوس  
عابثة تقلّم الوطن من جمالياته، الحرب موت، وكل الأشياء في  
الحرب تذوق وبال الموت، لم يعد القوت لقمة سهلة المنال، والمنازل  
تدرجياً بدأت تفقد وسائل العيش، المحروقات توقفت عن حقن  
الوطن بدفء الحياة، الناس تريد أن تعيش، عيشها عيش الوطن، لا  
يهم ذلك مهما عملوا البنائيات والمصانع، كُلها لا تُمرض الوطن لو  
تهاوت، طالما قلوب الناس هي حاضنات الأمل، ومبتكرات أوطان  
وفق اشتهايات الرؤوس.

**[يوسع قلوب الناس أن تعيد صحة الوطن إلى كأس الخلود، والقلوب هي الأوطان الحقيقية إذا كان وقودها العشق والصدق؛ خمبابا جاء يحمل موته الأصفر ليحارب عدوه اللدود والأخير؛ مكارم الأخلاق..]**

المركبات تسير من غير وقود دافعة، وعقل المرء يبتكر الوسائل البديلة أوان المحنة، بعدما تعذر عليها شرب الوقود، بعدما جردوا الوطن من كل حقول تغذيته، أجرى سواق المركبات بعفويتهم تحويرات حيوية، من غير شهادات تعليمية، أو اللجوء إلى خرائط ومخططات علمية، أجروا عمليات ميكانيكية مختصرة، جعلت أحشاء محركاتها تتقبل الغاز السائل الخاص بالمطابخ لتواصل الحياة، أمام كل مركبة نبتت أسطوانة غاز مقلوبة كأنها عروة ورد على رأس عروس.

**[الحرب بيت البدائل، لا تنهض ثورة صناعية شعبية ما لم تُقم حرب ضروس، ومن أجل ديمومة تعاسة حياتنا، كان لابد للعقل الشعبي أن يتحرك ويبتكر البدائل..]**

يقول (أبو حازم):

”كُلما استقامت شجرة أو حزمة أشجار، انفلتت شريحة من القافلة لتركن مركباتها وتبدأ بصناعة وطن سفري آمن، تتساقط الأغصان بضربات السكاكين وقسوة الفؤوس غير الحادة، تتهاوى

لتغدو طعاماً للنيران، سرعان ما تتصاعد لوالب أدخنة وتنتشر روائح  
أطعمة خاضعة لفلسفة التدبير،

لسانك يمتلك عافيته، يغرد كلما سكنت قلب محنة متوالدة، وأنت  
ترحل عكس الريح، والتحدي يوفر للعقل فرص اكتشاف الحقائق،  
والريح تحولك إلى غريم صلب فائض، من يسمح للريح أن تركبه!  
كل ريح حين تواجهه تنتشرخ وتمر من جانبيك، من فوقك ومن بين  
ساقيك، عندها بوسعك أن تصل إلى حلمك الأخير.

*إفي العاشرة من خريفي، أقول هذا رغم أنني لست مع من  
يقول: في ربيع العمر، لم يمر الربيع في البلاد، فحياتنا مجموعة  
خُرف، خرجت برفقة والدي، كان محترساً ينوس خلل الظلمة بحثاً عن  
الأرانب، منتعشاً منتفخاً مزهواً أمشي وراءه، كان يمرر حزم الضوء من  
تورج ايدوي متوهج بين الأدغال والأحراش، كانت النسومات الرطبة  
تضيق من تنفسي، توقف، مد فمه وهمس في أذني، وما زلت أتذكر  
همساته ودفق الحرارة التي دغدغت أذني:*

- زوراب.. لا تلهث!

توقف وأضاف:

- استنشيق النسيم برفق، وحرر زفيرك برفق، الأرانب الخارجة

لترتزق ليلاً تشم رائحة الخطر من أنفاس مطارديها..]

ليلة مشيت فيها كثيراً، كانت فرصة أولى كسبتها بعد توسلات أرجأ السيد الوالد حلمك الأثير، قبل أن تجد نفسك في ظلام رطب، وغارات وحشية لغابات بعوض تنتهك الأعصاب، تقتحم الفم إذا أنفتح، تقتحم المنخرين إذا سحبت الشهيق بتسارع، تقتحم العينين إذا انفرجتا على سعتيهما، لم يضجرك ذلك، كنت مفتوناً بحلمك الذي جاء بعد خيبات وتوسلات كما سمعت منك ذات جلسة ليلية تحت شجرة المشمش. وقبل الفجر بقليل وجدت نفسك تمشي من جديد، متناعساً، تروم التماس منامك، وكان السيد الوالد يمشي كما بدأ ليله، متعافياً، منتشياً، بعدما جنل خمسة أرناب على كتفيه، كان يسبقك ويحثك على اللحاق به. تلك من أبناء طفولتك، كما أسمعنا أخبارها. وجدت من المناسب أن أدسها في جسد الحكاية، قد أجد لها مبررات، وقد تأتي من باب المصادفات، أراها من وجهة نظري، أنها تتعلق بما أوضحت؛ أن حياتك عبارة عن سلسلة رحيلات.

يباغتك النعاس..

وكلما انتهت حكاية من حكاياتك، أو زال ورماً من أورامك، نهضت ومضيت متعافياً إلى منامك، في ظلام سيستمر، طالما حلمك ما زال يسكن دؤامة الأمل.

ترتمي على سريرك..

تتهمك بغزل خيوط حكاياتك.. وحكاياتك تدنيك.. شيئاً فشيئاً من حلمك الأثير.



## الهوامش :

- ١ زوربا : الشخصية الروائية الشهيرة للروائي اليوناني نيكوس كازانتزاكيس .
- ٢ زوربا اليوناني : الرواية الشهيرة لليوناني لنيكوس كازانتزاكيس .
- ٣ زوربا البرازيلي : رواية للبرازيلي الشهير جورج أمادو .
- ٤ دونكيشوتية : نسبة إلى دون كيشوت أو دون كيخوته فارس الطواحين خالدة سرفانتس .
- ٥ كراج النهضة : أكبر مرآب مركبات لنقل المسافرين في العاصمة العراقية بغداد ، يقع في منطقة الرصافة
- ٦ كلكامش: الشخصية الأسطورية في الملحمة البابلية برفقة أنكيكو ذهباً إلى غابة الأرز وتمكنا من قتل الكائن الخرافي خمبابا حارس الغابة وسرقا عشبة الخلود قبل أن تسرقها الأفعى منهما في غفلة عقلية منهما .
- ٧ آسيا بنت عمران : زوجة فرعون التي صُلبت وهي باسمه لأنها رأت بيتها في الجنة.
- ٨ آل ياسر : من أوائل المؤمنين في الإسلام تم تعذيبهم من قبل قريش .

- ٩ مشخوط : يعني ممسوس العقل باللهجة العراقية الدارجة .  
١٠ البراطيل : من البرطيل : الرشوة .  
١١ تورج يدوي : مصباح يدوي يعمل بالبطاريات الجافة .

الأحد ٢ تشرين الثاني ٢٠١٤

*الحرب مختبر لبيان كرامة الشعوب وأخلاقياتهم، في بلادي  
صناعة لحظة فرح تحتاج إلى أجيال وأجيال، أما طوفان الأحزان، لا  
يحتاج سوى لحظة واحدة لغرق الجميع..*

نهارك يمتد وينتهي..

وليلك يجيء سريعاً، معه أو فيه، تُفتح حقائب حكاياتك.  
هواء الحرب، هواء فاسد لأسلحة تتقرب في المستودعات، كلما  
صدئت وتعتقت، ابتكرت عقولاً ماكرة حروباً إقليميةً، أو داخلية في  
بلدان الفوضى، وأغلبها بلدان الشرق، أغلبها بلدان العرب، ما بين البلد  
وجاره، وما بين الشعب ونفسه، لتصرف تلك الأسلحة لتحديثها.  
لا شيء سوى صمت شوارع فارغة، ومنازل ما تزال تُطعم نيران  
الأحقاد موجوداتها.

مرعب هو الليل، ليل الحروب غير المتكافئة، عندما تُسلط  
الحكومة سلاحها ومالها وحيوات شبابها، وتستعين بخبرات أجنبية  
لتخدير رؤوس الرعية قمعاً وتشريداً أو قتلاً.

*يقول والدي: أوان الحرب تغدو الروح عزيزة، الكل يفكر ببطنه،*

*فيمرض الوطن في تلك اللحظات الحرجة..*

كنت برفقته، وكنتما تتظران إلى مواكب أناس كالحمر المستنفرة تفر .  
وقفتما تتأملان، وكانوا يتصامون ويتصايحون ويتشائمون، لم  
تجد من يتوقف ليخوض حرب ملاكمات، اكتفوا، لضيق الوقت  
وصعود الهلع بالتلاسن والتشائم العابر وهم يركضون، لم يكن يعلم  
أحدهم أن زعيق الصقّارات التي أُطلقت بجنازية غير مسبوقه، لم  
تكن جزاء غارة جويّة معادية كما أشيع وتناقلتها ألسن هاذية لرؤوس  
متراقصة على الأبدان، كانت تفكر بملاذات آمنة غير واعية لما  
تُقلت من كلام، فيما بعد؛ توضحت الأمور عندما عادت الألسن  
تردد اشاعة مضادة لتسترد الأبدان عافيتها، والرؤوس قرارها، عندما  
سمعوا: ” مفرزة آلية كانت بصدد تجريب أجهزة الإنذار المبكر  
التي كانت صِدَّةً ومهملة مذ تم تنصيبها في أماكن عامة وفوق  
المباني الحكومية“. فالحرب مبدئياً لم تبدأ بعد، والتهديدات كانت  
متراشقة ما بين إسرائيل وبين الدوّل العربية غير المحاذية لها،  
لكن الناس؛ أناس هذا الشرق الغامض المبتلى بقدر البلادة وفقدان  
الصبر، وعدم امتلاكه عيوناً ثاقبةً تخترق حجب الغد، أو ما بعده،  
وكدأبهم دائماً وابدأً، أدخلوا أنفسهم إلى أحشاء الحرب قبل وقوعها،  
أو عدم توفر حطب مواعد وقوعها بعد.

وقفت تنظر إلى أناس خرجت من منازلها، من متاجرها، ترجلت  
من المركبات ركضاً، ينشدون أقرب الملاذات الآمنة، حُفر قدرة،  
ظل أشجار متناثرة، منزويات لمنازل فردية متناثرة بعيدة عن مبانٍ  
حكومية مستهدفة.

**[قال أبي: في الحرب تفقد البشرية عقولها، فتغدو كواسر مهيضة  
وطرائد يائسة، تفقد وجهات النظر، والقدرة على تفسير الأحداث من  
حولها، لتشریح البيانات والاشاعات المتكاثرة، ليس لها سوى المكوث  
يائسة، كأغنام تنظر إلى سكين القصاب، أو كمتهم واقف داخل قفص  
الاثام، بعينين متلاعبتين وآذان متلعة وقلب يشند نبضه ولسان  
متحجر ينتظر قرار البت بالحكم ضده..]**

لم تكن تعلم يومها، أن الخبر السيء أسرع شيوعاً وانتشاراً من  
الخبر السعيد في بلادنا حصراً، وقف السيد الوالد وضرب كفاً بكف،  
عملت مثلما عمل وضربت كفاً بكف، ضحك وضحكت معه، فيما  
بعد تبين أن الخبر الذي أفرع الناس، ودفعهم سكارى يتدافعون بحثاً  
عن ملاذات آمنة، لم يكن - كما أشيع - إنذاراً مبكراً لغارة جوية  
معادية، ولا صيانة متأخرة لصقارات الإنذار المبكر من قبل رجال  
الدفاع المدني، بل محض خبر بثه مذياع مقهى (أبو شكر) وفهمه  
الناس بطريقة خاطئة أو مزاحية.

**[إذاعات سرّبت معلومة باحتمال حدوث هزة أرضية في مناطق**

**شرق البلاد..]**

كان احتمالاً ليس غير، وناس البلاد لا تؤمن بالاحتمالات، كل خبر بيته مُذيع عبر مذياع موثوق الجانب، يتشبثون به كراسمال غير قابل للنقاش والتأويل.

عاشت الناس يوماً وليلة فاقدين مشاعرهم بخشوع، بصمت ينتظرون عقاب الله طالما الأقدار وفق تفسيراتهم المتناقلة من جيل لجيل، كلها تأتي من باب العقاب الرباني لإنسلاخ البشر عن طريق الهداية والحق والجري وراء ملذات الدنيا.

حصل هذا في زمن طفولتك، وكنت دائماً ترافق السيد الوالد إلى السوق، أينما يجلس أو يقف مع رفاقه وأنت برفقته، تمتد أنامل أصدقائه لتداعب وجنتيك.

ما زلت تتذكر أقوالهم، وتسردها في فترات متفاوتة:

”عقلك كبير رغم صغرك يا زوروا“

”مخك يوزن بلداً يا زوراب“

”زوري.. لك شأنٌ في مستقبل بلدتنا“

*[كنت أشعر بحبٍ جارفٍ يرفعني، وكنت أقص على والدي*

*ممازحاتهم، كنت أعيد كلامهم كما لهجوها، كما قالوها بألسنة مجاملة*

*أو جادة، وكانت والدي تحتضنني وتمطر وجنتي بسيل قبلات، وكانت*

*تزداد سروراً وتدمع عيناها فرحاً..]*

تذمرت الناس بعدما علمت أن الخبر ورد ضمن حوار في تمثيلية مذاعة عبر الهواء، وذهب بعضهم إلى أن البلاد لا تملك مخابرات مهنية لتراقب حركة أعدائها بدقة وعقلانية، لكنها تمتلك عقل الشيطان، عندما تتبكر تلفيقات كلامية لتمررها بصدمة التوقع على الناس أو أن قمع أصواتهم، حين ينتفضون للمطالبة بحق العيش والتنفس بسلام.

*[في تلك الأيام كان أغلب الناس لا يمتلكون أجهزة مذياع، حتى الذين كانوا يمتلكونه، كانوا دائماً وأبداً يضعون الموجة العاملة على إذاعات عالمية، لأن الموجات المحلية، كما أشيع كلها باطلة. لا أحد في بلادنا يثق بإذاعة حكومته..]*

حين تكون في قلب وطنك، حين تتركب مركبة وطنك متسلحاً بصبرك وشاهراً روحك لحماية وطنك، تصمت، من يراك يجزم أنك في لحظة خلق، ترسم لوحة كلمات يسمونها قصيدة، ودائماً كنت تجد (أبو حازم) من يبتدرك الكلام:

”لم نجلس لحظة واحدة وهذا جزء من وفائنا لربتنا“

عيونهم تبدأ بكشط وعشاء الوسن، سحناتهم تمتص ضوء النهار، تحاول أن لا تعكر مزاجك، تبتسم، والثغور من حولك تشرق بالبسمة وسليقتك تجزم:

”أغلبها مصطنعة!“

في ظل الخوف والقسوة تبتكر العيون أفراحاً وهميةً، تدلق الأفواه سعادات تمويهية، الكل يخشى والكل مشاريع للقنص والاحتفال، يمثلون لقوانين السلطة وتعاليمها التنويرية، تخشع القلوب وتتهياً الأسماع وتفرج الثغور وتفتح المآقي، وكلها تنتظر ما ستغرد به، كلهم آذان واعية وصاغية، تدرك هذا، تشدد عليه، لذلك أنت قليل الكلام، ولا تقول ما لم تغربل وتنقي كلماتك من الهذر والروتين في عقلك الذي يقودك وتطيعه.

يقول (أبو حازم) :

”كان في عينيه غموض، وكانت هناك قطرات دموع تتشكل

في موقيه، قال لنا:

- علينا أن نضح العزيمة في جسد البلدة، الناس تحتاج إلى

دعم معنوي أكثر مما تحتاج إلى مأوى وطعام أيام الحرب“

الناس سكارى تتصادم وتمشي من غير غضب، تلهث وهي

تبحث عن ملاذات آمنة، والكل تقريباً على ما يبدو فقد عقله وسلم

راية روحه لقدميه.

**[فقدان العقل يورث فقدان الإرادة، وفقدان الإرادة يورث متاهات**

**ومسالك وهمية، والمتاهات تورث الهديان، والهديان يجعل المرء قسّة**

**تتناهبها الأقاويل والظنون..]**



يخترقون أَرْقَّةً ويخرجون من الزقاق نفسه. لا أحد يسمع، ولا أحد يرى.

و (أبو حازم) قلق ومتحمس، لا يمتلك إرادة كبح جماح انفعالاته: "ألا يمكننا أن نوقف هذا الضياع؟"

يضيف (أبو حازم) :

"وُجِدته يبحث عن جواب قبل أن يهتدي إليه، قال:  
- في الحرب شيطان المرء عقله!"

نقطة تفتيش قلقة، شباب يحملون أسلحتهم وعيونهم حائرة، ذعر عام يستولي على الجميع، تهتز رؤوسهم وهم يبحثون عن فهم لما يجري، أشرت ل- عباس فأوقف المركبة، هرع أحدهم نحوك، ومن فرط هلعه نسي أن يلقي عليكم سلاما، عرفت مدى قلقه، تعذر عليه أن يتفوه بشيء، قبل أن يتراجع إلى رفاقه، ومن حولك الناس تزحف بأقدامهم يجربون متاعهم، لا تنفع النصائح والتعليمات معهم، خمبابا جاء وروج لعقابه الصارم، سيرش البلاد بمادة الخلاص، الناس تحولت إلى قشش فالتة من بيادها تتناهبها - كفخات - الرياح سواء أكانت عاصفة، أو نسيمات عابرة لا تعدو سوى دغدغة: "سيعملها!"

آراء جزمت القضية فحرصت أن تخرج من صمتك:

- الدعاية الناجحة تحقق نصف النصر، عقل المرء سفينته، فمن لا عقل يسيره كائن حائر لا يجيد فن السباحة في نهر الحياة، ويغدو فريسة سهلة لكل خبر عاجل وعابر.

عند نهر صاخب وقفت الناس حائرة، أينما تسير حرب، حرب  
البشر، حرب الطبيعة، وحرب الطبيعة من عدة صفحات، صفحة  
للريح، صفحة للغبار، صفحة لشمس الصيف الشاوية، صفحة  
لغبار الخريف، وصفحة لبرد ومطر الشتاء.

خاضوا في النهر، وانتشروا في الحقول والغابات، جلس بعضهم  
وتشجع الجميع للجلوس، فبدأت النيران تتصاعد، والأشجار صارت  
ضحيةً للأطفال، بعدما تسلقوا وأسقطوا أغصانها اليائسة، وكان البردُ  
يتغلغل بوحشيةٍ إلى الأبدان.

تعرت الأجساد والنار بدأت تجفف الأسماك المبللة، مركبات  
الحبيب خاضت في النهر، بعضها توقفت، أصوات صراخ أطفال  
وشباب تعلقوا بالمركبات، بعض السواق أخرجوا هراوات من تحت  
مقاعدهم، وراحوا يلوّحون بها بوجه الجميع، خاف بعضهم وهبط  
ليكمل رحيله خائضاً غمر وبرد الماء وطميه، بساقين يرتجفان،  
وأسنان تصطك، كأنها ضرب حديد بحديد.

تكشفت الطريق، وهبطتم بمركبتكم لتجتازوا الماء من مكان أمين.  
يومك دائماً له يوم موازٍ في سجل حياتك، إنه واقف ينتظر  
لحظة الشروق.

أفوك على الحدود فاحتضنتك كوالدة.. قلت:

- علينا أن نبدأ من جديد؟ وطننا صفحات ومزالق.

وصلتما ترعة مائية، كان الماء مثلجاً، فعبرتما ومشيتما قبل  
أن يباغتكما حرس الحدود، بادئ الأمر شكّوا في أمريكما، قبل أن  
يقنتعوا بكلاميكما.

[[اتصلوا بمراجعهم وجاء قرار استقبالنا، نقلونا إلى أقرب بلدة داخل  
مركبة عسكرية، ومن لحظتها وجدت العمر لا ينفعه إلا الكفاح والمثابرة  
وصناعة الحكايات، ولن أفصح في مسعاي، ما لم أبدأ من حيث ولدت،  
من حيث تعلمت ألف باء الحكاية، من حيث يمكنني من تجميع خردوات  
الحياة التي مررت بها ، وحكاياتي منبعها بلدي، فإذا كان الميل - كما  
يعلم الجميع - يبدأ من خطوة واحدة، فإن الحكاية - كما أرى - تبدأ  
من إرادة المرء، وتلك هي إشراقة البدء والنهاية..]

يقول (أبو حازم) :

’تحدث كثيراً، وكان يتوقف قبل أن يواصل كلامه، كان في  
توقفه عن الكلام، على ما يبدو، كانت محاولة منه لسحق بقايا الألم  
فيه، أردت أن أخرج من دائرة العذاب، لذلك طرحت عليه سؤالاً  
ابتسم، كأنه أراد فرصة ملائمة كي يهرب من ملابسات يوم إبعاده  
من تركيا، عندما كان يعمل في ميناء جيهان، لم يتكأ أو يتأخر  
فأجاب سريعاً على سؤالي:

- لِمَ اخترت يوم الأحد لشهر عسلك؟ والزواج عندنا خصص  
له يومان الاثنين والخميس! سحب شهيقاً عميقاً وحرر زفيره ثم قال:  
- في يوم الأحد، في الثامن عشر من شهر أيلول من العام  
١٩٦٠ ولدت، ورغبت أن أتزوج في يوم أحد، وإن جاز موتي  
فأرجو أن يكون موتي في يوم أحد أيضاً، تحقق المطلب الأول من

أمنياتي، تزوجت في الرابع من شهر كانون الأول ١٩٨٨، وكان يوم أحد بعدما زالت مخاوف الناس بتوقف الحرب مع إيران، وتوقف عمليات الأنفال، وبناء على رغبة السيدة والدتي - توقف عن الكلام قليلاً ثم واصل كلامه - إلى روحها الرحمة وأرواح موتاكم، كانت تتنبأ بقرب أجلها، كانت تحلم أن أبي يزورها في الأحلام متعباً، يبحث عن أنيس له، ماتت وأنا في الغربية، ماتت قبل أن نحتل الكويت بشهرين، وبعدها توقف هاجس الخوف، فحرب إيران توقفت، وعمليات الأنفال انتهت، ورجبت السيدة الوالدة أن تفرح بي قبل أن ترحل عن دنيانا.

قلت له:

- ولم تأخر هبوط الأمير من عرشه إلى الآن؟

نظر إلي نظرة عميقة وقال بشيء من الحسرة:

- يا (أبو حازم) العرض واحد، لم نوفق في الإنجاب حتى يومنا هذا، كَوَالَة تعاني من مشكلة عدم ثبات الجنين، وما زلنا نراجع كل طبيبة مختصة، وكل سيد يمتلك كرامة، وكل مطيب أعشاب، أو ما نسميه العلاج البديل.

ولكن فيما بعد، وبعد سنوات التقيته مصادفة برفقته بنتين جميلتين، تعانقنا طويلاً وقبلت الطفلتين وقبل أن أسأله، قال:

- نداء و رواء.

ولم يعقب أكثر، كانت الفرحة كبيرة في عينيه، تحاورنا وتفارقنا ولم نلتق بعدها أبداً“

رحيلك يتواصل، وعمرك يتواصل، ووطنك باق لكنه ما زال  
يورق أحزاناً.

ساعات النهار تغادر ويأتي الليل، ليل طويل، ليل لا يُرخي  
السلام على أرض الوطن، تنظر إلى النجوم المنعقدة، النجوم  
الخجولة، نجوم لا تمتلك توضيحات، ولا سبل وقاية الوطن من  
مروق خمبابا.

ليلك لا ينجلي ما لم يتكحل بالحكايات، وأنت تملك ذاكرة لم  
تتعب من الحكوي.

تجلس.. في ظل شجرة المشمش.

تجلس.. في سريرك، في غرفتك العلوية، في ظلام البلدة.

تجلس.. لتستكمل خطوات ألمعيتك في ليالي الحكوي.

## الأحد ٩ تشرين الثاني ٢٠١٤

لم أجد نعاساً يقيني في مركب النوم، قمت وهبطت درجات السلم، وجدت نفسي مرة أخرى تحت الشجرة، كان الليل قد تجاوز ثلثه الثاني، الهدوء شامل، وكل شيء خاضع وخاشع تحت أشعة نجوم كالحة، وغبار النهار ما زال يطغي، دخان الحرائق يشاركه تراجيديا كتم أنفاس ملامح البلدة، فجأة انتفضت مداركي لصوت قادم من أعماقي. يا ترى من هو؟ أين يمكنني أن ألتقي به؟ كان لزاماً علي أن أستسلم لمقتضيات عقلي وما يفرضه علي، وطائعاً مشيت..

حلم رايض نهض وتحول إلى موسيقى، إلى نسيمات بدأت تمنحك صحوة، وجدت فرصة نادرة لترحل فيها إلى ممالك الأزل والأبد، لتخوض متاهاتها بحثاً عن شيء قديم برق وفرض حضوره، كان كظلك يرافقك، تشعر به، لكنك لم تجد في نفسك وازعاً، أو رادعاً، أو دافعاً حماسياً للمكاشفة، كنت تشعر أنه ظلك، وأنه يرافقك كلما تشعر بنسمة سعادة تهب من خيالك، لكنك لم ترغب في إثارة أسئلة بحثاً عن شروحات وتوضيحات والولوج معه في نقاشات حول كونية البشر وكيفية دلق أسراره العجيبة، كنت دائماً تشعر



عليّ أن أفترض أنه تقدم منك، هذا ما تجبرني الحكاية على أن أحشيها بنقطة انطلاق، أو وميض البرق الذي يقود المرء في خضم السرد إلى النهاية، أنت وقفت طبعاً بناء على سلطة عقلك، وصافحته بشيء من الحيرة، وشيء من الرغبة، يدٌ لا ناعمة ولا خشنة، يدٌ شعرت أنك في لحظة ما مسكتها في مصافحة عابرة، وتركت فيك بذور رفقة متيقظة في موقفٍ ما، يوم كنا داخل السوق، ناديته وتجاوزنا قبل أن يخضع لنداء زوجته، تركنا، أنت في حيرة وأنا في لحظة مسرّة، سأفترض أنك وقفت لتتأكد من حقيقة الأمر، وأنه سحبك إلى أقرب منعطف ومعه سرت، هو منتشياً، وأنت تتأرجح ما بين فرح وقلق، عقلك يسيرك وأنت تطيع، وعقلك تعرفه، لن يخذلك، لن يزعجك في متاهات الحياة من غير خطوط رجعة، عند مقعد أمام مقهى ألتهمتها نيران قذيفة جلستما، مقعد على ما يبدو، بل يبدو، قذيفة سقطت على هامة المقهى وجرّاء العصف وتصدع الجدران، أنقذت المقعد مقلوباً إلى مسافة لم تستطع مخالاب النار أن تمتد إليه، أنهضه صاحبك وجلستما، أشعل سيجارة، على ما يبدو، بل يبدو، أنه شعر بحيرتك، وأنه جاء ليُسليكَ كما هو دأبك في ليالي الحكي، لا بد أنه قرأ ورقة صمتك ومشغولية ذهنك:

- جنّت لأخّصك من حلم استودعته فيك!

*[دخن سيجارته على عجل، نفث هالة دخانية حامت فوق رأسينا*



قبل أن تتلاشى، كان عميقاً يسحب النفس أثر النفس، وكان يرفع حنكه  
ماتماً رقبته إلى الأعلى، غامضاً عينيه كدلافين تلهو في حوض ماء  
أمام جمهرة ناس، ليطلق الدخان بأنتشاء على شكل دفقات مصحوباً  
بزفير، ومشفوعاً بقهقهاته المعتادة، كائن عجيب، في خضم الفوضى  
يتفجر مرحاً وقهقهات..]

- قد ترشد جمرتها المتوهجة طياراً؟ سؤال مفترض، لم يمنحك  
فرصة لتحريره.  
- لا تشغل نفسك بأوهام العقل؟ ليس كل ما يقوله العقل  
صواباً؟ إننا محاطون بمزابل وحرائق مفتعلة، وسيجارتني لا تشكل  
سوى نملة تائهة في كئبان رمال.. هههههه.

*أنهض ونهضت أتبعه ومشينا، بدا عليه أنه غير خائف، يخترق  
الليل والمسافات كما لو كان يمشي في النهار، وعند الشارع الرئيس  
وقف يستطلع كهارب، أو كلص عن يمينه وشماله، قبل أن يختار جهة  
جسر الوادي، مشى ومعه مشيت..]*

- كيف عبرت كل هذه الحواجز؟  
- الحالم يمتلك حلولاً كثيرة، غامرت بما أمتلك من وسائل

وحيل، من أجل نزع قناع الحيرة عن ذاكرتك، لا تنس، في حروب  
الداخل كل البنادق بلا عيون ليلاً ونهاراً، حروب الداخل لا تحتاج  
إلى ظلام، إنها تجري في وضوح النهار.. هههههه.. لأن الأسلحة  
عاهرة.. ههههه.. أعني حرّة، يعني بلهجتنا؛ لا تستحي.. هههههه.  
- وما أدراك بما يشغلني؟

قهقهه عالياً، ردد الليل والوادي والمنازل قهقهاته بصدى:  
- يا زوراو..! مذ التقينا، وجدت في عينيك رغبة كبيرة تنمو،  
مذ حكيت لك عنه، وجدتك مسكوناً برغبة مغامرة، لم تسمح لنا  
الظروف أن نلتقي لنستكمل أطر الأشياء المتماثلة، كنت دائماً  
أنتظر مثل الفرصة الخادمة، ها هي قد جاءت، رغم أنها جاءت  
في قيامة فوضى وضياعات تتواصل، المهم أنها منحنتني الشجاعة  
الكاملة كي أغامر من أجل تحقيق حلمك الكبير، وتذكر أن الأحلام  
الكبيرة لا تتحقق إلا تحت ظلال الحروب الغيبية.. هههههه.  
- ولكن رغباتي كثيرة؟

- ستبقى تلك الرغبة، يوم التقينا منتصف السوق في لجة  
الازدحام، لحظة أسررت لك، كما أراها، ما تزال رغبة كونية تتسيد  
قافلة رغباتك الأخر.

*[عند الجسر فوق الوادي الكبير وقف وجلس على حافته  
الكونكريتية، وقفت أمامه، تلاعبت نفسي، وأردت أن أتأكد إن كنت*



أن أترجع عن كلامي القديم، زوربا ليس زورباوان، اليوم.. هههه..  
اليوم اكتشفت الرابع، وربما في الغد تهتدي أنت، أو أنا للخامس ومن  
يدري. ربما سيجد كل إنسان حالم زورباه، وعندها تتحول الحياة إلى  
حديقة زورباوات، ههههه.. عفواً، حديقة مسرات.

- ماذا تعني؟ هل هناك أربعون زوربا في العالم؟

- ربما أكثر، أكثر بكثير مما نتخيل أو نتوقع، ربما زوربا يشذ  
عن قاعدة الأربعين شبه، ربما كل إنسان يتكون من شقين متعادلين،  
هم يسمونه الخير والشر، وأنا أفسره بطريقتي الخاصة، أقول: شقان،  
شق زوربا وشق لا زوربا.. ههههه.. التقاعس والظروف ومتبدلات  
الحياة السياسية، الفوضى ومجهولية الغد، كلها تدفع المرء نحو  
التجرد من أحلامه الكبيرة.. ههههه.. لو حاول كل إنسان، لو منح  
نفسه المحاولة، لربما انسلخ من جلد لا زورباه وعاش بقية عمره في  
عسل زورباه.. ههههه.

*تخلّص من سيجارته، رمى عقبها إلى الوادي، نهض وأنهضني*

*ومشينا، كان الوادي هادئاً، لا أصوات ضفادع، لا طنين بعوض كما  
كان يحصل من قبل، ورائحة الحرائق تقضي على نسبة الأوكسجين  
في الفضاء، كان صوتا زفيرينا وشهيقينا يتواصلان بشكلٍ فاضح، كأننا  
أشباه غرقى في بحر الظلام..*

- قد يباغتنا محارب خرج ليستطلع الأمور! ماذا نقول له؟  
- أزعج من بالك هذه التوقعات التهويمية؟ وتهياً لما هو أكبر من ذلك؟ أعمارنا حفنة فرص متناثرة، علينا أن نلهث بحثاً لاغتنامها، ليست لدينا فرص شاغرة كي نتمهل، أو نستقصي نتائجها ومسبباتها، علينا أن نهول إلى الغد مهما كان بعيداً، كي نحقق في أقل تقدير، ما يسكننا، أو ما يروّض فينا القلق والشك.

- ما زلت تتكلم بالألغاز يا نديمي؟

- الكلام ينفلت من اللسان حسب الظرف والحاجة، عندما تواجه طفلاً، لسانك يعمل من غير أن تتدخل طبعاً، يختار النبرة والكلمات التي لا تخرج، أو تتعالى على مستوى عقل الطفل، حالة ذاتية فيسولوجية، كذلك عندما تواجه امرأة، أو لنقل فتاة، لسانك يتكفل بدراماتيكية عفوية القضية، لأنه يمتلك خاصية مبرمجة، ومطلونة أمام التحديات الحياتية المتبدلة.

- ما تقوله واقع حال مألوف غير منتبه إليه.

- واقع حال لم يهتد إليه أحد؟ نعم؛ لم يتكلم فيلسوف بهذا من قبل على ما أعتقد، الفلاسفة انشغلوا بتحويل كل ما يستعصي عليهم فك رموزه إلى كلام غامض، ههههه.. فلسفتهم تفسير أو تأويل أو.. هههههه.. تشريح الغامض بالغامض، الفلسفة هي تجميع مفردات عصية التشريح، ورسها في جمل محيرة.. ههههه..، الفلسفة شرح أشياء روتينية بكلمات غير روتينية.. ههههه.

- إنك لم تقرّ كل كتب الفلاسفة كي تتوصل إلى رتبة أو فريدة

فكرتك؟ إنك تستهزئ بهم؟

- لساني يشطح بهذا، لقد علمني كل شيء هذا الكائن الغريب، ومن يراه سيتوقف عن الكلام، سيصطدم بمفاجأة فوق مستوى استيعاب عقله، إنه يمتلك جاذبية مذهلة، ساحر في كل شيء، تعلمت منه فن الكلام الغريب، فن الحياة، عرفت أن السعادة فينا، ونحن عبثاً أو شططاً ننتيه في صحارى أوهامنا بحثاً عنها، وبحثنا مكلف ومنزف، السعادة في جيوبنا الأنفية.. كركركركر.. عفواً؛ أقصد في جيوب معاطفنا، ههههه.. أرجو أن لا تستغرب من كلامي؟ لأن أنوفنا هي من تشم السعادة عندما تكون متعافية.. ههههه.

- إنك تزيدني شوقاً إليه؟ أين هو..؟ ما زال يسكنني حقاً كما قلت، لم يهدأ لي بال، وربما حلمي سيبقى عالقاً ما لم أراه وأتخلص من ورمه، كي أتفرغ لحلمي الكبير.

*[عند منعطف السوق سلك ممراً ضيقاً، اخترق زقاقاً متعرجاً، وعند زاوية منحرفة باتجاه مجرى وادي البلدة حيث يذهب ليصب - ليس الآن طبعاً، بل فيما مضى، عندما كان الشتاء شتاءً والربيع فيضانات وذوبان ثلوج الجبال - مجاريف المياه في نهر البلدة، وقف ونقر بأنامل ناعمة على باب قديم، خرج كائن محير، خلته جنناً، شكله يشع بوميض لازوردي، في عينيه يطغي الفرح متوهجاً، قامته مرنة، يتلولب بدنه كأفعى منتشية بعد تناولها ضحية دسمة، فقهقه، ووقفت أتأمله، كائن*

مثير للغاية، في شكله، في حركاته، في صوته الطروب، وقهقهته كانت تشبه موسيقى، شعرت بأنني أعرفه منذ زمن بعيد، أخذني الوجود، وكاد أن يسقطني في لجة نعاس غاصب، قبل أن يتدخل صاحبي، انتشلني من صمتي ودهشتي وحركني..]

- أقدّم لك أحد أهم مكتشفاتي في هذا العصر البائس، صح لسان من قال: "لو خُليت رقصت.. ههههه.. أقصد.. ههههه.. نسيت الكلمة؟" في الخرائب دائماً تجد الجواهر النفيسة التي دفنتها العقول النحيسة.. ههههه.

[صافحني بشيء من المرح، ضحك وبادلته الضحك، ومن حولنا بدا الليل ينسلخ من غباره وعاره، البناءات راحت تلفظ رمادها، والظلام يريد أن ينسلخ من جلد الكون. قال لي نديمي:  
- أقدّم لك زوربا الخانقيني، ال- زوربا الثالث، الذي لم تُدَوّن حكايته بعد..]

سحبكما إلى الداخل رواق طويل، على جانبي الرواق رفوف مرتبة، وعلى الرفوف أشرطة ممغنطة منتظمة وفق أرقام ورموز فسفورية، في نهاية الرواق غرفة مُنارة بضوء وردي يتبدل إلى

بنفسجي، ثم إلى أزرق شفاف وأخضر قبل أن يرتد إلى ورديته.

قطع زوربا حيرتك:

- لدي خلايا شمسية، لا شيء ينفع في بلدة ساقطة، عليك أن تمنح نفسك فرص السعادة، أن تنتزعها من المهمات من حولك، واعلم أنما الدنيا رقصة، رقصة واحدة لاغير، ما لم ترقصها، ستغدو قبضة غبار تتلاعب بك أهواء الظروف.. ههههه.

قال نديمك:

- صباح هذا اليوم، هربت من جحيم البيت، من الفوضى، من أرق التهجير، من ضياع أحلامي، قادتني أقدامي - وكان لزاماً علي أن أطيع - أنت تطيع عقلك، وأنا أطيع أقدامي، واللص يطيع يديه، ههههه.. لكل كائن عاقل عضو أمر يقوده، ألم يطع العاشق قبله، والمرأة تطيع (.....) ههههه، عليك أن تعرف ماذا تطيع المرأة الظامنة! ههههه.. لو لم أطع أقدامي، لربما كان اليوم نهاية حتمية لحياتي، حقيقة، خرجت لأموت بأية طريقة كانت، ربما فكرت أن تدهسني مركبة وأنا أتحايل لعبور شارع صاخب بالمركبات، أو أجلس على مقعد، منتظراً من قلبي النابض أن (ينكب).. ههههه.. أعني؛ أن يسكت بصورة مُفاجئة، لكنني وجدت نفسي مسحوباً لصوت قديم أنهض فيّ الحنين:

(قومي نرقص يا صبيّة.. واشبكي أيديكِ بإيديّ) ٢

أغنية سحبتني من أذني، ههههه.. وجدت نفسي أمام هذا ال- زوربا، آه يا زوراو لو تعرف، امنحني الحق أن أقول، نعم إنه زوربا



الكردي، أو زوربا الخانقيني، نعم هذا أفضل وأرهم، نعم زوربا الخانقيني، وإن لم تعترف بذلك ستري بأمر عينيك أنني قلت الحقيقة. توقف عن الكلام، وكان زوربا كما أسماه يجمع أقرصاً مدمجة راكماً بين يديه، قبل أن يدنو من جهاز التسجيل، كانت سيارته في طرف فمه ملتصقة، ينفث الدخان كما يلفظ عادم قطار دقات دخان مبرمجة:

- يوم أمس جاءني طبيب من العاصمة، هدده بالتصفية ما لم يترك العاصمة، شاب ذاع صيته، وجدوا فرصة إبعاده تحقق لهم حلمين في آن واحد، حلم أنه ليس من طائفتهم، وحلم آخر أنهم سيكسبون زبائنه، نسوا أن الزبائن في بلادنا عندما تتعلق أسماء أطباء بأماخهم، يعبرون الجحيم ويضحون بالغالي والنفيس للوصول إليهم، حتى لو كانوا في دبر العالم، كان يبحث عن أغنية سمعها من راديو ال- أف أم، وبعد ساعة حوار ومرح، خرج من عندي يحمل درزن أشرطة كاسيتات، فيها عشرات الأغنيات الأجنبية النادرة، تهلت أساريه عانقتني ومضى.  
قال نديمك:

- في هذا الصباح أعاد لي صفاء ذهني، أفرغ رأسي من أفكار الموت والهروب والجنون، أسمعني عشرات الأغنيات القديمة، وأنت تعرف أن أغاني اليوم لا كلمات ولا لحن، أغاني الأمس كانت نابعة من الوجدان، كان الضمير حياً يوم أمس، اليوم أصبح الضمير حديقة أشواك.. هههه.. كانت أغاني الأمس تخاطب العقول المنيرة

واليوم تخاطب عقول المراهقين.

أجلسكما وناولكما عبوتي ماء.. قال:

- عليك أن تتعلم الرقص! أصغ لموسيقى الأغاني! وتخيل حركة أنامل الموسيقى! احتبس أنفاسك وركّز! انظر - رفع صوت المسجل، فانساب صوت موسيقى راقصة متغلغلاً، مخترقاً الروح، تراجع قليلاً إلى الوراء، الورا الذي كان يهتز، أو يرقص، الرفوف، الأشرطة منضبطة التصنيف، صور الفنانين والفنانات المعلقة في كل رقعة، المزهريات، وتحركت أجنحة المروحة من ذبذبات الموسيقى الراقصة، تراقص الضوء، وراح يتوهج ويخفت مع ذبذبات الموسيقى، رفع يده اليسار، أتبعها اليمين - أرفع يدك اليسار قليلاً أعلى من اليمين، كي تعطي نفسك وهجاً روحياً، احبس نفسك وركّز! تخيل نفسك في لحظة تحليق كصقرٍ منتشٍ يستعمر الجو؟ ارفع قدمك اليسار قليلاً! لا ترفعها عالياً! إياك أن ترفعها عالياً أكثر مما ينبغي، اربط عقلك بقدميك! كما يربط السائق عقله بقدميه، حافظ على توازنك! بعقلك قُد الأمور! تذكر دائماً أن عقلك هو عصا القيادة! قدمك اليسار مرتفعة، لا تجعلها ترتجف! اختر النقطة الملائمة! لا تنظر إلى الأرض في تلك اللحظة! إياك.. إياك أن تفعل ذلك! لو فعلتها ستقع وتضيع فرصتك، على قفاك ستقع، وقد.. هههه.. لا.. لا.. لا.. وقد لا تفعلها.. هههه.. وبعضهم يفعلها ويغرق في الضحك على نفسه، يتوقف ذلك على مدى قوّة أعصابك ومصارين قفاك.. هههه.. دع



إنديمي لم يحتمل نفسه، رمى سيجارته وقام، شاركه الرقص ولكن؛  
بتعاسة على الرغم من نحافة بدنه، غير مرن، خشن غير متدرب على  
الرقص، ظل يقهقه ويتراجف بعريضة فوضوية صبيانية.. [

- هيا انهض وارقص! بلدة ماتت غيلاً وغدراً، علينا أن  
ننهضها بالرقص، بلدة ما لم ترقص فيها، ستغدو غابة منسية،  
ستغدو مستقماً لإنتاج أجيال فاسدة من المواليد.

توقف نديمك، ضحك وجلس.. قال:

- لم أعد أملك قدرة على منح نفسي كمية كبيرة من السعادة،  
السيجارة سلبت نصف إرادتي.. هههه.. ولكن، لا بأس! سأدرب  
نفسي على ذلك.. هههه.. حياتنا حفنة منغصات ورقصات، إن لم  
نرقصها بمحض إرادتنا.. هههه.. ساستنا سيرقصوها.. هههه..  
سيرقصوها علينا بألسنتهم الزلقة.

شيء ما أنهضك، جردك من كينوتك البراغماتية، وروحك  
تسامت، غادرت واقعتك، وقفا ينظران إليك بسرور ومنتعة، سأفترض  
أنك قلت:

”لأجرب رقصتي“

استبدل كاسيت التسجيل، فشاعت الموسيقى، وبدأ محمود

أنور ٣ يغرد:

(والله ومحتاجك يا حَيَّ.. عندي مثل الهوا والمي)

إتناغمت مع فرح كبير مُضاع، فرح بدأ يورق في ليلة مدلهمة في  
ثنايا بلدة محترقة، رقصت بما فيه الكفاية، رقصة جنوتية غير مهذبة،  
كنت أتقافز كالمسوع، وأصرخ بهوس كالمجنون، شعرت بتعبٍ سريع،  
وجلست أضحك وضحكوا معي..]

- لم أرك من قبل؟

- الناس تعرفني.

- لم أشعر في يومٍ ما بالراحة، أعني برغبة في الاستقرار في  
بلدة ما، حين وعيت الأمور رحت أجوب المدن والعالم، كنت عاشقاً  
للغناء، رحت أحفظ الأغاني، وأرسل الإذاعات طلباً للأغاني التي  
أحبها، ومع قطار العمر السريع، وجدت نفسي أجمع الأشرطة  
الممغنطة والأقراص المدمجة بهوس، وها أنت ترى المئات المئات  
منها متراكمة لدي.

قال نديمك:

- سأحتفظ بكلامي، سأقول زوربا حكاية لم يكتشفها أحد أن  
أن نحكيها للناس.

قلت:

- ربما سنحكيها معاً!

قال زوربا:

- أينما تسقط بلدة أجد لدي رغبة عارمة أن أسكنها، أن

أعيد لها هيبتها بالرقص، الرقص هو الحضارة المفقودة للمدن التي تتكاسل وتهرب من فلك السعادة، الرقص مصل كل علة، لو عرف الطب بهذا الدواء لحولوا كلية الطب إلى كلية الرقص.. ههههه.. لقد فشلوا في إنتاج أبدان سليمة بالعقاقير، والرقص هو العقار الوحيد الذي يطرد جراثيم التعاسة، وفيروسات الجنون، ودويبات الترهل من الأبدان، ويصنع قامات ممشوقة أنيقة.. والرقص أكبر مذيب لشحوم البدن.. ههههههه.

- أليست آثاماً؟ والأغاني حراماً؟ هذا ما تعلنه أئمة الشرع إجماعاً.

- ههههه.. بطيخ، شجر ء، ههههه.. بصل يابس وأخضر..  
تف-.. تف-.. تففف-.. ههههه.. فإاااا اح.. ههههه، ما لم تنام حياتك بين أفرحها وأتراحها، بين جدّها وهزلها، بين أكاذيبها ومصداقيتها، لن تتوازن أمورك في الحياة، ولن تجد طريقك نحو الأمل، الحلم موسيقى يا صاح، انظر إلى الطيور أوان التزاوج! انظر إليها! كيف يرقص الذكر من أجل إقناع الأنثى بأنه طائر عصري، يمتلك كامل فنون السعادة، زوج مثالي مثقف حدائي سريالي راديكالي.. هههههه.. غير مُقنَّع بالرموز، عولمي لا يؤمن بالمثاليات.. هههههه.. واعلم أنّ كل الكائنات ترقص، اللعب هو الرقص، وأنت تداعب زوجتك أليس هذا رقصاً صامتاً؟ وأنت تضاجع زوجتك، هههههه.. قل لي كيف تضاجعها؟ ها.. تكلم..؟ أليس بالرقص؟ بدنك يرقص من فوقها، وهي ترقص من تحتك،

خيالك يرقص وخيالها يرقص، وحين تتدمج رقصتك ورقصتها،  
الفوقية والتحتية، سنتناصقان السعادة الراقصة.. ههههه.

لرغم سنّه، رأسه بلا شيب، وأسنانه ناصعة البياض، عيناه لامعتان  
وصوته صافٍ كنفاء الينابيع، كان صاحبي يواصل حرق السجارة عقب  
السجارة، وإمطار فضاء الغرفة بسحب دخان تلو سحب دخان، نهض  
واستبدل الكاسيت بآخر، شاعت موسيقى أعرفها، بدأت الكلمات تخرج  
بصدى من فم فيروز:

(كان الزمان وكان..... نجي نلعب عل الماي)

تقافز بحركات بهلوانية، وفمه يولول كأنه هندي أحمر تعرضت  
قبيلته لهجوم الببيض، ونديمي واقفاً يقهقه، قبل أن يُخرج هاتفه النقال  
ويصوّر المشاهد من الزاوية كلها..]

- هذه ليلتي! لم أشعر بهذا التسامي من قبل، من أين جننما؟  
من أي مكان؟ لا قيمة لعالم يتقاتل من أجل الفراغ، من أجل أن يثبتوا  
أنهم لا يعقلون، كل حامل سلاح لو رماه وانشغل برقصته، لوجدنا  
السعادة متواصلة، على العالم أن يتوقف عن التناهش والتعارك، عليه  
أن يأتي إلينا ويشاركنا صناعة البسمة، الرقص يا عالم هو علاج  
العصر، صاعقة على رؤوس كل من يهدم المدن ويشرد ناسها، علم





عمداً عجيزتها، تيب توب.. توب تيب.. ههههه.. هكذا كنت  
أردد مع نفسي، وكنت مُقلدها، أرقص في مشيبي، تيب توب..  
توب تيب.. ههههه.. قلبي يرقص، وأقدامها طبل يزيد من ضراوة  
خفقان رقصي، ههههه.. أقصد خفقان قلبي.. ومن زقاق لزقاق،  
هي تتهادى رقصاً، وأنا أرقص متهادياً.. ههههه.. وصلنا بيتاً، لم  
تكن هناك غيرها، خائفاً دخلت وراءها من غير رقص، كاد لبي  
أن يتوقف، مسكتني من معصمي وجرّتني إلى الداخل، تمكّجت  
وتطيبت وتهيأت للرقص.. ههههه.. عفواً؛ أقصد تهيأت للكلام..  
ههههه.. أطعمتني.. قالت:

- من أي المدن أتيت؟

طرحت سؤالاً راقصاً.. ههههه.. عفواً؛ كانت تُراقص رمشيها  
وكرتي عينيها، تيب توب.. عين تفتح، توب تيب.. عين تغلق،  
رمشان ينزلان ويصعدان، كانت تغترسني بنظرات راقصة.. ههههه..  
عفواً؛ أقصد جائعة وفمها كفم سمكة.. تيب توب.. ترقص، عفواً؛  
أقصد تعلقك.. طق.. طق.. طاق.

- أنا لا أسكن المدن! المدن سجون البشر، أنا جواب مدن  
راقصة.. هههههه.. عفواً؛ أعني مدناً ساقطة.

- هذا ما أريده.. كركركركر! حرّكت رأسها وهي ترقص، عفواً؛  
تعلق وتتاوه وتتناوم وترقص.. طق.. طق.. طاق.

وجدت نفسي في حيرة، لكنها بدت خبيرة في معالجة المواقف  
الأنثوية المتأزمة:

- ماذا تعرف من أعمال؟ قالتها بغنج وميوعة، وثرغها مثل فم سمكة يعضعض الماء.. يطق طق.. طق.. تططق.  
- أنا عاشق للأغاني والرقص.  
- حسناً.. هذا ما كنت أبحث عنه! شع ثرغها ببسمة سرور.  
جلسنا نتحاور، وكان الفجر يقترب:  
- يجب أن نقرب أكثر كي يتحقق حلمنا! قالت وهي تدنو مني رقصاً.. هههه.. أقصد زحفاً.

لم أنتبه لغموض كلامها، في عينيها وجدت وهجاً مغريباً، حاولت معي ولم أحاول معها، لم أجد رغبة أو حماوة في هذا - أشار إلى أسفل بطنه - كنت أعيش البراءة والبساطة والسذاجة أيضاً، امرأة كحيلة العينين، سمراء جنوبية، تريد شيئاً واضحاً.. هههههه.. تريد رقصاً.. أرقص من فوق وهي ترقص من تحت.. هههههه.. آه.. هذا الواضح لم يتشكل فيّ، بقيت بين الشك واليقين أرقص.. هههه.. أقصد؛ أتأرجح، أيّ حلم تمتلك كي تندمج مع رقصي.. هههه.. عفواً؛ مع حلمي! لم أكن أعلم ما الحلم، كنت شاباً متهوراً عشق الأغاني وراح يجوب مدن الحروب بحثاً عن منابعها، أينما تقام حفلة حرب، أو حفلة رقص وغناء، أكن ماثلاً. وعند مطلع الشمس خرجت، تصورت أنها ذهبت لتجلب لنا الفطور، بقيت أنتظر عودتها، وبعد ساعة وجدت نفسي أمام مركبة وشرطيين، وفي دائرة صغيرة عرفت ما حاكت من مؤامرة أخلاقية حولي، كانت كعنكبوت مفترسة تبحث عن ضحايا، حاكت حولي خيوطاً مخاطية، اتهممتي

البطلان والبهتان، ومن غير مقدمات ولا شروحات، موجز الكلام ألقوني في السجن، لم أشعر بالغبية، أنا كائن مهاجر، كل مكان غريب هو وطن بالنسبة لي. في السجن وجدت كوكبة شبّان أُتهموا بالعمل السياسي، تألفنا من غير رقص ولا دوران.. هههه أعني بلا لف ورقصان.. هههههه.. المَعذرة، لساني حين يتكلم يرقص، كنت أعني من غير لف ولا دوران.. هههههه.. علّمتم الرقص، اندمجوا سريعاً وتعلموا كل الوصلات التي ابتكرتها، حتى قال أحدهم:

- يا جماعة اليوم اكتشفت أنّ حياتنا أسفار راقصة.. هههههه.

أجاب آخر:

- السياسة رقص أيضاً.. هههههههه.

قلت لهم:

- كل سياسي هو غجري راقص فاشل في هز البدن، أفلح الرقص بلسانه، وعندما يُقنع ويسعد الشعب بـرقصات لسانه، يعني أنه راقص عاهر.. هههههه.. اقصد ماهر.

قال أحدهم:

- من اليوم أنت عضو بارز في خيلتنا.

- لكنني أكره السياسة ولا أقترّب منها، إنها مستنقع الفاسدين.

أجاب آخر:

- بوسعك أن تُعلّم الشعب الرقص، وتجلب لهم السعادة الأبدية، ولو انتميت إلينا سنتخذك كبشنا المفدى، أنت من الآن رئيس جمهورية رقصستان.. ههههههه.

بقيت معهم شهراً، قبل أن يأخذوني إلى قاضٍ أصلع، أنفه مدبب  
يضع على أرنبة أنفه نظارات طبيّة، وكان مخاط أنفه يسيل كينبوع  
ماء ينز نزيماً، وكل لحظة يخرج مندبلاً من جيبه ليزيح مخاط أنفه..  
حقاً كان أنفه يرقص مخاطاً.. ههههه. أو يخطط رقصاً، ههههه..  
وكل لحظة يمد يده المبللة بالمخاط ليمسحها بوزرته السوداء..  
ههههه.. وزرته القانونية.. ههههه، تأملني ملياً وقال:

- ما هي مهنتك؟
- سيدي أنا مهنة سرّ ه!
- رقص.. ههههه.. أقصد؛ ضحك.
- ماذا تعمل؟
- لا مهنة لي.
- وماذا تعمل في هذه الديار؟
- سيدي جنّت لأجمع أغانينا المذبوحة.
- لم يضحك.
- هل عرفت ما هي تهمتك؟
- سيدي لم يُبلّغني بها مبلغ.
- حسناً.. أنت بريء من التهمة.
- أعرف هذا يا سيدي.
- وكيف تعرف؟
- أنا لم أرتكب رقصة سريرية في حياتي.. ههههه . أقصد يا  
سيدي حماقة أخلاقيّة.

- هذه المرأة اتهمتك بأنك راقص بطنها.. هههههه.. أقصد؛  
نافخ رقصها.. هههه.. بطنها.

- يا للهول لكني لا أرقصها.. هههههه.. عفواً؛ سيدي الحاكم  
أعني لا أعرفها.

- حللنا إجليك ووجدناك ميت الرقص.. هههههه.. عفواً؛ ميّت  
التخصيب!

لم أغضب ولم أشعر بياس، ومن يومها قررت أن أعيش  
السعادة من خلال الرقص والأغاني، ها أنتما ترياني أنني أسكن  
منازل الرقص والأغاني والحلم، وأعيش حيثما تتوعك المدن وتقعد  
رقصتها.. ههههههه.. أقصد؛ عذريتها كي أمنحها لحظات الأمل.  
تدخل نديمك:

- وما نفع الأبناء في يومنا هذا؟ إنهم منفلتون لا يرقصون..  
هههههه.. أقصد؛ لا يرتدعون، ولا ينصاعون لأوامرنا، يعيشون  
بأهواء الغرب، أحسدك لأنك منفرد، وتملك الدنيا كلها رقصاً..  
هههههه.. عفواً؛ وطناً.. هههههه.

- الحياة لم تعد حياة! قلت.

تدخل زوريا:

- كلما تشعر باليأس حاول أن ترقص، لا شيء يُخرجك من  
ضجرك ما لم تتخذ وصلة راقصة أنت تبتكرها.

ألّفنا الصمت، وكنت أبحث عن تفسيرٍ لما حصل، رجل، شعرت  
بأنني أعرفه، صوته وشكله وحركاته، كل شيء فيه مألوف، رقصاته  
مرسومة بدقة، ومع كلمات كل أغنية يباغت بإيماءات ونظرات وحركات  
رأس غريبة وساحرة، وظل هاجس سؤال لحوح يُورقني، كنت أريد أن  
أعرف الحقيقة، وعلى ما يبدو، بل يبدو، أنه قرأ ما في ذهني، لذلك  
تكلم قبل أن أطرح سؤالِي..!

- حسناً.. أنت تعيش في حيرة، أنت كثير الأسئلة على ما يبدو، بل يبدو، وأظنك تقتقر إلى الشجاعة كي تتطرق بما يسكنك.
- ليست حيرة!
- حسناً.. أنا أعيش في المدن التي تسقط، أجد نفسي متواجداً، ومعني هذا الركام الهائل من وسائل الرقص، أمتثل من أجل بعث الروح الشفافة في قلوب متسرطنة بالضغائن.
- أنت تحتاج إلى مركبة طويلة كي تنقل وسائل سعادتك!
- لا تفكر بهذا! هذه الأشياء تحمل نفسها بنفسها، تعلمت أن تعيش الرقص.. ههههه.. أقصد التنقل، من غير عناء منّي، إنها تمتثل حينما أمتثل، دائماً أصغي إلى أصوات تسكن خيالي، ومع الليل أجد بساط ريح يحملني، ومعني أدوات زراعة الفرح في كل مكان مُصادر، فأنا أحفظ كل الأغاني التي قيلت عبر الأحقاب المنجرفة.

تكلم نديمك:

- زوربا هو الفرح الكوني الذي لا ينتهي، زوربا يمثل في كل مكان فيه حدائق لم تُزرع، أو حدائق يابسة، وحضوره الراقص من أجل إعادة بهجاتها المُصادرة.

قال زوربا:

- مررت بهذه البلدة في يومٍ ما، وعشت ليلة لا تتسى، هناك على حافة النهر، حيث تستقيم شجرة شاكر، أو بالأحرى الشجرة التي تطل على صخرة شاكر، هناك حيث أقيم مسرح - التنكات ٦ - وكنت شاهداً يوم اعتقلوا الشباب بتهمة بناء مسرح لتهديم العقل، وتأسيس وُكُرٍ للماركسية في البلدة، من قبل رجال الأمن، شاهدتهم كيف هدموا المسرح، وكيف ألقوا الصفائح في النهر وسط زغاريد وتصفيق، هناك في تلك الرقعة أُقيمتُ حفلة صاخبة، كُنت شاهداً على الثورة التي أقامها الشباب لحظة انهالوا على سعدي البابلي ٧ مطرب الغلمان كما أشيع عنه بوابل الحجر. بالمناسبة أبو خالد ٨ كان أحد رموز الطرب المحلي، وصاحب أقوى حنجرة غنائية، كان يمثل صوت الفرات الأوسط بكل تجلياته، لكن الأمزجة الغيورة ومافيا إسقاط الرايات الفنيّة الشهيرة، دائماً تتواجد في كل مكان، وفي كل زمان، لوثوه بالنكات الراقصة.. ههههه.. والحكايات الساخرة، وهذا ما جعل قيمته تهبط في بورصة المستقبل، نعم.. شهدت كيف انهالوا عليه بوابل الحجر، لأنه كما أشيع بين أهالي البلدة غمز بعينه أحد شباب البلدة الحلوين، وتلك هي لحظة من اللحظات

الراقصة في حياتي.

تكلم نديمك:

- آه.. إنك كنت تشاهدني لحظة بنينا المسرح، وكيف تم اعتقالني من قبل رجال الأمن.

- ما إن سمعت بخبر إقامة الحفل، جنّت عبر القاطرة إلى البلدة، لأنهل الأغاني رغم علمي أن المطربين يكررون أغانيهم القديمة، أو يتغنون في المناسبات بأغاني بعضهم من بعض، والناس لا يهتموا بذلك، يبطش بهم الفضول، وما يهم الناس أن تتسامى وتعيش السعادة مهما كانت رداءة الجودة الفنيّة، وبؤس كلمات الأغاني، وموحشيّة الصوت، المهم الرقص يا عالم.. الرقص.. الرقص هو الغاية المنشودة للحضور، وليس مهماً أن ينهضوا كما نهضنا، ويتشابكوا كما تشابكنا، بل كانوا جلوساً يرقصون، أبدانهم ترتعش وقلوبهم ترقص طرباً، وأقدامهم تثير الغبار من تحتهم، ورؤوسهم ترقص متغاممة مع ضربات الطبل، وكانت رموش عيونهم تشبه عجريات سكرانات.. ههههه.

*[في تلك اللحظة توقف الكلام، طائرة من غير طيار أخترت سواد*

*الليل، دارت دورات حول البلدة، قبل أن تحترق أحشاءها وتختفي، وبدأ*

*الفجر يبطش بسجف الليل، والتعب بدأ يقفل العيون، تراخت أجسادنا، وكان*

*لزاماً علينا أن نتحايل كي لا ننهار، أو ننهي الحكاية في ذروة توهجها..]*



- يجب أن أغادر! لم أعد أملك وقتاً يسمح لي بالبقاء! تكلم نديمك.  
- قد لا تجداني هنا في المرة القادمة، أوصيكم بالرقص! الرقص  
ينجيك من السأم والتمزق، ارقصوا وعلموا الناس الرقص! الرقص  
حضارة كونية مهمة في بلدنا، لا تنسوا هذا! لا تحاولا المجيء إلى  
هنا! قلت لكما إنني جَوَّابُ مدن ساقطة، وربما سنلتقي في بلدة أخرى  
ستسقط، وحتماً هناك مدن كثيرة مدونة في سجلات القدر، إنه يُخَرَّب  
ويمشي، ربما هناك سنلتقي ونبتكر رقصات جديدة.. ههههه.

ختم زوربا كلامه. تعانقتم وخرجتما..

قال نديمك:

- لليونان زورباهم، للبرازيل زورباهم، وهذا زوربا الخانقيني..  
ههههه.. وأنت.. هههههه.. عرفت نفسك.. زوربا الجل-..  
الجل-.. حسناً، كما ترغب زوربا الجبلاني.. ههههه.  
- وهل كل الزورباوات يجيدون الرقص ومرح الكلام.  
- لكل زوربا رقصة.. ههههه.. أعني فلتة مرحية!  
- لكنني خارج التغطية.. هههههه.  
- لك فلتاتك.. إن لم تغفلتها واقعياً.. ههههه.. سترقصها..  
ههههه.. أقصد يا عزيزي ستدسها في حكاياتك.. ههههه.  
- أدخلتني في حيز الحيرة وإعادة التفكير بما فكرت به!  
- يا صديقي.. زوربا اليوناني يمتلك رقصة خالدة، وما زال  
العقل الموسيقي يفشل في الوصول إلى رقصته استثناء أنطوني  
كوين ٩ الذي تحدى وحول رقصة كازانتراكس الكلماتية إلى رقصة

بدنية، وزوربا البرازيلي كان عبثياً وساحراً وغريباً حير الناس بوقائع حياته ورقصات كلماته، وهذا ال- زوربا رأيته كيف حوّل رماد البلدة إلى ضياء راقص، وأنت عليك أن تتبكر رايتك.. هههههه.. أعني رقصتك.. هههههه.

مشيتما وعند الجسر انفصل عنك، حاولت أن تستبقه.. قال:  
- لم أعد أملك فرصة نادرة كي أرقص.. هههههه.. عفواً؛ كي أحلم، كان جواب سؤال عينيك يورقني ويدفعني لأغامر.. هههههه.. ها أنذا أنهيت رقصتي معك.. هههههه.. عفواً؛ أعني حكايتي معك.. هههههه.

*أتركني ومضى وهو يضمحل في الدكنة الأخيرة لليل، حاولت أن أوقفه، أن أمد يدي وأعيده، وجدت جذع شجرة في حضني، استنقت، بدا خيط الفجر يلوح، لا شيء سوى بلدة تواصل رقصتها بالدخان والغبار والحرائق والنتانة والصمت، كنت أحتضن شجرة المشمش بجنون عاشق يحتضن معشوقته، كانت ترقص وأرقص معها، لا أدري أكانت هي ترقصني أم أنا أراقصها، ليس هذا مهماً، بل المهم أننا كنا نبتكر رقصة خاصة بنا، فككت اشتباك يدي بها، انبساط اجتاحني وأزال تعبي، وانزاح ما تراكم في من أرقق ونعاس، تراجع وأنا أتلقت خوفاً من عين راقصة.. هههههه.. أقصد؛ ساقطة عليّ، رغم يقيني أنني منفرداً أرقص.. هههههه.. أعني أحلم في بلدة راقصة.. هههههه.. يا لمتعة الرقص في هذا الزمن الراقص..!]*

دخلت البيت..

لم تجد بادرة صحو أو رغبة حكي..

منتعشاً متسامياً ألقيت بدنك على السرير، سريعاً سافرت إلى  
صوتٍ يناديك، إلى موسيقى طروب قادمة من أعماقك التي بدأت  
ترقص وتحكي.

## الهوامش :

- ١ زورباوان : المقصود شخصيّة زوربا اليوناني ل- نيكوس كازانتراكس . و شخصيّة زوربا البرازيلي ل- جورج أمادو .
- ٢ سامي كلارك : مطرب لبناني اشتهر بأغنيته ( قومي نرقص يا صبيّة .. )
- ٣ محمود أنور : مطرب عراقي من أصول كرديّة، اشتهر بأغنيته ( والله ومحتاجك يا خي و لو تحب لوما تحب هي وحدة من اثنين )
- ٤ تستخدم كمفردات تعبيرية للسخرية ضد الإجابات التي لا تعجب السائل .
- ٥ مهنة سرّ: مأخوذة من سلاح سرّ ، يكنى بها الجندي الذي لا يسمح له بحمل السلاح لأسباب كثيرة قد تكون أخلاقيّة أو خَلقيّة.
- ٦ مسرح التنكات: مسرح بسيط أقامه كوكبة من شباب جلولاء في حقبة السبعينيات من القرن المنصرم من صفائح الزيوت النباتية ، تحت إشراف فيصل المقدادي ، تم تهديمه واعتقالهم من قبل رجال أمن البلدة .

٧ سعدي البابلي: سعدي الحلّي : ١٩٢٢ الحلّة ، أحد أشهر المطربين الشعبيين في العراق ، وكان يسمى ب- صوت الفرات ، صيغت حوله الكثير من الطرف الأخلاقية ، بسبب نوعية أغانيه التي تميل نحو التغني بجمال الفتیان ، أغتيل مع زوجته في باريس على يد مجهولين في العام ٢٠٠٥ لأسباب غامضة .

٨ خالد : نجل سعدي الحلّي ، كان مطرباً ، مات قبل مقتل والده .

٩ أنطوني كوين: الممثل العالمي الشهير الذي جسّد شخصيتي عمر المختار وشخصية وزوريا اليوناني .

## الأحد ١٦ تشرين الثاني ٢٠١٤

[جاءوا.. نهضت وألقيت نظرة من خلال النافذة إلى عتمة الزقاق،  
لم تؤمن لي النافذة رؤية صالحة لقراءة ملامح وجوه الموجودات، كان  
القمر يتلاعب من خلل غيوم متقطعة ترحل شرقاً، يكشف أوان صحوته  
أشباح الأشياء، ويواربها ما أن تتلعه غيمة غازية، من خلل الصمت،  
وقع خطوات بشرية تناهى إلى سمعي، منضبط الإيقاع، في البدء خلته  
ضربات قلبي، قبل أن يسعفني عقلي، وكان يدنو ويتصاعد، قال عقلي:  
شخص ما بطريقة استعراضية يمشي على أرض الزقاق، خلته مسلحاً  
جاء ليؤكد ما قاله لي، لا بد أن القضية تطورت أكثر مما كان متوقعاً،  
هذا ما دار في ذهني في تلك اللحظة وأنا أتلمس طريقي محترساً أهبط  
درجات السلم، لم أشعر بخوف يخلخل منظومة يقيني، لم ينبض عقلي  
بوميض الارتباك، فتحت الباب من غير تردد، وجدت شبحاً يرتقي  
الكرسي، كان نصفه الأسفل واضحاً، وعشاكل شجرة المشمش المتهدلة  
تبتلع نصفه الأعلى، نزل منتزِعاً العكاز، هبط وسار خندفة ١، يضرب  
أرض الزقاق بمقدمة العكاز، كانت ضرباته تشرر الحصى، وتنتثر ألواناً  
فسفورية متوهجة كنوافير المياه المنارة بالمصابيح الملونة:

- اتبعني.. اتبعني..

ومع كل وقش ٢ قدم وضربة عكاز وحزمة شرر أنفاي ترتجان:

- اتبعني.. اتبعني.. اتبعني...]

عصر يوم خميس، دخلت إلى صالة طبيب هرب من العاصمة، جزاء تهديدات لاحقه بتصفيته، شاعت شهرته، منصفاً للفقراء والمحتاجين والمهجرين، شهادته العلمية، بورد دكتوراه من لندن، متخصص بالعظام والكسور والفقرات، كنت في صالة مختنقة بالحضور، نسيت آلام ظهري فجأة، واندفعت مندھشاً إليه، كان يتوكأ على عكازه كما رأينا ظهيرة ذلك اليوم، متقدماً أكثر مما ينبغي في السن، متعرقاً، وآيات البؤس والتعاسة تنقطر لامعة من على جبينه، تعانقنا، كان طلحاً ٣، يمسك خاصرته بيد، ويد تتلمس دربه بعكازه، سأل عنك وعن أحرص البلدة، سأل عن الكثير من الزملاء، خطونا؛ وعلى صحن الدرج تحاورنا، قبل أن يغادرني على أمل أن نلتقي كثيراً.

وكما تبددت آمالنا، اللقاءات بيننا كما تعاهدنا عليها لم تتم. حسناً.. إنك استجبت ومشيت أسير ندائه، لم تجد ومضة خوف، أو جرس إنذار يحسبك، أو يعدم رغبتك، كان عقلك يسهل مرورك عبر الأزقة وأنت تتبعه، وكان الشرر تتطاير كلما لامست عكازه الأرض الحصوية، كانت خطواته فرانق؛ كما رأينا معاً،

وصل حافة منحدر كبير خلف (كن قرمزي). وقف.. في تلك اللحظة نهضت أبدان متساوية في الطول، منتظمة الصفوف، كأنها رماح كمائن اندفعت على حين غرة، لصد هجمات عدو مدروس ومرصود، أشار بعكازه وجلسوا، استدار نحوك:

”ورم قديم يسكنك! أتيت لأزيحه عن كاهلك“

لم تجد كلاماً وفق قناعتي، ربما لم تفهم ما قصده، وربما كان كلامه زمزمة ٥، تقدم ومسك معصم يدك وقادك إلى حافة المنحدر، ووقفت لصقه:

”كنت هنا لحظة حدث ما حدث“

”لا أفهم شيئاً مما تقول“

”حسناً.. قبل أيام وجدت شاباً يدفع عربية، نقل لي البضائع، ولحظة وصلنا المنزل رفض أن يأخذ أجوره، لم يمنحني فرصة مجادلة أو مجاملة، ذكّرني بشخصه القديم قبل أن يعانقني وينخرط في لجة حشرجة، واسيته وكفكفت دموعه، قبلني وغادر مسرعاً يدفع عربته!“

”وما علاقته بي“

مسك معصم يدك ومشيت معه، كان المنحدر هشاً، وكان الليل قد أسجى عباءته، صمت مطبق، والنجوم وامضة تبرز وتتوارى خلف غيوم عابرة تركض شمالاً، وصلتما مرتفعاً أرضياً يتوسط مساحة أرض منبسطة مترامية الأطراف، تسلقتما، ترك يدك وأشار نحو الجنوب بعكازه، وأظنك رأيت مشاعل متوهجة تتلاعب، أو فوانيس وامضة تتحرك، كما تهباً لنا في تلك الجلسة الطفولية،



يوم جلسنا مسحورين بكلام يهبط، هبوط العسل في الفم، على مصاغينا، أسناننا تصطك، عيوننا تصطمم بفرسان عماليق، وخيول تصهل، ورايات تخفق، رماح وسيوف ودروع تقدح شررا.

تقدم خطوتين.. قال:

”من هناك جاءت القوافل، ركباناً وراجلين، كانوا متحمسين للمعركة - استدار نحوك وأشار بعكازه نحو الشرق - هنا كانت أسوار البلدة، وكان الجند متحصنين روعاً، بعدما ولّوا فازين من الجنوب، وكانت كوكبة الرماة على أهبة الاستعداد، تعذر على جند الصولة اختراق الأرض المزروعة بالحسك والخوازيق ٦“

” آه أستاذ! أنت أستاذ هاني! “. صحت.

” هذا هو سبب مغامرتي لاختراق المستحيل، لأخوض هذه المغامرة من أجل أن أتخلص من وزر كلام قلته بحقك وأنت لا تستحقه!“

” لم تقل شيئاً بحقي على ما أظن. كنت خير معلم لنا وخير أب!“

” هذا ما دفعني أن أعبر الحواجز المتعسكرة بالخوف والسلاح كي أصافحك“

” تصافحنا كثيراً، أم إنك نسيت يوم جلست معنا في المقهى في تلك الظهيرة، تحاورنا مع أخرس البلدة، وتكاتبنا تغريداتنا العابرة“

” لم أكن أملك الشجاعة الكاملة كي أبوح بسر كتمته طويلاً!“

” أنت تحيرني أستاذ“

تقدم منك وقادك من جديد الى حافة المنحدر..قال.. مستحضراً سؤالك الذي طرحته عليه يومئذ، وأنه نسي أو كان في حمى سرد

المعركة ولم يجبنا عليه:

- أتذكر أنك سألتني عن سبب تسمية البلدة ب- **جولاء**.

- نعم.. أتذكر لكنك نسيت أن تجيبني أستاذ!

- حسناً.. يقول المنهج التربوي، وكثيرٌ من أقاويل الصحف، أن أرض البلدة تكلت بالجنث، أو تجللت كما جاء الوصف بدقة أكثر من قبل الحكواتيين، وناقلي أخبار ووقائع الأمم، وأنت تعرف ما معنى التجل، أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ قتيل، وهذا ما يثير الريبة، ويفتح باباً للشك عند المؤرخين اليوم، أنت تعرف يا زوراب، أن حروب اليوم رغم شاملة الدمار للأسلحة ليس بوسعها أن تحقق تلك النسبة من القتلى في معركة واحدة، لذا علينا أن نقول كما قال تاريخنا، وأنا ببغاء ليس غير، نردد المناهج كما تفرض علينا، ومن هذا التجل سميت البلدة ب- **جولاء**.

آه.. عزيزي زوراب، في تلك الرقعة جلسنا ذات يوم، لا بد أنك تتذكر تلك اللحظة؟ وأنك وضعته في الحسبان ليوم الحكي، لكم كان يوماً جميلاً، يوم قال لنا أستاذ **هاني**:

”اليوم لدينا استطلاع ميداني، طالما موضوعنا عن معركة

**جولاء الواقعة ٧**“

فرحنا؛ ليس لرؤية وقائع معركة خيالية، بل لأننا كنا من عشاق الجبال والطبيعة، تمكن من دمج درسي الرسم والرياضة مع درس التاريخ لنكسب وقتاً طويلاً، مشينا في صفوف منتظمة، كانت عيون الناس تراقبنا بحسرة ودهشة، وعلى حافة المنحدر أجلسنا، بدأ يشرح

لنا وقائع تلك المعركة الحاسمة، يوم تجللت أرض بلدتنا بالبحث،  
وسميت من يومها كما يشهد التاريخ بجلولاء الواقعة.

قال لي أستاذ هاني لحظة أراد مغادرة العيادة، بعدما سحبني  
من يدي خارج الصالة وعلى منبسط الدرج أسرَّ لي:

“أحببت أن أرى زوراب“

“ما زلنا نجهل أخباره“

“يؤرقني سرُّ بدأ يكتم أنفاسي!“

“حرره كي تريح صدرك أستاذ“

“لابد انك تتذكر يوم هويت من عل، وكيف تدرجت إلى

عمق الوادي، لم أكن أعي الأشياء من حولي لحظتها، مثل دولاب

أدور، السماء والأرض معي تدور، وفي ردهة المستشفى، بعد يومين

استردت وعيي، آه.. فقدت كل شيء! آه.. فقدت شجرة حياتي.. آه..

ما زلت أعيش تحت عذاب سر يرفض الإخلاء عن كاهلي“

“ كانت لحظة مخجلة أستاذ، لكم تألمنا، ودمعت عيوننا في

تلك اللحظة!“

“ لم تكن مخجلة لكم فقط، بل الخجل كل الخجل، عندما

زارني طالب وأسر في أذني أن زوراب هو من ألقى بالحجر علي

لحظة كنت أشرح وقائع المعركة، بسقوط نظارتي فقدت الرؤية

وتدرجت إلى عمق الوادي“

“ لكن زوراب لم يفعل ذلك أستاذ“

“ قبل أيام عرفت هذا، اعترف بذنبيه، هو هنا يعمل حملاً!“

” أكان سبب معاقبة زوراب بالفقلة، وترقين قيده لعام دراسي بسبب سقوطك أستاذ “

” من المخجل أن ذلك قد حصل!“

لم ييح باسم الواشي، كثيرٌ من الزملاء تحولوا إلى حمّالين، بعدما تعطلت حياتنا وهاجرنا بلدتنا، كان يوماً عصيباً علينا، كنّا خاشعين وأستاذ هاني يسرد لنا وقائع المعركة، وكنّا نسمع هدير السيوف، وصهيل الخيول، وضرب الرماح بالدروع، وصراخ الفرسان، فجأة وقفنا ذاهلين، لا نلوي على شيء، كان أستاذ هاني يتدحرج من السفح وحتى عمق الوادي، كسقوط صخرة عملاقة من علٍ، لم نر شيئاً سوى جسد يتدحرج، وغبار يعلو، وصرخة تضحل:

”.....!!!!!!“

ذكر لي أن حجراً أصابه لحظة كان يشرح سير المعركة، أصاب رأسه وفقد وعيه نتيجة سقوط نظارته، وهبط ليفقد رجولته مع كسر حوضه وزحزحة فقراته القطنية.

[..حيزني بكلامه، كان دافئاً بذات الحرارة التي كان يشرح لنا تاريخنا، استوقفني سرّ يتلامع في موقيه على وهج نيران متوهجة تتوهج وتخبو، هجست إنه بصدد أن يحرره، يكافح لكنه يختنق، يتردد أو يعجز التخلص منه، كما لو كان قد ابتلع حسكاً وقف في سقف فمه، كان يبتعد ليستجمع شجاعته، ويعود ليعانقني مختنق العبرات محبطاً:

- زوراب سامحني!

كانت فرحة لقائنا فوق كل اعتبار، أعاد لي وقائع المعركة كما شرحها لنا في ذلك اليوم البعيد، قبل أن نراه يهوي ويتدرج إلى عمق الوادي.  
قال:

- أتعرف يا زوراب لم سمّوني هاني؟

- اسم جميل يليق بك أستاذ!

- لكل اسم مسمّى، كانت هناك امرأة من البلدة شهد التاريخ لها، كانت تدعى أم هاني، كانت تطعم المقاتلين في ذلك الزمان، تُهيئ لهم مستلزمات العيش، تطب جراحهم، وتمدهم بالمعنويات لمواصلة الذود على البلدة، كانت "قوةً وقدرًا". وهو كلام موازي ودقيق وفق المصطلح في عسكرية اليوم.

- سمعت بها عبر أحاديث عابرة، وقررت أن ألاحق المعلومة، وجدتُها مذكورة من خلال بعض المقالات في الأنترنت رغم أنها مقالات إنطباعية غير محايدة.

- أمي يوم كانت فتاة برفقة جدّي، كانا يبيعان الطعام في كشك صغير قرب المعسكر، كانت مدللة، لها حق التصرف كما تشاء، أباحت لي؛ أنها لم تقبل أخذ النقود من الجنود الوافدين الجدد إلى المعسكر، وسمعت يوماً ينادونها؛ أم هاني! جدّي وجد المعلومة مأخوذة من تلك

المرأة التي كانت تدعى أم هاني يوم جلولاء الوقيعة، بعدما سأل بعض المعلمين وملاً الجامع ، فقرر بناء لتوصيفات الجنود أن يسمي وليدها بعد تزويجها ب- هاني.

- وربما لهذا السبب صرت مُعلماً للتأريخ، وعاشقاً ولوعاً بالفتوحات الإسلامية.

- ربما هذا هو السبب، وربما هي من مصادفات الحياة.

- كنت متحمساً أكثر من اللازم، وأنت ترسم مشهد المعركة لنا، لذلك فقدت السيطرة على نفسك، كُنَّا غارقين في نهر الدهشة، كأننا نستشرف أوار المعركة يومئذ، قبل أن نجفل على الحادثة.. آه.. كانت لحظة مؤلمة دمعت لها عيوننا وفقدنا ألسنتنا لحظتنا.

- نعم.. شعرت لحظتنا، ان كرة منجنيق ملتهبة انطلقت من داخل الحصن، وأخطأت مسارها وأصابني في رأسي، ففقدت السيطرة وهويت.  
- كيف حدث ذلك، كُنَّا في زمن آخر؟  
- آه.. يا زوراب! كانت كرة نارية أصابت رأسي وألقتني ككرة تتدحرج من عل.

- ما زلت متحمساً أستاذ وأنت تتكلم كما كنت في يومئذ المشؤوم؟  
- زوراب.. من يومها بدأت معركتي مع الحياة من أجل استرداد صحي.  
توقف عن الكلام وشعرت أنه بدأ يجهش بصمت..]

في ساحة مغبرة كئنا ننتظر وصول قافلة المساعدات، سمعنا خبر موته، دمعت عيناى، وعصر اليوم نفسه كنت في قاعة الفاتحة، النقيت ببعض رفقاء الدراسة، تحدثنا عن أشيائنا الحىوية، عن تدهور أوضاعنا، عن ضياع أحلامنا، سألني أكثر من صديق عنك، وكانت هناك أخبار متضاربة تتناقلها الألسن حولك، منهم من أكد أنك مت، ومنهم من ذهب إلى أنك انتميت للفئة المسلحة، بناء على معلومات مسربة عبر السنة مازحة أو تشويهية، وقفت على مسافة واحدة من أقاويلهم، فالأخبار كانت أشبه بلعبة تسلية على السنة أناس غايتها حرق الأعصاب، والتلاعب بمشاعر المهجرين، قيل إنهم خلايا نائمة لتأليب الوضع العام وتسويق الذعر .

[..هل كانت الضربات مؤلمة؟]

- ما زلت أشعر بحرارة لاهية تحت قدمي!

- أنا .. لا .. لم أكن حاضراً، كنت .. لو كنت حاضراً .. آه .. الألم .. من

المخجل .. أنت يا زوراب .. أنت .. مستحيل .. إنك لا تستحق .. حق الألم!

كان مرتبكاً يتكلم، يتقدم منى ويتعد، وكان الليل منيراً بعدما رحلت

الغيوم رغم برودته، كانت المشاعل من وراء، أو من فوق التلال تحيق

بنا، كنت أرى شهباً نارياً تنطلق من وراء الحصن نحو الجنوب، كنت

أرى الجند يتقدمون ببسالة وصياح، سار خطوات نحو الحافة الجبلية

ل- (كن قرمزي)، وقف بعيداً وسمعت نحيب بكائه، تقدمت منه:

- أستاذ.. أنت تعذب نفسك!

- أستحق العذاب!

- كنت طيباً وأباً لنا!

- قالوا لي إنك لم تبك يوم ال-.. آه.. ليس بوسعي أن أعيد الكلمة، لكن دعني أبكي بدلاً منك! يوم وقفت مستنكراً كما قالوا، ومستغرباً من تلك آه.. لا أستطيع أن أقولها.. آه.. زوراب.. أنت.. لييتني أملك شجاعة هذه الفرسان الصائلة لاقتحام الحصن.. لو كنت شجاعاً لاجتزت الحسك والخوازيق الخشبية واخترقت البلدة لتحريرها.. آه لو امتلكت شجاعة فارس لقلت لك الحقيقة المرة التي تعلقم لساني.

- أستاذ!

- تلك ال- آه.. تلك ال- لا.. لا.. لا.. كنت أنا من يستحقها لا أنت!  
- لندع هذا الأمر جانباً. قد يفسد علينا هذه الصحبة.

رأيته يهز رأسه موافقاً، وربما كانت فرصة كي يللم شجاعته.

- أتدري يا زوراب، أتدري.. أنني ولدت يوم أحد..!

- أنا أيضاً ولدت يوم أحد! وما الضير في ذلك؟ هناك الكثير الكثير

من البشر ذكراً وإناثاً، ولدوا في مثل هذا اليوم أيضاً!

- آه.. يا زوراب، ما زلت أتذكر يوم قالوا لي أنك قرأت قصيدة



عمر المختار ٨ ، ظلُّ أستاذ طلال يتحدث عن طريقة إلقاءك للقصيدة ،  
ظلُّ مبهوراً يكرره لنا حتى فُتْنَا بك ، ولحظة ألقىتها أمامنا يوم الخميس ،  
مهمنا وغمغمنا ؛ أن لك مستقبلاً شعرياً في بلدتنا .

- لا أحبذ الشعر أستاذ .

- لكنك تكتبها هذا ما قلته يوم جلسنا مع أحرص البلدة .

- تدوينات عابرة لا تعدو سوى خواطر عمودية وهواجس تؤرقني

أقوم بكتابتها!

تقدم خطوتان مئي، كان العكاز بيمنيه، وضع شماله على كتفي،  
وفي عينيه لمحت شرر متذبذبة، كانت ترجيعات نيران مشبوبة خلفي،  
كانت الخيول تحمم، وقع ضربات قوادمها كقرع الطبول، كانت ترتفع  
وتدك الأرض المزروعة بالخوازيق والحسك الخشبية والحديدية، استدرنا  
معاً، قال:

- أنظر يا زوراب..!

ارسلت عيني الى جهة عكازه، من جهة الشرق، لمحت فارساً  
مقنعا بالحديد، تحيطه صفوف دائرية من فرسان مقنعين بدروع حديدية  
يمتطون سهوات الخيول، قال:

- ذاك قائدهم مهران الرازي ٩ ، خسر معارك الجنوب، وقر ليتحصن

ببلدتنا، قُتل فيما بعد في بلدة خانقين، وهي لا تبعد عنّا من هنا سوى

فراسخ معدودة .

- سمعت به، أنت شرحت لنا المعركة في الصف، ويوم اخرجتنا لترسم لنا مشاهد الواقعة كما حدثت هنا حيث نقف.. يوم اجلسنا هناك، يوم بدأت متحمساً كفارس يتقدم من عدوه، يوم.. آه أستاذ.. لا أستطيع.. رغم هيمنته على ذاكرتي، أن استعيد المشهد.. يوم.. يوم.. آه.. لا.. كنت.. أنك لا تستحق ذلك أستاذ..!

- زوراب! دعك من ذلك! أنك لا تستحق.. آه.. نفس الشعور ينتابني، لا.. لا.. لا أستطيع أن أقول ما جئت من أجله إليك!

في تلك اللحظة، شئت مسارب الليل، ومضات نيران ارتفعت من وراء التلال المحيطة بالجانب الجنوبي للبلدة، توضحت عن ثلاثة مشاعل تتقدم مواكب يسابقون الغبار والريح، هبطوا سريعاً نحو جنوب غرب البلدة حيث مخيم المرقال، قلت:

- يبدو إن ما ذكرته كان وصفاً دقيقاً ليوم الواقعة، ها هم وصلوا.. كما ذكرت لحظة.. آه.. أستاذ صعب علي أن أقول ما متوقف على لساني. استدار حيث كانت المشاعل تفضح مساحة واضحة من الفضاء، قال:

- طليحة بن خويلد الأسدي، وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن مكشوح، ١٠، أتوا ب- ٦٠٠ مقاتل لإدامة زخم المعركة، كان الفرس، كما تؤكد تاريخ الواقعة، واعلم يا زوراب، أنا أقول ما قاله المنهج،

وليس لنا أدلة محايدة تبين لنا الحقائق، فكل معسكر يروي حكايته كما يحلو له ، وأنت تعرف إنّ أمة العرب أمة بلاغة وشعر، ولا بد أنك توصلت إلى حقيقة غائبة أو مُغيبية، إن المنهج التربوي دستور المعلم، سنقول ما قاله لنا كتاب التأريخ، نعم.. كان تعداد جند الفرس في جلولاء الواقعة، كما قال كتاب التأريخ، هو ١٢٠٠٠٠ مقاتل، مقابل ١٢٠٠٠ مقاتل عربي حسب رواية الطبري، و ٢٤٠٠٠ حسب رواية ابن الأعمش، على كل عربي أن يجابه عشرة مقاتلين منهم أو خمسة، واستمر حصار البلدة كما يقول التأريخ، أن هاشم الملقب بالمرقال هو من أقر الحصار كسلاح حاسم في الموقعة المرتقبة، ودام أكثر من سبعة أشهر وفق الروايات، وكما تؤكد الوقائع المنقولة، كانوا يخرجون أرتالاً لتقاتل في ٨٠ زحفاً كما يقول كتاب تأريخنا، وكانت غاية الزحوفات لإتعب المقاتلين، ومن دهاء مهران الرازي، أنه كان يدفع مجاميعاً تقاتل ثم يمنحهم الإستراحة، ويدفع بأرتالٍ تاليةٍ، لكن المسلمون قاتلوا ببسالة لطول باعهم بالحروب وقوة إرادتهم ورجبتهم في القتال، وحدث تحوّل في سير المعركة، بعدما - كما تؤكد بعض الروايات المنقولة - أكثر من ١٢٠٠٠ مقاتلٍ فارسٍ التحقوا بجيش المسلمين، وقاتلوا جنبهم ببسالة ضد رفاقهم، وأباحوا بأسرار جيشهم لهم، مما سهل هزيمتهم وفرارهم باتجاه منطقة حلوان.

- أكاد أن أسمع صيحة مفزعة، أظنه صوت .. صوت ..  
- بل هو .. بل هو .. كانت حكمة بالغة، الحرب خدعة، والشجاعة  
وحدها لن تحقق لك ما تصبوا إليه، ما لم تشغل عقلك لحلحلة معنويات  
وقوة عدوك وتستمكن مكامن ضعفه، ألم يفعلها صقر قريش ١٢ كما  
يشير التأريخ لنا، يوم عبر البحر وحط على ضفة الساحل الأندلسي،  
يوم أحرق السفن، وصاح بصيخته المشهورة: ”البحر من وراءكم  
والموت من أمامكم...ألخ...“. حصر الجند داخل مأزق، ليس أمامه  
سوى منفذين، باب الموت إن فكر أحدهم بالهرب غرقاً، وباب القتال  
حتى النجاة، افلح في استخدام دهاءه كشحنة سحرية في المعركة،  
كذلك فعل القعقاع بن عمرو التيمي ١٣ كما يشير لنا كتاب المنهج  
وأدبيات الحكومة، اراد بصيخته أن يُنهض الهمم التي رآها فترت في  
الجند، جرّاء الحصار الطويل والشوق الى الأهل، وأنت تعرف أن العربي  
أكثر شعوب الأرض وأممها اشتياقاً لحضن زوجته، أراد أن يُفعل روح  
القتال فيهم، صاح: ”سيدكم هاشم بن عتبة بباب الخندق..!“ . كان  
هو داخل الخندق كما يشير المنهج، يبطش بهم بسيف هرقل كما يقول  
تأريخنا، وهو السيف الذي اختاره، عندما عرض عليه سعد بن أبي  
وقاص، كما يقول المنهج، ستة أسياف وخمسة دروع تم الحصول  
عليها من قبل القعقاع من فارسي قتله يوم القادسية، سيف ودرع

كسرى، ومن بينها أيضاً، كما يقول التاريخ، سيف ودرع هرقل غنمها  
الفرس من الروم، وكانوا يتباهون بهما، سيف خاقان ملك الترك، سيف  
ملك الهند، وسيف النعمان بن المنذر ملك الحيرة، كما يقول تأريخنا،  
أخذه كسرى لما مات النعمان، اختار القعقاع سيف هرقل ودخل المعركة  
وابلى بلاءً حسناً، كما يقول تأريخنا، رغم وجود رذود منافية لبطولاته  
التي فاقت كل تصور من قبل بعض المؤرخين، لكننا سنعتمد على ما  
هو شائع من الروايات، وعود لسير المعركة، كما كان مدوناً لأسباب  
منهجية وأحادية الجانب، كلام لم نستطع أن نبوح به يومئذ، كُنَّا بصدد  
تلك الصيحة، إنها سرعت الغيرة فيهم، ولا اكتمك الحديث، وحري بك أن  
تعرف أن العرب قلوبهم نابضة، لا تحتمل الانتظار الطويل، وما معروف  
عنا إننا أمة عجولة، نرغب خوض الملمات دفعة واحدة، ألسنا نتناول  
الطعام قبل نضجه، نجم هذا من كوننا شديدي الثقة بأنفسنا، فنحن  
أمة صحراوية، ومن طبائعنا الرغبة في الاحتدام مع عدونا بلا مقدمات،  
وبلا خطوط رجعة، كما تقول المصطلحات العسكرية الحديثة، ما أن  
هدر جرس الصيحة في آذانهم، حتى اندفعوا ليموتوا معه، أو ينتقموا  
له من عدوهم، مختصر الكلام، انطلت الحيلة اللماحة، كما رغب بعض  
المؤرخين تزويق صيحة القعقاع، وعندها تحررت بلدتنا وفق ما قرأنا  
من روايات..

توقف عن الكلام.. سحب كفه بشيءٍ من التوتر من على كتفي،  
وسار بضع خطوات قبل أن يقف، تقدمت منه، وجدته ينتحب، وضعت  
كفي على كتفه، قلت:

- أستاذ.. أنت تعاني من سر يترجرج في عينيك متوهجاً كتوهج  
مشاعل فرسان المعركة، أو كصورة القمر على أمواج متلاطمة.  
انزل كفي من على كتفه بدفعة خفيفة، قال:

- زوراب.. ربع جراءة فارس منهم يكفيني أن اقتحم أرض الحقيقة،  
لا تحرر من ثقل جبل يجثم على كاهلي، منذ ذلك النهار المشؤوم..  
يوم.. يوم.. آه.. يا للجنة الخجل..

- لا تشغل نفسك به أستاذ، الأيام ستميت صعقة مفاجأته، ويغدو  
محض خبر متواتر بارد الصدمة يومئذ.

- هذا ما وضعته في بالي آنئذ، لكن.. هناك من انهضني، أو  
بالأحرى أنهض ناره فيّ ودفعني إليك، بعدما علمت أنك تعيش حلاًماً  
أثيراً، وتخلفت عن الناس لتكتب حكايتك، رغبت بدوري أن تكتمل حياتك  
من كل جوانبها، ولا اكنمك السر إنني طمعت أن أكون في حكايتك، إنها  
أمتية ولدت معي يوم سَموني هانياً.

- أستاذ لنعد إلى كلامك! قلت إنك ولدت يوم الأحد، وهذا ترجيع  
لسؤال طرحته عليك يوم اجلسنا هنا.. يوم حكيت لنا مشاهد المعركة..



استدار ومشينا.. وبعدما خفتت النيران، رأيت الجنود يخرجون من شرق البلدة متجهين عبر الجبال والوديان نحو بلدة حلوان، مشينا.. وجدته يمسح دموعه، مَدَّ يده ومسك يدي، مشينا.. عبر الأزقة غير الشرعية، عبر ممرات حصباء، ومنازل مشوهة، وصلنا الشارع العام وعبرناه نحو المدرسة، ترك يدي ومَدَّ يده من خلف القضبان، سحب مصراع الباب، ودخلنا إلى الساحة، كان الطلاب في غاية الانضباط، وكان المدير واقفاً بيده العصا، شعرت بخوف مباغت، تذكرت صباح ذلك اليوم، آه.. إنها التعاسة التي ظَلَّتْ ترافقني طيلة سنوات، وما زلت أجهل السبب، يوم أخرجونا من الصفوف وسط هرج ومرج، نادوا اسمي، مرتبكاً وصلت منتصف الساحة، تقدم القراش وانتزع حذائي، قلبني، وانهالت على أقدامي عصا المدير..]

حاولت أن أصل إلى الحمّال، كي أنتزع منه ما باح به للأستاذ هاني، وجدت أكثر من عشرة حمّالين كلهم كانوا طلبة معنا، جلست مع بعضهم، ذكرت سيرتك في محاولة انتزاع معلومة من أحدهم، تعذر علي الحصول على أي توضيح، قبل أن تأتي المعلومة عبر باب المصادفات، كنت داخل السوق لحظة شعرت بعصا توكرني من الخلف، وجدت أخرس البلدة وبين شفثيه سيجارة:  
”تجششششج.. تجششششج“



استجبت لرغبته، جلسنا في غرفة صغيرة في مدخل كراج، كان يعمل كراجياً، طلب لنا الشاي، تكاتبتنا أمورنا وعرجنا نحو ماضيها، كان كثير السؤال عنك، لم يخطر ببالي ما كنت أبحث عنه، هو من كتب لي:

”أستاذ هاني كان يبحث عنك؟!“

”ضاعت الفرصة“

”تحدث عن زوراب وعن يوم ظلمه“

نهضت فرحاً أو متحمساً، بين هذا وذاك، وجدت خيط المعلومة، أجلسني وكتب لي أن الأستاذ هاني هو من طلب من مدير المدرسة معاقبته وترقيين قيده.

”ألم يذكر شيئاً أو سبباً“

سحب من العلبه سيجارة وقدمها لي، تعرفني، لم أدخن في حياتي، لكن في تلك اللحظة وجدت رغبة لحوحة كي أدخن سيجارة، لأحمد بالدخان فوضى مشاعري.

”طالب قال له إن زوراب هو من رمى الحجارة عليه!“

صارخاً أو متلهفأً صحت، قبل أن أسترد وعيي، وبخط فوضوي كتبت:

”أمل - شطبت - ألم يذكر اسمه“

”نكر أن الطالب الذي رمى الحجارة اعترف بذلك“

”يعني زوراب كان ضحية لعبة كيدية“

”لم يذكر اسمه! كتب أنه نادم، ويريد أن يعتذر من زوراب،

كونه يشعر بقرب انتهاء حياته“

قضينا ساعة في المكاتبات، وقبل أن نفترق أخرج من مدرج الطاولة دفتر ملاحظات بحجم الكف، قلب أوراقه أمام عيني وسيجارته في فمه، وضعه جانباً وكتب على كشكوله:

”هذه تغريدات زوراب احتفظت بها هنا في دفتر مستقل“

”قمت بعملٍ رائع يا صديقنا“

”حين أراه سأفاجئه بها!“

”حين نراه سنقيم احتفالاً نادراً!“

في تلك اللحظة ارتفع صوت الأذان، قمت وغادرت.

ولحظة بدأت بتدوين حكايتك، تذكرت تلك الجلسة، كان لزاماً علي أن أبحث عن أحرص البلدة، أكثر من مرة ذهبت إلى الكراج، سألت الكثير من الذين رفضوا العودة إلى البلدة، لم ألتقه إلا بعد أشهر في قاعة الفواتح أمام منزلك، ابن عمه مات بمرض خبيث، واسيته وكتبت له بعدما رافقني إلى خارج القاعة:

”بحثت عنك كثيراً“

”كنت في بغداد أراجع دائرة السجناء السياسيين“

”أنا بحاجة إلى دفتر تغريدات زوراب“

”ليس معي الآن“

”بدأت أكتب حكايته“

رمى السيجارة من فمه، وجدته يدنو ويعانقني، منفعلاً قبل رأسي، سحب كشكوله وكتب:

”أذكرني في حكايته إذا حكيته“

في اليوم الثاني من مجلس العزاء، ناولني الدفتر الصغير، وجدت وهج روحك، وشعلة أفكارك، ودقّة تعبيراتك، رغم أن الخط لم يكن خطّك، كانت تغريداتك مدوّنة بخطه، وكما أوضح لي أنه قام بنقلها من كشاكيله الكثيرة.

[.. لم أعد أملك تلك القدرة على المطاولة وملاحقة الأفكار التي تغزوني، لم أعد أشعر بدوافع تجبرني على غزو الليل، بدأت اشعر بوهن خلفته أوارام قديمة هجرتني، أسمع لهاثي وأنا أتنفس، أسمع دقات قلبي وأنا امشي، عقلي لم يعد يسعفني كما كان، رأيت الكرسي منقلباً، اعدته لمكانه، وجدت العكاز بيدي، علّفته على عثكلٍ ودخلت إلى البيت. في غرفتي القيت - عبر النافذة - نظرة على الزقاق والبلدة، لم أجد سوى غيوم تركض، وريح باردة تغزو، وصمت تام، عدت إلى سريري، وجدت سقف الغرفة ورقة بيضاء تنتظر غزوات ألمي عبر القلم..]

استلقيت على سريرك.

الليل - كما كنت تقول لي - أرض الحكيم.. وأملك قلمك.. في الليل تنتفض الحكاية.. تجتهد لترويضها، أو منحها فرصاً أخرى للحياة.

شيئاً فشيئاً تغزوك .. تهضك .. تتسلح .. تتدرع .. تتزود بمتاعك ..  
تركب حصان الحكاية وتنطلق إلى أرض أورامك .. وأورامك حكايات  
تورق وتتساقط كتساقط أوراق الشجر في الخريف .. وربما .. وربما ..  
بدأت تهجرك ..  
وتدنيك .. خطوة خطوة من حلمك الجميل .

## هوامش :

- ١ خندفة : السرعة في المشي.
- ٢ وقش : حركة.
- ٣ طلاً : تعب وإعياء.
- ٤ فرانق : الماشي على كعب قدميه.
- ٥ زمزمة : كلام خفي أو غامض غير مفهوم أشبه بالغممة.
- ٦ الحسك والخوازيق : قطع حديد أشبه بالمسامير أو الأخشاب المدببة، تُزرع حول الحصون والخنادق لعرقلة تقدم الجيوش الغازية.
- ٧ جلولاء الوقية : سُميت المعركة التي حصلت بين المسلمين والفرس بالاسم، كونها كانت، معركة كبيرة وحاسمة في تأريخ الإسلام، تم مُحاصرة البلدة ل- سبعة أشهر من قبل المسلمين، وبعدها تم فتح بلاد فارس بعد سلسلة من المعارك المتتالية. (كما تذكر كتب التأريخ)
- ٨ عمر المختار : القائد العربي الشهير الذي قاد الحرب الشعبية على الطليان في ليبيا، تم إلقاء القبض عليه وإعدامه بعدما رفض مهادنتهم، خلّده الشاعر أحمد شوقي بقصيدة مطلعها (رَكَزُوا رفاتك في الرمال لواء...ألخ)
- ٩ مهران الرازي : قائد جيش الفرس ، هُزم في القادسية وتوجه

إلى بلدة جلولاء، ليتحصن فيها، سورها بالحسك والخوازيق، وبعد سبعة أشهر من الحصار، إنكسر لواء جيشه وإتجه إلى منطقة حلوان ومنها إلى بلدة خانقين ليُقتل فيها. (كما تذكر كتب التاريخ)

١٠ المرقال : لقب القائد العربي الذي خاض معركة جلولاء

هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، وهو ابن أخ قائد الحملة الإسلاميّة لفتح بلاد فارس والي العراق، سعد بن أبي وقّاص. زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب. (كما تذكر كتب التاريخ)

١١ طليحة بن خويلد و عمرو بن معد يكرب و قيس من

مكشوح، القادة الذين التحقوا بجند هاشم المرقال على رأس ٦٠٠ فارس بطلب منه، لتعزيز قوّاته أمام قوّة جيش الفرس. (كما تذكر كتب التاريخ)

١٢ صقر قریش : هو القائد العربي الأموي الذي فتح بلاد

الأندلس في المعركة الشهيرة، يوم احرق السفن ووضع جنده أمام خيارين لا ثالث لهما، الموت غرقاً أو القتال حتى الفتح. (كما تذكر كتب التاريخ)

١٣ القعقاع بن عمرو التيمي : الفارس الذي ذاع صيته في

وقعة جلولاء، وسمي بطل العراق. (كما تذكر كتب التاريخ)

## الأحد ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٤

لأجلس بسعادة غامرة، سأقول لكم، لم اختلف جلوسي هذه المرة عن جلساتي السابقة، دائماً في الليل أجلس لأسافر إلى أقانيم الذكريات، أو التجوال منفرداً في بلدة راكمة، يكمن الاختلاف أنني باكراً نهضت هذه المرة، شعرت أنّ جسدي مشبّع بأريج منعش، أشم رائحة نديّة عبر نسيمات بدأت تمر على البلدة، وروحي تريد أن تفر وتُحلّق في فضاء توضح أكثر نقاءً، أصوات عصافير أخرجتني، وبحنو دنوت من الكرسي، عصافير لأول مرة تزور البلدة، خفت أن تهرب وأخسر لحظة إصغاء سامية لأشجان عصافير عادت تتحاور، أو تتخاصم لغاية أجهلها، سوى أنني أتذكر أن وراء كل معركة عصافير مجيء ضيف عزيز، أغلب الظن أنها أتت من شرق البلدة، ربما جاءت تبحث عن ماضيها، مثل هذا الهاجس العابر استوقفني، تمنيت أن لا يكون حلماً عابراً أعيشه، لكن يقيني رفض سريعاً التأويل الذي خطر فجأة في ذهني، ها أنا أجلس، بدأت العصافير تناقش أوضاعها، أو تتعارك لغاية فوق مستوى تفكيري، انقسمت إلى ثلاث مجاميع، مجموعتان تتخاصمان، ومجموعة تواصل الزقزقة بوجه المجموعتين المتشاجرتين،

كأنها غير منحازة، اتخذت الحياد وراحت تحاول تهدئة المجموعتين.  
في تلك اللحظة بدأت أسمع صوتاً غريباً، إنه يأتي من وراء الغيوم،  
صوت توضح عن مروحية تحلق خلف الغيوم، صوت بدأ يقترب..  
يقترب شيئاً فشيئاً.. يقترب بسرعة رحيل مسراتنا.. [

قبل بروز قرن الشمس بدقائق، رفرفت أجنحة مروحية تُحلق  
خلف الغيوم، رأينا هذا عبر التلفاز، كانت قلوبنا تنتفض وتتحمس  
وتبتهل أن لا تطول المعركة، وأن لا تتعرض البلدة لمزيد من الدمار  
والحرائق، رغبتنا أن نعود بأي ثمن إلى ديارنا، نعم.. لا بد أن تلك  
المروحية التي رأيناها، وإن كانت من مخلفات الجيش السابق، لا بد  
أنها حامت بصوتها المزعج حول البلدة، قبل أن تُركّز على أهداف  
مرصودة تتحرك، لا بد أن دنو صوتها أوقف ضجيج العصافير،  
وأجبرتك على الدخول إلى المنزل، ولحظة دخلت، هطلت باقة  
قذائف عشوائية على مناطق في كبد البلدة، لم تمض سوى دقائق  
حتى لعل الرصاص لمختلف الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، لا بد  
أنك من نافذة غرفتك التي وصلتها قفزاً وفق قناعاتي، ووفق أدق  
التأويلات التي حسبتها، محترساً من تناثر الرصاص العازف، وقفت  
جانبياً ومررت عينيك إلى مساحات مفتوحة لرؤوس المباني.  
”ماذا ستقول لهم..؟“

لا أعرف هل أعددت جواباً ينقذك من صدمة المواجهة؟



- أرفع يديك؛ سأفترض صرختهم بوجهك، وهذا مجرد احتمال روتيني وشائع ومتوقع في معارك المدن.  
لا مانع يوقفهم، ولا خوف يربكهم من أية مواجهة مرتقبة، رصاصهم ينطلق، أينما توجد أو لا توجد حركة، المهم يكنسون الأشباح التي يتخيلونها من دربهم، لا رصاص يرد عليهم، أو يصد زحفهم وهم بعيون لا ترى بوضوح يشقون خرس الأرزقة، واقتحام المنازل بعد قلع أبوابها بضربات أقدامهم، أو اعتلاء حيطانها المتصدعة بقفزات قطيئة.

ماذا لو سقط عليك صليب قنّاص؟

كثّ اللحية، هندامك متخشب، وفي مخدعٍ ما، قنّاص تطوع لحرب القبعات، كما سمّيتها يوم بدأت تلتهم أعمارنا، قنّاص تسبقه حماسته، يتقافز من سطح منزل إلى آخر، يفتش بعين متحفزة عن أهداف تتحرك، أو يتخيلها تتحرك في مرمى ناظوره.  
هدف يتضح في بؤرة القنص. يضغط على الزناد:  
”الله أكبر“ .. لسانه يغرد: ” قتلت أحدهم..!“

\*\*\*

في ورقة من أوراقك المتناثرة، وجدت إشارة حيوية وحساسة، حول قول سمعته من ملثم يوم طرّقوا عليك الباب وأنت تروم أن تطبخ غداءك:

”... قد نغير إستراتيجيتنا...؟“

فضول دفعني أن أقف لحظة حيرة عند هذه الجملة، أنت تقر، أنك قد رأيتهم يوم نصبوا تلك الثنائية شبه المتهالكة على سطح منزل مواجه لمنزلك، رأيت كيف موهوها بما يخفيها ويسترها عن عدسات مناظير الطائرات والمروحيات، بأغصان اشجار، قبل أن يطرقوا عليك الباب.

وعدم تواجد سلاح مقاومة الطائرات في مكانه، سيقنعنا بأنهم حقاً قد غيروا إستراتيجيتهم، وهذا يجزنا أيضاً إلى أنّ القادة الكرام، أصحاب الوجوه اللامعة، كانوا فعلاً يتفاوضون معهم ولا سر يمكث ساعات في هذه البلاد، وكل ما قيل من كلام حول ذلك سرّاً وعلناً، في المقاهي وبين التجمعات، لم يكن كلاماً عابراً، أو تخمينات أناس أوقاتهم كلّها فراغات ومطاردة الاشاعات وتفعيل الأقاويل لغايات شتى.

ولحظة بدأت حملة تحرير البلدة، لم يكن هناك رصاص مقابل، رصاص يرد على رصاص ينسكب بجنون وإسراف بلا وازع، أو ما يسمونه في الأعراف الحربية، مقاومة، أو صد هجوم مقابل، كنّا مستغربين، ونحن نتراكم في المقهى، نشاهد بغرابة غرابة سير المعركة، حقاً.. كانت تدار من طرف واحد، وكان صوت المذيع يهوّل الأمور، في كل لحظة يهتف جاءنا ما يلي، بالتحديد.. عاجل.. كذا.. وكذا..!.. كيت.. وكيت..! وكانت فرحتنا تكبر وتنمو مع أنفاسنا المتسارعة، لا يعيننا تواجد المحاربين في البلدة، أو عدم تواجدهم، كانت فرحتنا تكبر لقرب موعد عودتنا إلى الديار.

ليس هناك ما يشير إلى هذه المعلومة، ولكن واقع الحال يفرض

الجواب، سرعة استعادة البلدة، وتوغل الجند بلا تباطؤ أو خسارة، وعدم تشهير أسرى، أو تواجد بقع دماء وجثث متناثرة، دليل دامغ وصارخ على أن المعركة كانت **محتالة**.

\*\*\*

فكرة الاختباء داخل خزان الماء، لم أجد ورقة، أو إشارة تدل على أن الفكرة شغلتك، أو وضعتها سفينة نجاة ستركبها عند اشتداد الأزمة.

كان الرصاص يصير صرير الريح القارصة، والصواريخ تصرخ وتتفلق، والحرائق تلتهم المنازل، ولا بد أنك زحفت إلى خزان الماء مستتراً بالجدار، ولا أشك أنك ترددت لحظة رفعت الغطاء وتسلفت، واضعاً في بالك لحظة مناسبة للخروج عندما تهدأ الأمور. إلى هنا سأفترض انتهاء حكايتك.

\*\*\*

جوابان ما زالا عالقين في أذهان أهالي البلدة.  
١ بلا شك أن قناصاً رآه وتركه يدخل الخزان وارداً قتيلاً!  
٢ ربما الرصاصة كانت طائشة!

\*\*\*

مذ تركنا البلدة في تلك الليلة، ليلة الجحيم، بعد معاناة مريرة، بعد فقدان الصبر، تشنتنا في مدن وبلدات وقرى متنافرة، انهمكنا بسبل مبتذلة للعيش، صرنا متسولين نلهث خلف منظمات وهمية مجهولة

المصادر، تجلب لنا أرزاقاً فاسدة، تُسمرنا لساعات مملة تحت أشعة الشمس القاسية، وفي متارب أرضية مُزبلة، مزقوا أعصابنا، وفقدنا تدريجياً السيطرة على جوارحنا، وحدثت فيما بيننا فرقة وتباغض وتشاحن وتلاسن غير لائق.

وكان.. أصحاب الضيافة يصرخون بوجوهنا:

”متصيرون أوادم شوفوا الله شسوة بيكم!“

\*\*\*

”عائدون..!“

أمل يدنو، أمل يتلاشى، آراء تتضارب، مصالح تتصادم، وفضائيات تغرف العسل من أتون مصائرنا ومن انكساراتنا المتلاحقة.  
آه.. يا صديقي..

من أين أجد ذلك العاقل المتبقي، كي يُفلس لنا كلام ساستنا على مائدة الواقعية، أن يُجردها من سراليبتها البغيضة، ليصرح علناً بأن كل كلام مُغمس بالدموع من لدنهم غايته:

”تخدير أعصابنا من جهة، ومن جهة أهم، إخماد نيران الرأي

العام العالمي المنصبة عليهم“

انتظرنا ولم تفتر رغبة تحقيق أملنا.

قالت ألسن:

”العملية واضحة وباتت مكشوفة، بعد انتهاء هذه اللعبة

السياسية القذرة، سيجعلون من بلداتنا بعد استرجاعها معتقلات  
جماعية لنا“

اجلس على بحر المجهول - مثل صياد ينفرد على جرف نهر  
يبحث عن نفائس السمك - على حافات بنك الخيال، علني أستاذ  
جواهر أفكار تعيد إنتاج حكايتك.

\*\*\*

”جاء الفرج..“

صرخة وصلت إلى آذان الجميع، أخرجتنا سكارى نبحت  
مصادقية الخبر.

خبر معسول - بعد سلسلة أخبار ، اسعدتنا واتعستنا - جاء  
مُثلجاً للصدور، لم يتحقق الأمل لولا ضغوطات المهجرين، وتذمراتهم  
المتواصلة، لم يهنوا ولم تفتّر عزائمهم من طرق كل باب سياسي،  
كانوا يلاحقون الأخبار المعجونة بالأمال، يفسرونها ويلحّون على  
مقار حزبية عجّت بها الأسواق والشوارع، طالبين حقوقهم المسروقة،  
وأنت تعرف أن الحقوق هي مجرد العودة إلى الديار، بعدما زعموا  
إنها تطهرت وتوضأت وتهيأت لاستقبال أهلها. فالسبل ضاقت،  
والأوبئة تفشت، والجوع دك العظام، والصبر اجتاز الحدود، والبلدة  
تحررت، وليس هناك ما يُربك الوضع العام مرة أخرى.

”فما هي دواعي منع العودة؟“. هذا ما طاش بين الناس.  
وأخيراً استجابت الجهات المتحكمة بالقرار السياسي لتوسلات  
وضغوطات الناس.

سمحوا لنا أن ندخل إلى البلدة لساعات محددة، وفق قوائم تعج

باسماء توزعت على نقاط التفتيش، لا تخلوا من التوصيات الخاصة،  
وتفضيل فئات على فئات، فالشتاء جاء ببرده الجاف، وكان يجب  
اللجوء إلى ما تبقى لنا من أسمال نجت من الحرائق في منازل مغرلة  
من قبل الجنود، منازل محترقة، ومنازل مهدمة، لانتشالها ومواجهة  
برد الشتاء حتى مجيء الفرج الذي كبسوه في سلّة المستحيلات.  
شمّت امرأة رائحة غريبة في الزقاق.  
وتم اكتشافك.

\*\*\*

يوم عدنا..

وجدت باب منزلك مقلوعاً. وفي غرفتك، كانت مكتبك مقلوبة  
مقلوعة الأبواب، مئات الكتب مبعثرة، مبللة ومسحوقة، ونافذة الغرفة  
بلا زجاج، وجدت مذيعاً مهتماً مرمياً أمام مرآة خرّت بلورات  
زجاجها، وصيدلية محطة هابطة ومقلوبة.

دفعني الفضول أن ألقى نظرة على خزان الماء من أجل رؤية  
مكان الرصاص، ولحظة ألقيت نظرة إلى الداخل، خمّنت أن الخزان  
على ما يبدو، بل يبدو، لحظة دخلته كان خالياً من الماء، وجدت  
دمك يرسم خريطة حكايات سوف لن تمحى من عيني ما حييت. رأيت  
كشكولاً مفكك الأوراق، وبقع دماء اكلت الكثير من أوراقها. لملت  
الأوراق المتبقية، تلك التي سلمت من نزيّف دمك ومتقلبات الظروف.  
وكانت تلك الأوراق هي سلّة حكايتك.

## الأحد ٢٧ تشرين الثاني ٢٠١٦

يوم طلبوا منّي إيضاحات حول ماضيك، وحول موتك الغريب،  
وحول سر بقائك في البلدة أيام سقوطها، تلاسنت ألسن حول تخلفك  
عن قوافل الخارجين، منهم من قال:

”أُكيد أنه انظّم إليهم؟“

ومنهم من أكد بأنك بقيت متشبثاً بالبلدة حتى الرmq الأخير،  
بعدهما دفنت في مقبرتها كؤلالة و نداء و رواء. لشجاعتك ورغبتك  
في الموت فيها. بين هذا وذاك وجدت في نفسي دافعاً نهض فجأة،  
دافعاً لكتابة حكايات عجائبية كما اتفقنا، كانت الرغبة معطلة ومهملة  
جزء ما جرى لنا وانشغالنا باقتناص فرص الحياة المتضائلة.

شعرت بأنهم ألقوني في قاربٍ غير مأمون، ودفعوني إلى بحرٍ  
لجي من غير دليل، ولا متاع، وكان لزاماً عليّ أن اخوض المغامرة،  
من أجل انقاذ حكايتك، وأن اكون متحدياً لإنتاجها، لا كما تثرثر  
ألسن الناس، بل بما كنت وستكون لو بقيت حياً، رغبت أن انقذها  
من فبركات وتحريفات المتقولين، وصيادي السلابيح في المياه العكرة.  
.. واعتقد أنني رويتُ بما أعرف، وربما سأروي أشياء جديدة  
عندما احصل على أوراق أخرى، قد اجدها في مكان ما، أو في  
ذاكرة ما.

## خاتمة

يوم شيئناك..

تجاوزنا ردود أفعال مانعة، خاضعة لترتيبات أمنية بسبب توتر المنطقة، طرحوا فكرة أن ندفنك في المقبرة الجديدة، المستحدثة على مرتفع أرضي يسار الطريق المار إلى بلدة خانقين، تدخلت ووافقني من كان معي

آه.. لو تعرف من كان معي؟ كان يصر ويتوسل، كان الحمّال الذي بحثت عنه بين الحمّالين، صاحب السر الذي أرقني، كان يلح معي، يعانقني في كل لحظة بعيون دامعة ويلثم وجنتي بالقبلات، بصوت ناشج، ارتمتي على الأرض وراح يصرخ ويعيط تحت أقدامهم، قبل أن يلين صاحب القرار، وسمح لنا بمواراتك في المقبرة القديمة، إنه ذلك التلميذ الذي رمى الحجر، أنه زميلنا بدر، يوم كان الأستاذ هاني يشرح لنا وقائع المعركة، واسقطه متدحرجاً إلى عمق الوادي ليحدث له ما حدث، موقعاً عليك الحيف، من المؤلم أنك نلت عقاباً مخجلاً لا تستحقه، إعترف لي، بكى وهو يتكلم، كيف رمى الحجارة، وما كانت غايته من فعلته، وكيف قاد والده ليهمس في أذن الأستاذ هاني في ردهة المشفى متهماً إياك بالفعللة، ذكر سبب ذلك، ولابد أنّ الكثير من التلاميذ، من نجا منهم من حروبنا التي لا



تنتهي، ما زالوا يتذكرون تلك القصيدة التي قرأتها في حضرة معلم  
درس العربية في حديقة المدرسة..

(ركزوا رفاتك في الرمال لواءً.. يستنهض الوادي صباحاً ومساءً)  
لأمير الشعراء أحمد شوقي، عن إعدام رمز الثورة الليبية عمر المختار.  
قراءتك للقصيدة، كما اعترف لي بدموع ساخنة، احدثت نوعاً  
من الغيرة القاتلة فيه، بعدما فشل هو من قراءتها ارتجالياً ويتذكر  
الجميع أننا كيف ضحكنا عليه، ذلك الموقف وضعه محرراً في فك  
تمساح ووجد نفسه مندفعاً كما قال نحو مكيدة للإيقاع بك.  
بأنفاس قليلة سمحوا لنا العبور إلى المقبرة القديمة، ولم أكن بعد  
قد عثرت على أوراقك، ووفقاً للتقاليد المجتمعية المتبعة، وكما هو  
سائر وسائد عندنا، الناس تدفن موتاهم في رقعة أرض متقاربة.  
واريناك ترى جلبلاء كما كنت تحب أن تردها، إلى شمال قبور  
فلذتي كبذك نداء و رواء وضلعك اليمين وكولالة.

على شاهدة قبرك، سيقراً كل زائر لمقبرة البلدة القديمة:

{ فَمِنْهُمْ مَنْ قَصَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } ..  
(صدق الله العظيم)

\* هنا يرقد.. ( زوراب الأحدي )

\* ولد يوم.. ( الأحد ) ١٨ أيلول ١٩٦٠

\* تزوج يوم.. ( الأحد ) ٤ كانون الأول ١٩٨٨

\* استشهدت ابنتاه.. ( نداء ) و ( رواء ) يوم ( الأحد )

بانفجار انتحاري مزدوج أمام بوابة مبنى حزبي ٨ حزيران ٢٠١٤ .

\* استشهدت زوجته.. ( كوالاة ) يوم سقطت البلدة ( الأحد )

١٠ آب ٢٠١٤

\* استشهد يوم تحرير البلدة.. ( الأحد ) ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٤

- انتهت -

ديسمبر ٢٠١٤ - أكتوبر ٢٠١٨

( ما نقله أحرص البلدة إلى دفترٍ صغيرٍ نقلاً عن كشاكيله )  
[ تغريدات صديقي كاكه زوراب ]

ليلة أمس؛ طرقت باب الليل.. وجدت نفسي في حضن النهار!

\*\*\*

قال: كلامك ( ماشي ).. قلت: إلى أين؟

\*\*\*

أغلب الجمل مفيدة.. ولكن.. لا نتفعنا أوان العوز!

\*\*\*

كلما مرت فتاة جميلة عبر سيطرة.. ترحل الواجب من حماية الوطن!

\*\*\*

ربما وجدوا شعرك منثورا.. فسرح أغلب الشعراء كلامهم للريح!

\*\*\*

قوة الشعر في بساطته وعفويته.. لا بأشواكه الغامضة، أو  
بترصيعه بألفاظ غريبة هجرتها الحياة!

\*\*\*

الشعر الحقيقي في معناه لا في مبناه، المعنى فاكهة، المبنى  
طريقة تناولها !

\*\*\*

الرواية جنون ! العقلانية إحدى عراقيلها !

\*\*\*

فقط أوان الكتابة اكتشف أن الأفكار العظيمة غالباً ما تبحث  
عن لجوء ورقي!

\*\*\*

في التقاء العيون تتحطم جسور اليقين وتمتد وديان الشك!

\*\*\*

لا أحتاج إلى دليل إليك.. نبضات قلبك مجرّات ساطعة في خيالي!

\*\*\*

ذات قُبلة.. وجدت قلبك بين أسناني!

\*\*\*

الشوق أشواك.. أوان اللقاء تغدو ورداً!

\*\*\*

هكذا كنّا نفهم الحب.. يوم لا نراها يجافينا النوم، وتغدو الوسادة  
تحت رؤوسنا سفينة

تمخر بنا بحر الدموع!

\*\*\*

ليس حباً.. ما لم نعش بقلب واحد، ونترك قلبنا الثاني لنعيش  
به في العالم الآخر!

\*\*\*

حاولت أن احتويك، خرج دلالك عن السيطرة، لذلك أتمنى أن  
أمتلك أكثر من يدين !

\*\*\*

فمّ واحد لا يكفيني أوان اللقاء !

\*\*\*

قررت أن أجلس على دكّة الإحتياط، إنها الأقرب إليك وأنت  
بين الجمهور !

\*\*\*

طردني المدرب:

- أنك تسدد الكرات بإتجاه الجمهور !

- كلما أمسك الكرة أراها أمامي مرمى بلا حارس !

\*\*\*

يستمد قلبي من سواد الليل حبره لأنه يشبه لون عينيك!

\*\*\*

سقطت تفاحة على رأسي.. بعد يومين اكتشفت قوانين الكوابيس!

\*\*\*

اوان الجوع دائماً ما اشعر إنني غنيّ جداً.. غنيّ عن التعريف!

\*\*\*

أتقيد الخروج تحت المطر.. خوفاً على أفكاري من الغرق!

\*\*\*

أحترس من هز رأسي.. خشية أن تغادرني حفنة حكايات!

\*\*\*

عندما يضيع الكيان العام.. يسود الكيان الخاص!

\*\*\*

تبرع بقنينة دم.. بعد سنة فاجئه صديقه برواية فيها أسرار حياته!

\*\*\*

نعم اتفقنا أن نلتقي دائماً.. ولكن ليس في المرآة!

\*\*\*

لن تقوم لنا قائمة، ما لم ندين ماضينا، ونجمّد حاضرننا، وننطلق إلى المستقبل بقلبٍ واحد.

\*\*\*

لا أحتاج إلى فجرٍ صادق، كي أميّز بياض قلبك من سواده!

\*\*\*

فقد سبابته! بعدما عض أصبع الندم!

\*\*\*

كلما بترت دابر الشك، زعل يقيني!

\*\*\*

يقول: ساهمت معهم برأس المال.. أخذوا مالي وعزلوا رأسي!

\*\*\*

مذهبي إنساني.. لا أحتاج إلى إمام يتقدمني في الحياة!

\*\*\*

ومن لم يقف في عمق الضباب، لن يعرف قيمة الصحو!

\*\*\*

كان النهار يمحي كلام الليل.. ما باله اليوم يفضحه؟

\*\*\*

مُجتمعنا : ربما أصل الكلمة: ما.. اجتمعنا!

\*\*\*

ربما أصل المعلومات: المعلوم.. مات. وأصل المجهولات:  
المجهول.. آتٍ!

\*\*\*

كل الحروب التي خضنا غمارها، طبق سلاطة أمام حرب  
الهموم!

\*\*\*

المعاناة : أسماك في نهر الإبداع.. لا يصطادها إلا من ابتلي  
بأوهام الخلود!

\*\*\*

أغلب الكتابات قيء رؤوس عابثة!

\*\*\*

كلما تأتق رباعي باغته الصيف!

\*\*\*

الألم : أمل في غرفة الإنعاش.. لا يرد عافيته إلا صاحب  
إرادة نبيلة!

\*\*\*

أسنان الظروف تقضم أعمارنا.. وأسناننا تقضم عمر الظروف!

\*\*\*

فقط في بلادنا السعادة للمفرد والتعاسة للجملة - أعني - للجميع!

\*\*\*

أنا معطوف عليك.. متى ستعرب عن قلقي!

\*\*\*

حتى لو أشحتي وجهك عني.. ستسقط نظراتك علي!

\*\*\*

كلما مرت بي كوكبة حسان.. لمحتُ يديك تكسران سهام  
أحداقهن!

\*\*\*

قالت : أنت رقيق أون المداعبة؟

قال: لأنني اتخيلك كتاباً بين يدي وأوركك بأصابع روعي!

\*\*\*



إذا كنت حقاً كما تقولين أمر بك مرّ السحاب! هلا سمحت  
لرأسك أوان مروري أن ينطحني؟

\*\*\*

زيديني نظراً.. أزيدك حباً!

\*\*\*

وما قيمة بشاشتك؟ إذا كان قلبك حديقة أشواك!

\*\*\*

الليل كلّه باب للخروج!

\*\*\*

العجائبية تطوير .. الغرائبية إبتكار!

\*\*\*

كل ما موجود على الورق، مجرد أرق شخصي!

\*\*\*

أفضل مدررة هموم في بلادنا، كتابة الرواية!

\*\*\*

البعض منّا، حتى لو وضعوه على أرض مستوية، وامروه أن  
يمشي، سينشب أظفاره في الأرض ليحيلها إلى وعره قبل أن يبدأ  
بالمشي!

\*\*\*

رومانسية الاسلوب ليست نتاج شحن محمولات النص الأدبي  
بكلمات عاطفية أو غزلية، الرومانسية السردية، من وجهة نظري،  
غالباً ما تتحقق عبر البراعة في الكتابة!

\*\*\*

اسلوب الكاتب ليس صناعة فكرية أو مذهب ذهني، بل هو  
صفاته في الحياة، يتسلل، شاء أم أبى، إلى كتاباته كإيقاع موسيقي  
يتعذر الفكك منه!

\*\*\*

التوغل عميقاً في جنس القصّة القصيرة، وتحقيق البراعة فيه،  
غالباً ما سيغدو حجر عثرة إذا ما رغب الكاتب أن يختبر نفسه في  
كتابة الرواية!

\*\*\*

الكلمات هي نفسها، كذلك الأفكار، وزوايا النظر وطريقة  
الكتابة نفسها، ولكن سر الصنعة الذهبية يتوقف على حجم ثقافة  
وقوة المثابرة عند الأديب، كفيصل حاسم ما بين كاتب يُرقص العالم،  
وآخر يجعله يحبو ويتعثر بذات الكلمات والأفكار!

\*\*\*

كل صباح أشعر براحة رأس، بعد تفريغه من هموم وسموم الحياة،  
اكتشف مزبلة أوراق عن شمالي، وبضعة سطور عن يميني، الشماليات  
يذهبن إلى سلّة المهملات، واليمينيات يذهبن إلى كتاب أطمح بتأليفه!

كنّا نستقي الجمال من الروح، وخفّة الدم، والطبائع السمحة  
التي تسكننا، وحين حوّلنا امزجتنا إلى جمال المظهر، فقدنا الأصرة  
بجذورنا، فتهنا في دروب السراب!

\*\*\*

نعم الحزن أليم، ولكن لا بأس إن كانت نهايته شمس ساطعة  
تظهر دروبنا القادمة!

\*\*\*

المتكابر، جسده يمشي على اثنين، وظلّه على أربع!

\*\*\*

نتمالح أو ( نتمالح )؛ يا لبؤس النقطة التي تلعب بنا - فزارة  
- في دولاب الزمن!

\*\*\*

سأشرح لك صدري، واستقبلك برحابة فكري، واترك لك الكلام،  
لم يعد لساني يمتلك حق التعبير كما كان!

\*\*\*

سأمتنع من مشاركتك حفلة الدموع، إن لم تكن من أجل نسيان  
الماضي من جهة، ومن جهة أخرى لتهيئة اجواء غدنا لحياة جديدة!

\*\*\*

في شرقنا، هناك من يكيل السباب لساقتهم ليل نهار، وأوان  
الحرب سيبادر متحمساً لحمل السلاح والموت من أجلهم!

انتهت أزممة الثعالب السياسية، نحن الآن نعيش أزممة الضباع!

\*\*\*

الإلتزام في الأدب، كان السر العميق الذي حافظ على المعية  
الأدب القديم أمام معاول الأزمنة المتلاحقة!

\*\*\*

عذراً؛ لا وقت لدينا للعشق، لدينا مهمة تصهير القلوب في فرن  
السلام، ثمة أشجار يائسة تنتظر المطر!

\*\*\*

أيّ درع حصين هو حبك؟ كل النظرات المنطلقة إليه ترتد خائبة!

\*\*\*

ما بالك صادة عني؟ وظلك قد ائتلف بظلي!

\*\*\*

لم تتحول نظراتها إلى سيوف بئارة؟ كل فتاة تتعطل لديها مليكة الكلام!

\*\*\*

لا تلبسي يوم اللقاء الحرير! قد تستيقظ دودة القز وتسترد لعابها!

\*\*\*

قالت: ما بالك كلما رأيتني غيّيت؟

قال: أنا بلبل شريد أبحث عن قفصٍ يكمل حريتي!

\*\*\*

قال له صيقه: ما بالك كلما التقيتني قبلتني من فمي؟  
قال: في فمك روح التي عشقتها قبل أن تسرقها مني!

\*\*\*

لا داعي من تكليف عينيك أن تلتقي عيني! ما دامت الدموع  
لهجتيهما الخالدين!

\*\*\*

إذا احترمنا شوارعنا، سيخجل الوطن وينحني أمام مرورنا!

\*\*\*

الغرب يذهبون إلى صناديق الاقتراع لتبديل الوجوه.  
نحن نذهب إليها لطاء الوجوه نفسها!

\*\*\*

دائماً يسمعوننا : الموت حق!  
لم نسمع يوماً : الحياة حق أيضاً!

\*\*\*

انتهت العطلة!  
غداً تبدأ دروس الحب!  
سأنتظر أمام المدرسة.. مع المتسولين.

\*\*\*

- ماذا تعمل هنا؟.. صاح أبوها بوجهه.  
- أبحث عن قلبي!

هزّ يديه مستهزئاً، وكانت هي من خلفه تغمزه وتحنق فرحتها بكفيها.

\*\*\*

خلقك الله من ضلعي اليمين! لماذا تختارين المشي إلى شمالي؟

\*\*\*

تسألني عن مهنة الشاعر! حسناً أنه خياط أو هام!

\*\*\*

تسألني عن مهنة الحب! حسناً.. إنه جهاز وجداني لرفع ضغط  
الدم أو ان اللقاء!

\*\*\*

لا تبتئس من شبيهة رأسك! أنها أوراق تطهرت من سواد حياتك!

\*\*\*

كانت لنا قلوب تسع الجار السابع! واليوم كل قلوب الجيران لا تسعنا!

\*\*\*

فقط في وطننا، من يستحق الموت عمره أطول من مستحقي  
الحياة!

\*\*\*

تكتب رواياتك بطريقة مثالية، ولكن؛ يا للأسف كل ما تكتبه  
خالٍ من الوعي!

\*\*\*

مأساتنا؛ وجدت أناساً يحبون الكاتب أكثر مما يحبون كتبه،  
ويتابعون أخباره الشخصية أكثر مما يتابعون مؤلفاته!

\*\*\*

لا تؤلمني لدغة ثعبان، ولا لسعة عقرب، أو قرصة بعوضة، بل  
تميتني قرصة صديق.

\*\*\*

هناك الكثير الكثير من البشر يستحقون المشي على أربع!

\*\*\*

رُبّ ضارة لا تضرني.. ورُبّ نافعة لا تنفعني!

\*\*\*

كلما خرج دلالك.. تحول الزقاق إلى مسرح، والجيران إلى  
جمهور!

\*\*\*

عيونهن طيور الزاجل.. يوصلون الفكرة من أول نظرة!

\*\*\*

في كل بلدان العالم ليلهم كنهانهم.. فقط في بلادنا نهارنا كلينا!

\*\*\*

في بلادنا؛ دبر كل انتخاب انتخاب جماعي!

\*\*\*

ذقنّ واحد لا يكفينا لاستيعاب هذا الضحك المتواصل من حولنا!

\*\*\*

اليسار يمين.. إذا استدرنا إلى الورااء !

\*\*\*

تسألني عن الشهرة المفاجئة! حسناً.. إنها سهرة ليلة وردية!

\*\*\*

تسألني عن دافع الكتابة! حسناً.. ألمك قلمك وليلك سبيلك  
لتصريف غضبك!

\*\*\*

الكاتب ليس راقصاً في باليه كي يرقص بكلماته أمام القارئ،  
القارئ يريد أن يفهم جدوى حياته من خلال آهات حياة الكاتب، أنه  
لا يريد رعشات بدنه كونه أدمنها عن ظهر قلب.

\*\*\*

مصائب الرواية! إنها تشبه رحلة صعود إلى سطح القمر بدون  
وسائط نقل!

\*\*\*

الرواية بشخصياتها، الشخصية هي العمود الفقري لكل رواية !

\*\*\*

القراءة بالصدفة غالباً ما تكون أنفع وأمتع من القراءات المختارة،  
وتلك هي القوّة السحرية الكامنة في تلك الكتب المهمشة إعلامياً !

\*\*\*



سأوصي هدهدم أن يبلغ بلقيسهم لتكشف عن ساقها، عسى  
أن يفيقوا من لجة الغياب !

\*\*\*

لما سممونا زدنا حياتاً.. ولما سمموا حياتنا متنا !

\*\*\*

قبت قوسين منك، لولا سقوطي من السرير مطروداً من حلمك !

\*\*\*

للمطر طعم خديك !

\*\*\*

حافظي على بقايا دموعك، امامنا درب عسير !

\*\*\*

بدأت أفكر بجديّة أن أسحب دموعي من بنوك الأحزان، خشية  
أن تختلط بمياه الأمطار وأفقد هويتي البشرية يوم القيامة !

\*\*\*

ليس مهماً أن تكرهين القراءة، المهم أنك في حلك وترحالك  
تضعين رواية في حقيبتك اليدوية !

\*\*\*



# الفهرس

- ٥ ..... إهداء !
- ٩ ..... نوافذ الولوج إلى غرفة الحكاية
- ١٥ ..... خريطة الحكاية:
- ١٩ ..... من أوراق مبعثرة لـ كشكول مُفكك داخل خزان الماء
- ١٩ ..... الأحد ٨ حزيران ٢٠١٤ الساعة ٧:٣٠ صباحاً .
- ٢٠ ..... الأحد ١٠ آب ٢٠١٤ الساعة ٦:١٠ عصراً .
- ٢٦ ..... الأحد ١٧ آب ٢٠١٤ الساعة ٧:٣٥ صباحاً .
- ٣١ ..... الأحد ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٤ الساعة ٦:٢٢ صباحاً .

- الأحد ٣ آب ٢٠١٤ ..... ٥٠
- الأحد ١٧ آب ٢٠١٤ ..... ٧٩
- الأحد ٢٤ آب ٢٠١٤ ..... ٩٧
- الأحد ٣١ آب ٢٠١٤ ..... ١٠٦
- الأحد ٧ أيلول ٢٠١٤ ..... ١٣٦
- الأحد ١٤ أيلول ٢٠١٤ ..... ١٧٥
- الأحد ٢١ أيلول ٢٠١٤ ..... ٢٠٢
- الأحد ٢٨ أيلول ٢٠١٤ ..... ٢١٩
- الأحد ٥ تشرين الأوّل ٢٠١٤ ..... ٢٦٣
- الأحد ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٤ ..... ٢٩٢
- الأحد ٢ تشرين الثاني ٢٠١٤ ..... ٣١٥
- الأحد ٩ تشرين الثاني ٢٠١٤ ..... ٣٢٦
- الأحد ١٦ تشرين الثاني ٢٠١٤ ..... ٣٥٨

الأحد ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٤ ..... ٣٨٣

الأحد ٢٧ تشرين الثاني ٢٠١٦ ..... ٣٩١

خاتمة ..... ٣٩٢

الفهرس ..... ٤١١



## شكري وتقديري وإعترازي إلى :

الاستاذ (حسام جليل) باذلاً قصارى جهوده لمراجعة  
مخطوط الرواية، وقيامه بتصويب الهنات اللغوية التي  
وردت فيها.

